مالكولم غلادويل

MALCOLM GLADWELL

التحدث إلى الغرباء

TALKING TO STRANGERS

ما الذي يجب أن نعرفه عن الغرباء

What We Should Know about the People We Don't Know

تُرجم إلى 32 لغة عالمية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

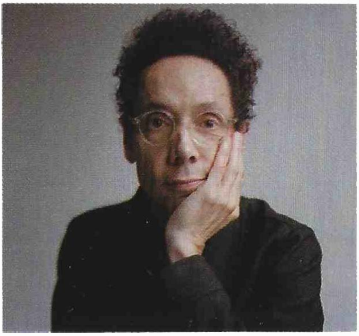

مالكولم غلادويل مؤلّف لخمسة من الكتب الأكثر مبيعاً بحسب النيويورك تايمز: نقطة تحول، والتفكير اللماح، والقيم المُتطرّفة، وما الذي رآه الكلب، وداود وجالوت. وهو شريك مؤسّس في بوشكين إنداستريز – وهي شركة تسجيل محتوى صوتي تنتج تدويناً منقحاً للتاريخ، والتي تعيد النظر بالأمور التي تم إغفالها وأسيء فهمها- وبروكين ريكوردز، حيث يُجري وريك روبين وبروس هيدلام مقابلات مع موسيقيين من شتى الاتجاهات الموسيقية.

لقد أدرج اسم مالكولم غلادويل في قائمة الشخصيات المئة الأكثر تأثيراً التي تُعدها التايمز، وأثنت عليه الفورن بوليسي، واعتبرته أحد أفضل المفكّرين على مستوى العالم.

التحدث إلى الغرباء

TALKING TO STRANGERS

ما الذي يجب أن نعرفه عن الغرباء

What We Should Know about the People We Don’t Know

مالكولم غلادويل

MALCOLM GLADWELL

ترجمة: غيلدا العساف

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Talking to Strangers

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Little, Brown and Company

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون

Published in the United States by Little, Brown and Company an imprint of Hachette Book Group, New York.

Copyright © 2019 by Malcolm Gladwell
All Rights Reserved

Arabic Copyright © 2019 by Arab Scientific Publishers

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2019 م - 1441 هـ

ردمك 978-614-01-2945-0

جميع الحقوق محفوظة للناشر:

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقراء للنشر

إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: علي القهوجي

المحتويات

مذكرة مؤلف 7

«اخرجي من السيارة!» 9

القسم الأول

الجواسيس والدبلوماسيون: أحجيتان

الفصل الأول 25

انتقام فيديل كاسترو 25

الفصل الثاني: 37

التعرف إلى الفوهرر 37

القسم الثاني

غياب الحقيقة

الفصل الثالث 63

ملكة كوبا 63

الفصل الرابع 101

الأحمق الأكبر 101

الفصل الخامس 121

دراسة حالة: الفتى في الحمام 121

القسم الثالث

الشفافية

الفصل السادس 161

مغالطة الأصدقاء 161

الفصل السابع 185
شرح (موجز) لقضية أماندا نوكس 185

الفصل الثامن 207
دراسة تحليلية: حفلة الأخوية 207

القسم الرابع

الدروس

الفصل التاسع 261
خ ش م: ماذا يحدث عندما يكون الغريب إرهابياً؟ 261

القسم الخامس

الاقتران

الفصل العاشر 293
سيلفيا بلاث 293

الفصل الحادي عشر 329
دراسة حالة: التجارب المطبقة في مدينة كنساس 329

الفصل الثاني عشر 347
ساندرا بلاند 347

مذكرة مؤلف

منذ سنوات عدة جاء والداي لزيارتي في نيويورك، فقررت أن أحجز لهما في فندق ميرسير؛ لأنه فندق فخم، وهو أحد الفنادق الراقية، فهو المكان الذي يقيم فيه المشاهير والأغنياء. لم يكن والداي يعرفان عن هذا النوع من الترف- وخاصة والدي - فهو لم يتعود مشاهدة التلفاز، والذهاب إلى السينما، أو الاستماع إلى الموسيقى الشعبية، وكان يظن أن مجلة بيبول تنشر مقالات عن علم الإنسان. فقد كانت اهتماماته، ومجالات خبرته محدودتين للغاية؛ إذ اهتم بالرياضيات، والبستنة، وقراءة الكتب الدينية.

عندما جئت إلى الفندق لاصطحابهما لتناول العشاء، وسألت والدي عن يومه، أجابني قائلاً: «كان رائعاً!». وأخبرني أنه أمضى فترة بعد الظهر، وهو يتبادل أطراف الحديث مع رجل في البهو. لقد كانت هذه هي الطريقة النموذجية التي يمضي فيها والدي وقته؛ كان يحب التحدث إلى الغرباء.

سألته: «ما الذي تحدثتما بشأنه؟».

فأجابني: «عن البستنة!».

سألته مجدداً: «ما اسمه؟».

أجابني: «لا أعرف، ولكن طوال الوقت الذي أمضيته معه كان الناس يأتون إليه، ويلتقطون الصور معه، ويوقع لهم على قصاصات من الورق».

إذا قرأ أحد مشاهير هوليوود هذا الكتاب، وتذكر دردشته مع رجل إنجليزي ملتح منذ فترة طويلة في ردهة فندق ميرسير، فليتواصل معي رجاءً.

بالنسبة إلى الجميع، خذوا هذا الدرس بعين الاعتبار، ففي بعض الأحيان أفضل المحادثات مع الغرباء لا تتيح لهم إلا البقاء غرباء.

«اخرجي من السيارة!»

1

في يوليو 2015، سافرت سيدة أميركية من أصل أفريقي؛ تُدعى ساندرا بلاند من مسقط رأسها في شيكاغو إلى بلدة صغيرة على بُعد ساعة غرب مدينة هيوستن بولاية تكساس، سافرت لإجراء مقابلة عمل في جامعة برايري فيو إيه أند أم، وهي الجامعة التي تخرجت فيها قبل سنوات عدة. كانت ممشوقة القامة، وجميلة، وتتمتع بشخصية بارزة. عندما كانت في الكلية كانت إحدى أعضاء أخوية سيغما غاما رو، وكانت إحدى أعضاء فريق المشاة، فقد تطوعت مع مجموعة من المتخرجين والمتخرجات، ونشرت بانتظام مقاطع فيديو قصيرة، وملهمة في قناتها على اليوتيوب، تحت عنوان «أقوال ساندي»، وغالباً ما بدأتها بعبارة: «صباح الخير أيها الملوك الجميلون والملكات الجميلات».

«استيقظتُ اليوم وأنا أحمد الله، وأشكره، لم أشكره فقط لأنه يوم مولدي، بل شكرته لأنه أتاح لي النمو والتطور، وشكرته على كل الأمور الجيدة التي حدثت لي في حياتي خلال هذه السنة، لقد نظرت إلى السنوات الثماني التي عشتها، وكل الأمور التي أراني إياها، فبالرغم من الأخطاء التي ارتكبتها، والأمور التي أفسدتها، إلا أنه لا يزال يحبني، وأريد أن يعرف جميع ملوكي وملكاتي أنه يحبهم أيضاً.»

حصلت بلاند على الوظيفة في برايري فيو، فغمرتها السعادة. لقد خططت لنيل الماجستير في العلوم السياسية إلى جانب عملها هناك. بعد ظهر العاشر من يوليو، غادرت الجامعة لشراء البقالة، وعندما كانت تنعطف يميناً بسيارتها على الطريق السريع المقابل لحرم برايري فيو الجامعي، أوقفها شرطي يدعى برايان إينسينيا؛ شرطي أبيض البشرة، ذو شعر أسود قصير، يبلغ من العمر قرابة الثلاثين عاماً. كان مهذباً - على الأقل في البداية. خاطبها قائلاً: «لم تشغلي إشارة تغيير المسار»، وطرح عليها بعض الأسئلة، فأجابت عنها، ثم أشعلت سيجارة، فطلب إليها أن تطفئها.

سُجّل ما حصل بينهما بواسطة كاميرا مثبتة على لوحة قيادة سيارته، وبطريقة أو بأخرى شاهد ما جرى ملايينُ المشاهدين على اليوتيوب.

بلاند: أنا أجلس في سيارتي، لمَ عليّ إطفاء سيجارتي؟

إينسينيا: حسناً، يمكنك الخروج من السيارة الآن.

بلاند: لن أخرج من سيارتي.

إينسينيا: اخرجي من السيارة.

بلاند: لماذا؟

إينسينيا: اخرجي من السيارة.

بلاند: لا، ليس لديك الحق أن تطلب إليّ ذلك. ليس لديك الحق.

إينسينيا: اخرجي من السيارة.

بلاند: ليس لديك الحق. ليس لديك الحق.

إينسينيا: لديّ الحق، اخرجي الآن من السيارة وإلا سأضطر لإخراجك.

بلاند: أرفض التحدث إليك سوى للتعريف عن نفسي [حديث جانبي] هل ستعتقلني لأنني نسيت تشغيل إشارة تغيير المسار؟

إينسينيا: اخرجي وإلا سأخرجك بالقوة. أنا آمرك ولديّ السلطة القانونية. اخرجي من السيارة الآن أو سأخرجك أنا.

بلاند: سأتصل بمحاميّ.

يستمر الشجار بينهما، وتتصاعد حدته.

إينسينيا: سأُخرجك بالقوة. [يحاول دخول السيارة].

بلاند: حسناً، ستُخرجني بالقوة؟ حسناً.

إينسينيا: [يطلب الدعم] 2547.

بلاند: لنقم بهذا.

إينسينيا: نعم، سنقوم بذلك. [يحاول الإمساك بها].

بلاند: لا تلمسني.

إينسينيا: اخرجي من السيارة.

بلاند: لا تلمسني. لا تلمسني. أنا لست رهن الاعتقال. ليس لديك الحق في إخراجي من السيارة.

إينسينيا: أنت رهن الاعتقال.

بلاند: أنا رهن الاعتقال؟ لماذا؟ ماذا فعلت؟ ما التهمة؟

إينسينيا: [يطلب الإرسال] 2547 كاونتري أف أم 1098. [غير مسموع] أرسلوا إليّ وحدة أخرى. [مخاطباً بلاند] ترجّلي من السيارة! ترجلي من السيارة الآن.

بلاند: لماذا ستعتقلني؟ هل تعتقلني لأنني نسيت تشغيل...

إينسينيا: قلت لك اخرجي من السيارة.

بلاند: لماذا ستعتقلني؟ لقد فتحت لتوك...

إينسينيا: أنا آمرك بشكل قانوني. سأُخرجك بالقوة.

بلاند: هل تهددني بأنك ستُخرجني بالقوة من سيارتي؟

إينسينيا: اخرجي من السيارة!

بلاند: ومن ثم سوف [حديث جانبي]؟

إينسينيا: سأقوم بصعقك! اخرجي الآن! [يُخرج مسدسه الصاعق ويوجهه نحو بلاند].

بلاند: يا للهول. [تخرج بلاند من السيارة].

إينسينيا: اخرجي الآن. اخرجي من السيارة.

بلاند: حقاً؟ فقط لأنني نسيت تشغيل إشارة تغيير المسار؟ كل هذا لأني نسيت تشغيل إشارة؟

أُلقي القبض على بلاند وأودعت السجن.

2

حدثت قضية ساندرا بلاند خلال فترة فاصلة غريبة في حياة الشعب الأميركي.

في أواخر صيف عام 2014، أطلق رجل شرطة في فيرغسون بولاية ميسوري النار على شاب أسود يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً يدعى مايكل براون فأودى بحياته، زاعماً أنه سرق علبة سجائر من متجر صغير. شهدت السنوات التالية مزيداً من القضايا الكبرى

التي انطوت على تعنيف السود من قبل الشرطة، فاندلعت أعمال شغب واحتجاجات في جميع أنحاء البلاد، ونشأت حركة الحقوق المدنيّة، بلاك لايفز ماتير. لبعض الوقت، أصبح هذا محط حديث الأميركيين واهتمامهم. لعلكم تتذكرون بعضاً من الأسماء التي ذُكرت في الأخبار؛ في بلتيمور، قُبض على شاب أسود يدعى فريدي غراي لحيازته سكين جيب، فتعرض للضرب في مؤخرة سيارة الشرطة إلى أن سقط في غيبوبة. خارج مينيابوليس، أُوقف شاب يُدعى فيلاندو كاستيل من قبل شرطية، وأطلقت عليه سبع رصاصات لسبب مجهول مباشرة بعد تسليمه الرخصة. في مدينة نيويورك، اقترب رجال الشرطة من رجل أسود يدعى إيريك غارنر لاشتباههم بأنه يبيع سجائر مهربة، مات إيريك خلال تعاركه معهم. في نورث تشارلستون بولاية ساوث كارولينا، أُوقف رجل أسود يُدعى والتر سكوت بحجة أن الضوء الخلفي في سيارته معطل، عندما ركض هارباً من سيارته، أطلق عليه شرطي أبيض النارَ. قُتل سكوت في الرابع من إبريل، 2015.

سلّطت ساندرا بلاند الضوء على الحادثة في برنامجها «أقوال ساندرا».

«صباح الخير يا ملكاتي الجميلات وملوكي الجميلين... أنا لست عنصرية. لقد نشأت في فيلا بارك، إلينوي. كنت الفتاة السوداء الوحيدة في فريق تشجيع لا يضم سوى فتيات بيضاوات... أيها السود، لن تصبحوا ناجحين في هذا العالم قبل أن تتعلموا كيفية التعامل مع البيض. أريد أن يرى البيض أننا نحن السود نبذل قصارى جهدنا... ولا يسعنا سوى أن نغضب عندما نرى بجلاء أن حياة السود

غير ذات قيمة. قد يقول البعض يا إلهي، ولكن لماذا فرّ؟ ألم يكن هذا ما أثار الشبهة وجعل الشرطي يطلق النار؟ ولكن الوقائع التي رأيناها مؤخراً تُظهر أن الشخص قد يذعن للشرطة ويتوقف، ومع ذلك ينتهي به الأمر مقتولاً.»

انتحرت ساندرا بعد ثلاثة أشهر.

تحدثتُ إلى غرباء محاولاً فهم ما حدث بالفعل على جانب الطريق السريع في ذلك اليوم في ريف تكساس.

لماذا أتحدث في هذا الكتاب عن خطأ حصل على الطريق؟ لأن النقاش الذي ولّدته تلك السلسلة من الأمور أثار كثيراً من القلق. أثار الأمر جوانب متعلقة بالعنصرية، إضافة إلى جوانب أخرى. في حين أن آخرين نظروا إلى الأمر من زاوية مختلفة. كيف كانت هيئة رجل الشرطة؟ ماذا فعل بالتحديد؟ لقد رأى بعضهم في الأمر غابة من دون أشجار. أما بعضهم الآخر فقد رأوا أشجاراً من دون غابة.

كلا الطرفين محق بطريقة ما. نحن نعاني من التحيز وعدم الكفاءة بشكل يومي في الولايات المتحدة وهذا ما يشرح الخلل الاجتماعي بشكل أوسع، لكن ماذا يمكننا أن نفعل بأيّ من هذه التحليلات باستثناء أن نتعهد المحاولة بجد أكثر في المرة القادمة؟ هناك رجال شرطة سيئون، وهناك رجال شرطة متحيزون. يفضل المتحفظون التفسير الأول، والليبراليون التفسير الآخر. في النهاية، لم يقدم الجانبان أي شيء جديد. لا يزال رجال الشرطة يقتلون الناس في هذا البلد، لكن أخبار هذه الجرائم لم تعد تُنشر. نتوقف لحظة لنتذكر ساندرا بلاند. ثم نضع جانباً جميع هذه الخلافات لفترة من

الزمن وننتقل إلى أشياء أخرى.

لا أريد الانتقال إلى أشياء أخرى.

3

في القرن السادس عشر، كانت هناك قرابة السبعين حرباً شاركت فيها جميع الدول والإقطاعيات الأوروبية. حارب الدنماركيون السويديين. حارب البولنديون فرسان تيوتون. قاتل العثمانيون أهل البندقية. حارب الإسبان الفرنسيين - وما إلى هنالك. بدا الأمر وكأن لا نهاية للصراع، لقد تحاربت كثير من الدول المتجاورة. ربما قاتل بعضهم العدو على الحدود المجاورة لبلاده تماماً، وربما تقاتل بعضهم داخل حدود بلادهم: لقد اندلعت الحرب العثمانية في عام 1509 بين شقيقين، يشهد الجزء الأكبر من تاريخ البشرية على اندلاع الحروب بين الأشقاء وليس الغرباء. في كثير من الأحيان، آمن الأشخاص الذين تقاتلوا بالمعتقدات نفسها، وبنوا مبانيهم ونظموا مدنهم بالأساليب نفسها، وخاضوا حروبهم بالأسلحة نفسها ووفقاً للقواعد نفسها.

لكن يندرج الصراع الأكثر دموية في القرن السادس عشر في هذه الحادثة، عندما التقى الغازي الإسباني هيرنان كورتيس مع حاكم الأزتيك مونتيزوما الثاني، لم يعرف أيٌّ من الطرفين شيئاً عن الآخر.

هبط كورتيس في المكسيك في فبراير 1519 وشق طريقه ببطء داخل البلاد، وصولاً إلى عاصمة الأزتيك في تينوتشتيتلان. دُهش كورتيس وجيشه عندما وصلوا إلى العاصمة؛ فتينوتشتيتلان مدينة

استثنائية تتميز بمناظرها الطبيعية الجميلة التي لم يسبق لكورتيس ورجاله أن شاهدوا مثلها في إسبانيا. بُنيت المدينة على جزر، وصلتها الجسور بالبر الرئيسي وعبرتها القنوات، وقد اخترقتها الشوارع العريضة، إضافة إلى قنوات الماء، والأسواق المزدهرة، والمعابد المبنيّة من الحجر الأبيض، والحدائق العامة، وكانت هناك حديقة حيوان. كانت العاصمة في غاية النظافة؛ وقد بدت أعجوبةً بالنسبة إلى شخص نشأ في قذارة المدن الأوروبية في العصور الوسطى.

يتذكر أحد ضباط كورتيس، برنار دياز ديل كاستيلو: «عندما رأينا أن هناك كثيراً من المدن والقرى التي بُنيت على جزر فوق المياه وغيرها من المدن الكبرى على الأراضي الجافة، عبّرنا عن دهشتنا، حتى إن بعض جنودنا سألونا هل ما نراه أمامنا حقيقة أم خيال؟... لا أعرف كيف أصف ذلك، رأيت أشياء لم أتخيل وجودها، ولم أحلم بها حتى».

استقبَلت مجموعة من زعماء الأزتيك الإسبان على أبواب تينوتشتيتلان، ثم اصطحبوهم لمقابلة مونتيزوما. حُمل مونتيزوما العظيم على محمل مطرز بالذهب والفضة ومزخرف بالأزهار والأحجار الكريمة. تقدم أحد أتباعه أمام الموكب، وكنس الأرض. عندما ترجّل كورتيس عن حصانه. خُفّض محمل مونتيزوما. ذهب كورتيس كونه إسباني الطبع لمعانقة زعيم الأزتيك فمنعه مرافقو مونتيزوما وأتباعه، وأخبروه بأنه لا يسمح لأحد بمعانقة مونتيزوما. بدلاً من ذلك، انحنى الرجلان لتحية بعضهما.

«هل أنت مونتيزوما؟».

أجابه مونتيزوما: «نعم، أنا هو».

لقد كان كورتيس أول أوروبي تطأ قدماه أرض المكسيك، وبالمقابل لم يلتقِ الأزتيك بأي أوروبي من قبل. لم يعرف كورتيس شيئاً عن الأزتيك، إلا أنه شعر بالرهبة من ثروتهم ومن بنية مدينتهم الاستثنائية. بالمقابل لم يكن مونتيزوما يعرف شيئاً عن كورتيس، سوى أنه تجرأ على دخول مملكة الأزتيك، مسلحاً بأسلحة غامضة ويمتطي وجنوده حيوانات كبيرة - أحصنة - لم يسبق لشعب الأزتيك أن رأوا مثلها.

لا عجب في أن الاجتماع بين كورتيس ومونتيزوما قد حيّر المؤرخين طيلة قرون؟ لقد تميزت تلك الحقبة - قبل 500 عام - عندما بدأ المستكشفون برحلاتهم الاستكشافية الجريئة عبر المحيطات وفي المناطق المجهولة، ظهر نوع جديد تماماً من المقابلة والنقاش. أراد كورتيس ومونتيزوما التحادث بالرغم من أنّ أحدهما لم يعلم شيئاً عن الآخر. عندما سأل كورتيس مونتيزوما: «هل أنت هو مونتيزوما؟». لم يقل هذه الكلمات مباشرة فكورتيس لم يكن يتحدث سوى الإسبانية. لذا أحضر معه مترجمين: إسباني وهندية. كانت المرأة الهندية تدعى مالينش، قبض عليها الإسبان منذ بضعة أشهر، وكانت تعرف لغة الأزتيك، الناواتل، والمايا، واللغة المكسيكية حيث بدأ كورتيس رحلته. أما المترجم الإسباني فكان كاهناً يدعى جيرونيمو ديل أغيلار، الذي غرق قاربه في يوكاتان، وتعلم لغة المايا في أثناء إقامته هناك، لذلك تحدث كورتيس مع أغيلار باللغة

لقد أصبحنا اليوم على تواصل دائم بأشخاص تختلف فرضياتهم، ووجهات نظرهم، وخلفياتهم عن أفكارنا. فالعالم في أيامنا هذه لم يعد عبارة عن شقيقين يتنازعان للسيطرة على السلطنة العثمانية. إنه أشبه بمعاناة كورتيس ومونتيزوما لفهم بعضهما عبر سلسلة من الترجمة. يشرح كتاب التحدث إلى الغرباء سبب كوننا سيئين للغاية في ترجمة معاني بعضنا وفهمها.

يُخصص كل فصل من الفصول التالية لفهم جانب مختلف من هذه المشاكل الغريبة. لعلكم سمعتم كثيراً عن هذه الأمثلة المذكورة في الأخبار. في جامعة ستانفورد في شمال كاليفورنيا، التقى طالب في السنة الأولى يدعى بروك تيرنر بامرأة في حفلة، واحتجزته الشرطة بحلول نهاية الحفلة. في جامعة ولاية بنسلفانيا، أُدين المدرب المساعد السابق لفريق كرة القدم بالمدرسة، جيري ساندوسكي بتهمة التحرش جنسياً بالأطفال، وتواطأ معه في الجرائم رئيس المدرسة واثنان من كبار مساعديه. سوف تقرؤون عن جاسوسة أمضت العديد من السنوات تعمل في السر في أعلى مستويات البنتاغون، وعن الرجل الذي أطاح بمدير صندوق التحوط بيرني مادوف، وعن الإدانة الخاطئة لطالبة التبادل الأميركية أماندا نوكس، وعن انتحار الشاعرة سيلفيا بلاث.

في الحالات السالفة الذكر، اعتمد الأطراف المعنيون على مجموعة من الإستراتيجيات لترجمة كلمات بعضهم وفهم نواياهم. وفي كل حالة، حدث خطأ ما. في كتابي (التحدث إلى الغرباء)، أريد أن أفهم تلك الاستراتيجيات - وأحللها، وأنتقدها، وأعرف مصدرها،

وكيفية إصلاحها. وعند اقتراب صفحات الكتاب من الانتهاء، سأعاود الحديث عن موضوع ساندرا بلاند، لأنه لا يمكننا نسيان ذلك اللقاء الذي أودى بحياة تلك الشابة. فكّروا في مدى صعوبة الموضوع. لو كانت ساندرا بلاند شخصاً عرفه برايان إينسينيا من الحي أو الشارع. لكان ذلك سهلاً: «ساندي! كيف حالك؟ كوني أكثر حذراً في المرة القادمة». بدلاً من ذلك، كانت بلاند من شيكاغو وإينسينيا من تكساس، أحدهما رجل والآخر امرأة، أحدهما أبيض والآخر أسود، أحدهما شرطي والآخر مدني، أحدهما مسلح والآخر أعزل. كانا غريبين عن بعضهما. لو كنا مجتمعاً أكثر تعاطفاً- لو كنا مستعدين لمراجعة ذواتنا وطرق تعاملنا مع الغرباء - ما كانت بلاند لتموت في تكساس.

في البداية، لديّ سؤالان - أحجيتان حول غريبين – تبدأان بقصة رواها رجل يدعى فلورنتينو أسبيلاجا منذ سنوات في غرفة استجواب ألمانية.

القسـم الأول

الجواسيس والدبلوماسيون: أحجيتان

الفصل الأول

انتقام فيديل كاسترو

1

في عام 1978، عُين فلورنتينو أسبيلاجا في براتيسلافا-ما كانت حينها تشيكوسلوفاكيا قبل عقدين من سقوط جدار برلين. أدار أسبيلاجا شركة استشارية تُدعى كوبا تيكنيكا، التي يُفترض أنها شركة تجارية، لكنها لم تكن كذلك، فقد شكّلت تمويهاً لما يدور في الخفاء. كان أسبيلاجا ضابطاً رفيع المستوى في الاستخبارات الكوبية العامة.

في العام 1985، عُيّن أسبيلاجا ضابطاً في دائرة التجسس الكوبية. وتلقى خطاباً مكتوباً بخط اليد من فيديل كاسترو نفسه. لقد خدم بلده بجدارة في موسكو، وأنغولا، ونيكاراغوا. وكان نجماً لامعاً في مجاله. في براتيسلافا، أدار شبكة عملاء كوبا في المنطقة.

في مرحلة ما شعر بالإحباط بالرغم من ترقيته المستمرة في جهاز الاستخبارات الكوبي. شاهد كاسترو وهو يلقي خطاباً في أنجلو، يحتفل فيه بالثورة الشيوعية، وارتاب من غطرسة الزعماء الكوبيين ونرجسيتهم. في العام 1986، تزايدت شكوكه عندما جاء الوقت لإرساله إلى براتيسلافا.

في 6 يونيو، 1987 خطط لانشقاقه، كان ذلك نوعاً من الدعابة بالنسبة إليه، لأن يوم 6 يونيو هو الذكرى السنوية لتأسيس وزارة الداخلية الكوبية، وهي الهيئة الكبرى التي تدير عمليات التجسس في البلاد. من يعمل في المديرية العامة للاستخبارات، فسيحتفل عادة في 6 يونيو. حين تُلقى الخطابات، وتُقام حفلات الاستقبال، وتقام الاحتفالات تكريماً لهيئة التجسس في كوبا. أراد أسبيلاجا أن يكون انشقاقه مؤلماً.

بعد ظهر يوم السبت، التقى بحبيبته مارتا في حديقة وسط مدينة براتيسلافا، وهي كوبية أيضاً، وهي واحدة من آلاف الكوبيين الذين عملوا في المصانع التشيكية. شأنها شأن آلاف الكوبيين حُجز جواز سفرها في المكاتب الحكومية الكوبية في براغ. وبما أن أسبيلاجا أراد تهريبها عبر الحدود، بواسطة سيارته الحكومية من طراز مازدا، فقد أزال الإطار الاحتياطي من الخلف، وأحدث ثقباً للتهوية في أرضية السيارة، وطلب إليها الاختباء في الداخل.

في تلك الحقبة، كانت أوروبا الشرقية معزولة عن سائر أرجاء القارة، خضع السفر بين الشرق والغرب لقيود شديدة. لكن براتيسلافا لم تكن تبعد كثيراً عن فيينا، اعتاد أسبيلاجا السفر على هذا الطريق، فهو يحمل جواز سفر دبلوماسياً، وكان حراس الحدود يعرفونه ويلوحون له على الطريق.

في فيينا، تخلى ومارتا عن السيارة، استقلا سيارة أجرة، وعرّفا عن نفسيهما عند بوابة السفارة الأميركية. حصل ذلك مساء السبت. وكان كبار الموظفين في منازلهم، لكن أسبيلاجا لم يحتج إلى فعل

ما يذكر لجذب انتباه الحارس قائلاً: «أنا ضابط في الاستخبارات الكوبية. أنا قائد مسؤول في الاستخبارات».

في مجال التجسس، يُعرف ظهور أسبيلاجا في سفارة فيينا بـ«الدخول الطارئ». وذلك عندما يظهر مسؤول من جهاز استخبارات بلد ما بشكل غير متوقع عند عتبة جهاز استخبارات بلد آخر، وكان فلورينتينو «تيني» أسبيلاجا أحد الجواسيس الكبار في الحرب الباردة، يملك معلومات حساسة عن كوبا - وحليفها الوثيق، الاتحاد السوفياتي - لدرجة أنه بعد انشقاقه، تعقّبه زملاؤه السابقون في جهاز التجسس الكوبي، وحاولوا اغتياله مرتين، لكنه نجا. منذ ذلك الحين لم يُرصد أسبيلاجا سوى مرة واحدة فقط، من قبل براين لاتيل، الذي أدار مكتب أميركا اللاتينية التابع لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية طيلة سنوات.

حصل لاتيل على معلومات من عميل سري كان يعمل كحلقة وصل لأسبيلاجا. التقى به في مطعم خارج ميامي، في كورال جابلز. أبلغه هناك بتعليمات للاجتماع في مكان آخر، أقرب إلى حيث كان يعيش أسبيلاجا بهويته الجديدة. استأجر لاتيل جناحاً في فندق، في مكان مجهول، وانتظر وصول تيني.

قال لاتيل، وهو يتذكر الاجتماع: «إنه أصغر مني. أنا في الخامسة والسبعين، وهو على الأرجح في أواخر الستينيات. لكنه عانى من مشاكل؛ أعني بذلك كونه منشقاً، ويعيش بهوية جديدة، وهذا صعب للغاية».

كما يقول لاتيل: حتى في حالته هذه، كانت صفات أسبيلاجا

واضحة عندما كان شاباً، وجذاباً، ورشيقاً، إضافة إلى كونه دراميا؛ -أحب المخاطرة والإيماءات العاطفية. عندما دخل أسبيلاجا إلى جناح الفندق كان يحمل صندوقاً. وضعه على الطاولة وتوجه نحو لاتيل.

قال: «إنها مذكرات كتبتها بعد وقت قصير من انشقاقي، أريد أن أسلمك إياها».

داخل الصندوق، في صفحات مذكرات أسبيلاجا، كانت هناك قصة لا معنى لها.

2

بعد ظهوره الدرامي أمام السفارة الأميركية في فيينا، نُقل أسبيلاجا إلى مركز استجواب في قاعدة للجيش الأميركي في ألمانيا. خلال تلك السنوات، عملت الاستخبارات الأميركية في هافانا تحت رعاية العلم السويسري. كان لدى الوفد الكوبي اتفاق مشابه في الولايات المتحدة. قبل بدء الاستجواب، صرّح أسبيلاجا بأن لديه طلباً واحداً: أراد أن يلتقي بشخص من وكالة الاستخبارات المركزية، أحد رؤساء المحطات السابقين في هافانا، وهو رجل معروف في الاستخبارات الكوبية باسم إيل ألبينيستا متسلق الجبال.

خدم متسلق الجبال الوكالة في جميع بقاع العالم. بعد سقوط جدار برلين. كشفت الملفات التي استرجعها جهاز الأمن العام وشرطة ألمانيا الشرقية السرية معلومات عن تدريسهم دورة تدريبية حول متسلق الجبال لعملائهم. كان مثالياً في عمله. ذات مرة، حاول

ضبـاط الاسـتخبارات السـوفيات تجنيـده: وضعوا حرفياً أكياسـاً من المال أمامه، إلا أنه لوّح لهم بها، وسخر منهم. لم يكن متسلق الجبال خائناً. لقد تكلم الإسـبانية مثل الكوبيين. كان قدوة أسـبيلاجا، الذي أراد مقابلته وجهاً لوجه.

يتذكر متسـلق الجبال: «كنت في مهمة في مكان قَصي من البلد عندما وصلتني رسالة كي أتوجه إلى فرانكفورت». بالرغم من تقاعده منـذ فتـرة طويلـة مـن وكالـة الاسـتخبارات المركزيـة، إلا أنه لا يزال يفضل أن يُعرّف عنه بلقبه فقط. «كان مركز استجواب المنشقين لدينا في فرانكفورت، وأخبروني أن زميلاً قد دخل إلى السـفارة في فيينا، سافر من تشيكوسلوفاكيا مع صديقته التي أخفاها في صندوق سيارته، دخل وأصر على التحدث إليّ. اعتقدت أن الأمر برمّته غير منطقي».

توجه إيل ألبينيسـتا مباشـرة إلى مركز الاسـتجواب. وكما يتذكر: «وجـدت أربعـة ضبـاط جالسـين فـي غرفـة المعيشـة، أخبرونـي بأن أسـبيلاجا عـاد إلـى غرفتـه وهو يضاجـع حبيبته، كما فعـل دائماً منذ وصولـه إلـى المخبـأ. ذهبت للحديث إليـه، كان يرتدي ملابس بالية، تعكس ذوق الأوروبيين الشـرقيين والكوبيين في تلك الفترة، متسـخة بعض الشيء، ولكن اتضح لي على الفور أنه رجل في غاية الذكاء».

عندما دخل، لم يُعرّف متسـلق الجبال عن نفسـه. حاول البقاء حـذراً؛ كان أسـبيلاجا شـخصاً مجهـولاً بالنسبة إليه. لكـن الأمر لم يسـتغرق سـوى دقائق قبل أن يكتشـف أسـبيلاجا الأمر. كانت هناك لحظـات مـن الصدمـة، والضحـك، وتعانـق الرجـلان وفقـاً للطريقة الكوبية.

قال متسلق الجبال: «تحدثنا لخمس دقائق قبل أن ندخل في التفاصيل. عندما تستجوب أشخاصاً بهذه الطبيعة، فعليهم إثبات حسن نيتهم أولاً، لذلك سألته بشكل أساسي عما يمكنه أن يخبرني به عن عملية الاستخبارات الكوبية».

عندها أفشى أسبيلاجا عن سره الكبير؛ الخبر الذي جلبه من خلف الستار الحديدي إلى أبواب السفارة في فيينا.

كانت لدى وكالة الاستخبارات المركزية شبكة من الجواسيس داخل كوبا، ساعدت تقاريرهم على تكوين فهم أميركي لخصمها. سمى أسبيلاجا أحدهم وقال: «إنه عميل مزدوج. يعمل لصالحنا». صُدم كل من في الغرفة. فلم تكن لديهم فكرة. لكن أسبيلاجا سمى جاسوساً آخر: «إنه عميل مزدوج أيضاً». ثم آخر، وآخر. كانت لديه أسماء، وتفاصيل، وأدلة. هذا الرجل الذي جندتموه على متن السفينة في أنتويرب. سمين قليلاً ولديه شارب؟ إنه عميل مزدوج. هناك رجل آخر، يعرج قليلاً، ويعمل في وزارة الدفاع؟ إنه عميل مزدوج. واصل التعداد ووصل عدد الأشخاص الذين سماهم إلى عشرة - عملياً كل العملاء السريين الأميركيين داخل كوبا. عملوا جميعاً لصالح هافانا، وزودوا وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بالمعلومات التي أعدها الكوبيون بأنفسهم.

قال متسلق الجبال: «جلست ودوّنت الملاحظات. حاولت ألا أُظهر أية مشاعر. هذا ما درّبونا عليه. لكن نبضات قلبي كانت تتسارع».

كان أسبيلاجا يتحدث عن زملاء متسلق الجبال، الجواسيس

الذين عمل معهم عندما أُرسل إلى كوبا بوصفه ضابطاً شاباً طموحاً. عندما وصل إلى هافانا، دقق متسلق الجبال في جميع المصادر التي وردته، فحصها فحصاً دقيقاً للحصول على معلومات. قال متسلق الجبال: «إن كان لديك عميل يعمل في مكتب رئيس بلد ما، لكن لا يمكنك التواصل معه، فلا قيمة لذلك العميل. اقترحت أن نتواصل ونحصل على بعض المعلومات القيمة، بدلاً من الانتظار ستة أشهر أو سنة حتى ينتقل إلى مكان آخر». لكن تبين الآن أن تلك المهمة بأكملها كانت عاراً. قال بأسف: «يجب أن أعترف أنني كرهت كوبا لدرجة أنني استمتعت كثيراً بخداعهم. لكن تبين الأمر أنني لم أكن أنا الذي أخدعهم. هذه ضربة قوية بالنسبة إليّ».

صعد متسلق الجبال على متن طائرة عسكرية وتوجه مع أسبيلاجا مباشرةً إلى قاعدة أندروز الجوية خارج العاصمة واشنطن، حيث قابلهما «كبار الشخصيات» من الفرقة الأميركية اللاتينية. ويتذكر: «في القسم الكوبي، كان الرعب والصدمة مسيطرين. ببساطة لم يصدقوا أنهم خُدعوا طيلة هذه السنوات. لقد صُدموا جميعاً».

ازداد الأمر سوءاً. عندما سمع فيدل كاسترو أن أسبيلاجا قد أبلغ وكالة الاستخبارات المركزية عن أسرارهم، قرر رش الملح على الجرح. أولاً، جمع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية واحتفل بهم في كوبا. ثم بث عبر شاشة التلفزيون الكوبي فيلماً وثائقياً يتكون من أحد عشر جزءاً بعنوان لا غويرّا دي لا سي آي آيه كونترا كوبا- حرب وكالة الاستخبارات المركزية ضد كوبا.

تبين أن الاستخبارات الكوبية صوّرت وسجّلت كل ما كانت

تقوم بـه وكالـة الاسـتخبارات المركزية في بلادهـا منذ ما لا يقل عن عشر سنوات، وكـأنها تصور برنامجاً واقعياً. كبرنامج الناجي: نسخة هافانـا. كان الفيديـو عالي الجودة بشـكل مدهش، واللقطات مصورة عـن قـرب مـن زوايا سـينمائية، وكان الصوت واضحاً تماماً: لا بد أن الكوبيين اسـتبقوا الأحداث قبل كل اجتماع سـري، وأرسـلوا فنيّيهم لمد الأسلاك في الغرف الأمر الذي يُتيح لهم التنصت والتسجيل.

ظهـرت علـى الشاشـة أسـماء ضبـاط الاسـتخبارات المركزيـة الأميركيـة الذيـن عملـوا بالسـر. كان هنـاك فيديـو لـكل أداة متطورة اسـتخدمتها وكالة الاسـتخبارات المركزية: أجهزة إرسـال مخبأة في سـلال النزهـة وحقائب السـفر. كانـت هناك تفاصيـل متعلقة بمقاعد الحدائـق التـي جلـس عليها ضباط الاسـتخبارات المركزية للتواصل مع مصادرهـم. وعن كيفية ارتداء عناصر وكالة الاستخبارات المركزية قمصانـاً مختلفـة الألوان للتواصل سـراً مـع أهدافهم. وأظهرت لقطة طويلـة المـدة ضابطـاً من وكالة الاسـتخبارات المركزية وهو يحشـو صخرة بلاستيكية كبيرة بالنقود والتعليمات؛ وضابطاً آخر يخبئ وثائق سرية لعملائه داخل سيارة محطمة في ساحة خردة في بينار ديل ريو؛ فـي الحادثـة الثالثـة، بحـث ضابط عن طرد بين العشـب الطويل على قارعـة الطريـق، فـي حين كانت زوجته تدخن بصبر نافد في السـيارة. ألقـى متسـلق الجبـال كلمة قصيرة عن الفيلـم الوثائقي وقال: «عندما عرضوا تلك السلسلة التلفزيونية، بدا الأمر كما لو أنه كان لديهم رجلٌ يحمل كاميرا فوق كتفه ويصور كل مكان ذهب إليه».

عندمـا سـمع رئيس مكتب التحقيقـات الفيدرالي في ميامي عن

الفيلم الوثائقي، استدعى مسؤولاً كوبياً وطلب نسخة إليه. تم إرسال مجموعة من أشرطة الفيديو على الفور، مدبلجة بشكل مدروس إلى اللغة الإنجليزية. لقد تم خداع أكثر أجهزة الاستخبارات تطوراً في العالم.

3

هذا هو الجزء غير المنطقي في قصة فلورنتينو أسبيلاجا. لو خدعت كوبا مجموعة من القادة كبار السن، كما يفعل فنانو الاحتيال، لاختلف الموضوع. لكن الكوبيين خدعوا وكالة الاستخبارات المركزية، وهي منظمة تأخذ مشكلة فهم الغرباء على محمل الجد.

كانت هناك ملفات شاملة حول كل شخص من هؤلاء العملاء المزدوجين. يقول متسلق الجبال إنه فحصها بعناية. لم تكن هناك علامات خطر واضحة. مثل كل وكالات الاستخبارات، لدى وكالة الاستخبارات المركزية قسم - مكافحة التجسس- مهمته مراقبة عملياته بحثاً عن علامات خطر أو خيانة. ماذا وجدوا؟ لا شيء[1].

(1) بشكل منتظم تُجري وكالة الاستخبارات المركزية اختبارات كشف الكذب لعملائها - لتفادي هذا النوع من الخيانة كلما غادر أحد جواسيس الوكالة الكوبيين الجزيرة، تلتقي به وكالة الاستخبارات المركزية سراً في غرفة فندق، وتختبره على جهاز كشف الكذب. نجح الكوبيون في بعض الأحيان؛ وأعطى رئيس شعبة كشف الكذب شخصياً وثيقة نظيفة لستة عملاء كوبيين اتضح أنهم عملاء مزدوجون. في أحيان أخرى، فشل الكوبيون، ولكن ماذا حصل عند فشلهم؟ رفضهم مدراء القسم الكوبي. يتذكر جون سوليفان، أحد خبراء أجهزة كشف الكذب سابقاً في وكالة الاستخبارات المركزية، أنه استدعي لحضور اجتماع بعد رفضهم للعديد من العناصر الكوبية.

إذا عدنا إلى سنوات الحادثة، كل ما كان باستطاعة لاتيل فعله هو الاستهجان والقول إن الكوبيين قد «فعلوا ذلك بدقة وامتياز».

جهاز كشف الكذب هو على أقل تقدير، شيء غير دقيق. قد يحظى الضابط بكثير من سنوات الخبرة مع العملاء؛ يقابلهم، يتحدث إليهم، يحلل جودة التقارير التي يرفعونها. لا بد أن نتائج تقييم أحد المحترفين المدربين، والتي تم إجراؤها على مدار سنوات عديدة، أكثر دقة من نتائج اجتماع سريع في غرفة فندق، أليس كذلك؟ إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً.

أعني، اختار فيدل كاسترو العملاء المزدوجين الذين نالوا إعجابه. اختارهم بذكاء حقيقي... دُرب بعضهم على الخداع المسرحي. أحدهم وُصف بأنه غبي، كما تعلمون... إنه حقاً مخادع، وضابط استخبارات متدرب باحتراف... إنه أخرق للغاية. كيف يمكن أن يكون عميلاً مزدوجاً؟ نظّم فيدل كل هذا. أعني، فيدل هو أعظم ممثل لهم جميعاً.

قال سوليفان: «لقد نصبوا لنا كميناً، وبخّونا بلا رحمة...» قال كل من الضباط: «أنتم لا تعرفون ما الذي تفعلونه. وإلى ما هنالك. لم تكن الأم تيريزا لتجتازكم، كانوا وقحين جداً حيال هذا الموضوع».

لكن هل بإمكاننا لومهم؟ اختار الضباط استبدال أحد أساليبهم لفهم الغرباء وصلهم بجهاز كشف الكذب بأخرى؛ حكمهم الخاص. وذلك في غاية الجنون.

قال سوليفان: «يقول العديد من الضباط لأنفسهم ويثقون بذلك، أنا ضابط جيد. لا يمكنهم خداعي لكن هناك شخصاً أفكر فيه على وجه التحديد؛ وكان ضابطاً جيداً للغاية. ظنّ الجميع أنه أحد أفضل الضباط في الوكالة. اصطحبوه إلى عمليات تنظيف الجثث من الشوارع وشاهدوه على شريط وهو يقدم التحية إلى جثة. كان ذلك تصرفاً مجنوناً». من الواضح أنه كان يتحدث عني أنا متسلق الجبال.

يناقش متسلق الجبال أن وكالة الاستخبارات المركزية، لم تكن محترفة على الإطلاق خلال عملها في كوبا. وبما أنه اختبر العمل في أوروبا الشرقية، ضد الألمان الشرقيين، لذا يقول: «وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية هناك أكثر دقة واحترافية».

لكن ما هو ترتيب وكالة الاستخبارات المركزية في ألمانيا الشرقية؟ إنه بالترتيب السيئ نفسه لوكالة الاستخبارات المركزية في كوبا. بعد سقوط جدار برلين. كتب رئيس جهاز الاستخبارات الألماني الشرقي ماركوس وولف في مذكراته أنه بحلول الثمانينيات من القرن الماضي:

كنا محظوظين للغاية لأن جميع العملاء الذين عملوا لدى وكالة الاستخبارات المركزية في ألمانيا الشرقية كانوا عملاء مزدوجين أو عملوا معنا في البدء. بناءً على طلباتنا، سلموا جميعاً المعلومات المُختارة بعناية إلينا والمعلومات المضللة إلى الأميركيين.

في الواقع، عانى قسم أوروبا الشرقية المفترض أنه ماهر ودقيق في عمله، من أسوأ الاختراقات في تاريخ الحرب الباردة بأكملها. تبين أن ألدريتش آميس، أحد كبار ضباط الوكالة المسؤولين عن الاستخبارات السوفياتية المضادة، عمل لمصلحة الاتحاد السوفياتي. أدت خياناته إلى القبض على عدد لا يحصى من الجواسيس الأميركيين في روسيا وإعدامهم. عرفه إيل ألبينيستا، وكان يعرفه كلُّ من كان ذا مرتبة عالية في الوكالة. قال متسلق الجبال: «لم أثق به، لأنه كان كسولاً ومخموراً على الدوام». لكنه لم يشتبه هو وزملاؤه بأنه خائن. يتابع: «لم نتصور أن أحداً من طرفنا يستطيع خداعنا بالطريقة نفسها

التي فعلها آميس. لقد فوجئنا بأن واحداً منا خاننا بهذه الطريقة».

كان متسلق الجبال أحد أكثر الأشخاص موهبة في واحدة من أكثر المؤسسات تطوراً في العالم. ومع ذلك، فقد شهد على ثلاث خيانات مهينة - كانت الأولى هي خيانة جماعة فيدل كاسترو، والثانية خيانة العملاء الألمان الشرقيين، ثم الثالثة في مقر وكالة الاستخبارات المركزية نفسها، من قبل مخمور كسول. إذا كان تضليل أفضل عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ممكناً ولمرات عديدة، فماذا عنا نحن؟

الأحجية الأولى. لماذا لا يمكننا معرفة متى يكذب الغريب في وجهنا؟

الفصل الثاني:

التعرف إلى الفوهرر

1

مساء 28 أغسطس 1938، دعا نيفيل تشامبرلين في وقت متأخر من الليل مستشارَه المقرب إلى مكتبه في تن داوننغ ستريت لجلسة استراتيجية. وقتها كان قد مرّ على تولي تشامبرلين رئاسة الوزراء عام ونيّف. وهو رجل أعمال سابق، صريح، وعملي، وكانت خبرته تكمن في الشؤون الداخلية وتستحوذ على جلّ اهتماماته، ولكن في تلك الفترة واجهته أزمة تتعلق بالسياسة الخارجية، وتمثلت في تزايد وتيرة تصريحات أدولف هتلر العدوانية حول غزو سودتينلاند؛ وهي القسم الناطق بالألمانية في تشيكوسلوفاكيا.

إن غزت ألمانيا تشيكوسلوفاكيا، فستندلع حرب عالمية لا شك في ذلك، وقد أراد تشامبرلين تجنبها بكل ما أوتي من قوة. لكن هتلر وخلال الأشهر الأخيرة كان يعاني من عزلة دولية، فلم تكن حقيقة نوايا ألمانيا معروفة، وفي ظل هذا الغموض خيّم التوتر على أوروبا. لقد صمم تشامبرلين على إيجاد حل للمأزق، وأسمى فكرته بـ «الخطة زد» وكانت في غاية السرية، وطرحها على مستشاره تلك الليلة، في وقت لاحق، كتب تشامبرلين أن الفكرة كانت «غير

وقف الفوهرر الأصلع في منتصف الدرج، وقد ارتدى معطفاً من الجوخ كاكي اللون، عليه شعار النازية الأحمر والصليب المعكوف، إضافة إلى صليب الجيش على صدره. وقد ارتدى سروالاً أسود وانتعل جزمة جلدية عالية الساقين. شعره بني، وليس أسود، وعيناه زرقاوان، وتعابير وجهه غير مريحة، ما من شيء مميز في ملامحه، إن وُجد بين حشد من الناس فمن الصعوبة تمييزه بينهم، إنه أشبه بصورة جامدة.

دعا هتلر تشامبرلين إلى مكتبه في الطابق العلوي، كان اجتماعهما ثنائياً، ولم يحضره إلا مترجم. تحدثا، وفي بعض الأحيان احتدّ النقاش. وأعلن هتلر لتشامبرلين: «أنا مستعد لمواجهة حرب عالمية!». لقد أوضح هتلر أنه يريد الاستيلاء على جزيرة سودتينلاند، بغض النظر عن رأي العالم. عندها سعى تشامبرلين لمعرفة ما إن كان هذا جلّ ما يريده هتلر. فأجابه هتلر «نعم». حدّق تشامبرلين إلى هتلر بعمق ولوقت طويل وقرر تصديقه، في الرسالة نفسها التي وجّهها إلى أخته، كتب تشامبرلين أنه سمع من الناس المقربين من هتلر أن الزعيم الألماني شعر بأنه أجرى محادثة «مع رجل». أكمل تشامبرلين حديثه:

«باختصار تمكنت من بناء بعض الثقة، وهذا ما سعيت إليه من الزيارة، أعتقد أنه وبالرغم من الصلابة والقسوة اللتين رأيتهما على وجهه إلا أنني أظن أنه رجل يمكن الوثوق بكلمته».

في صباح اليوم التالي، عاد تشامبرلين إلى إنكلترا، وأدلى بتصريح مقتضَب على مدرج مطار هيستون حيث قال: «بعد ظهر أمس، أجريت لقاء مطولاً مع هتلر، وبعد اللقاء شعرت بالرضى لأن

كل واحد خرج وهو يفهم ما يدور في خلد الآخر».

وذكر أن هناك لقاءً آخر قريباً، لكن في مكان أقرب إلى إنكلترا. صرّح تشامبرلين قائلاً: «ذلك لإعفاء رجل عجوز مثلي من هذه الرحلة الطويلة». وساد الضحك والبهجة بين الحاضرين.

2

تُعد مفاوضات تشامبرلين مع هتلر إحدى أكبر الحماقات التي ارتُكبت في الحرب العالمية الثانية، فقد وقع تشامبرلين تحت تأثير هتلر؛ هزمه ببراعة على طاولة المحادثات. لقد أخطأ تشامبرلين في فهم نوايا هتلر، وفشل في تحذير هتلر من العواقب الوخيمة التي ستترتب على نكثه بوعده. لم يكن التاريخ رحيماً مع نيفيل تشامبرلين.

لكن هناك لغزاً يكمن أسفل هذه الانتقادات. سافر تشامبرلين إلى ألمانيا مرتين أخريين، وجلس مع هتلر لساعات. تحدث الرجلان، وتناقشا، وتناولا الطعام، وتجولا معاً. تشامبرلين هو القائد الوحيد الذي تمكن من الجلوس مع هتلر في تلك الفترة، وراقب بعناية سلوكه، وقال لشقيقته هيلدا بعد زيارة أخرى لألمانيا: «لكن حينها صافحني مصافحته المزدوجة المخصصة للمقربين منه كعلامة على حُسن النية». عندما عاد إلى لندن، أخبر حكومته أنه لم يرَ في ذلك القائد «أية علامات على الجنون بل كثيراً من الحماسة». لم يكن هتلر مجنوناً. كان عاقلاً، حازماً «فكّر جيداً في ما يريده، وعقد العزم في سبيل الحصول عليه، ولم يقبل بأن يعترض سبيله شيء».

تبع تشامبرلين حدسه لفهم الغرباء. إن المعلومات التي تُجمع من

خلال التفاعل الشخصي لها قيمة فريدة واستثنائية. لا يمكنكم تعيين جليسة أطفال قبل مقابلتها، والشركات لا تختار موظفيها عشوائياً، بل يتصل قسم الموارد البشرية بالمرشحين للوظائف ويتحدثون إليهم عن كثب، وأحياناً لساعات من دون انقطاع. إنهم يفعلون ما فعله تشامبرلين: ينظرون إلى عيني الشخص، يراقبون تحركاته وسلوكه، ثم يستخلصون النتائج. ومع ذلك، فإن كل المعلومات الإضافية التي جمعها تشامبرلين من تفاعله الشخصي مع هتلر لم تساعده على فهم هتلر بشكل أوضح. بل العكس تماماً.

هل كان تشامبرلين ساذجاً؟ ربما، ويمكن أن يُعزى ذلك لقلة خبرته في الشؤون الخارجية. قارنه أحد منتقديه بكاهن يدخل إلى حانة للمرة الأولى، فهو لا يستطيع معرفة الفرق «بين اللقاءات الاجتماعية اللطيفة والحفلات الصاخبة».

لكن الحظ السيئ لم يكن حليف تشامبرلين فحسب، بل حصل ذلك أيضاً مع اللورد هاليفاكس، الذي كان على وشك أن يصبح وزير خارجية تشامبرلين. كان هاليفاكس أرستقراطياً، وطالباً متفوقاً في إيتون وأكسفورد. شغل منصب نائب الحاكم في الهند خلال الحربين، حيث تفاوض ببراعة مع المهاتما غاندي، وكان على النقيض من تشامبرلين: فقد كان علمانياً، محنكاً، جذاباً للغاية، مثقفاً. لقد أطلق عليه تشرشل لقب «الثعلب المقدس».

في خريف العام 1937، سافر هاليفاكس إلى برلين، والتقى الزعيم الألماني في بيرتشسغادن: لقد كان العضو الآخر الوحيد من المجموعة الحاكمة في إنكلترا الذي أمضى بعض الوقت مع هتلر.

لم يكن اجتماعهما عبارة عن لقاء دبلوماسي عادي. بدأ الأمر عندما أخطأ هاليفاكس الظن معتقداً أن هتلر كان خادماً، وكاد أن يسلمه معطفه، بعد ذلك كان بين الحضور الذين استمعوا إلى خطاب هتلر الذي امتد لخمس ساعات متتالية وقد أبدى فيه الاستياء، والصراخ، والاستطراد، والتنديد، وتحدث فيه عن بغضه للصحافة، وعن شرور الشيوعية. استمع هاليفاكس إلى ذلك الخطاب الذي وصفه دبلوماسي بريطاني آخر في ذلك الوقت بأنه «مزيج يُشعرك بالدهشة، لوقاحته، وبالتعاطف في الوقت نفسه».

قضى هاليفاكس خمسة أيام في ألمانيا. التقى خلالها اثنين من كبار وزراء هتلر - هيرمان غورينغ وجوزف غوبلز، وحضر عشاءً في السفارة البريطانية حيث التقى مجموعة من كبار رجال أعمال ألمانيا وساستها. عندما عاد إلى منزله، قال هاليفاكس إن الأمر يرجع إلى «التواصل الجيد» مع القيادة الألمانية، لاستحالة معارضتها. هذا ما يُفترض بالدبلوماسي فعله، فقد اكتسب معلومات قيّمة حول تنمر هتلر وتقلّبه من خلال لقائهما وجهاً لوجه. لكن ما هي النتيجة النهائية التي توصل إليها هاليفاكس؟ لا يرغب هتلر في شن حرب، وكان منفتحاً للتفاوض حول السلام. لم يعتقد أحد أن هاليفاكس كان ساذجاً، إلا أن هتلر خدعه كما خدع تشامبرلين.

الدبلوماسي البريطاني الذي أمضى أطول مدة من الوقت مع هتلر هو سفير إنكلترا لدى ألمانيا، نيفيل هندرسون. فقد تكررت لقاءاته بهتلر، وحضر اجتماعاته. حتى إن هتلر لقّب هندرسون بـ«الرجل ذي القرنفلة»، بسبب القرنفلة التي لطالما وضعها هندرسون الأنيق

في جيب السترة الأمامية.

بعد حضور رالي نورمبرغ الشهير في أوائل سبتمبر 1938، كتب هندرسون في تقريره إلى لندن أن هتلر بدا غير طبيعي لدرجة أنه «تجاوز حدود الجنون». لم يقع هندرسون تحت تأثير هتلر، لكن هل شكّ بما يخفيه من نوايا تجاه تشيكوسلوفاكيا؟ لا. اعتقد أن هتلر «يكره الحرب كأي شخص آخر». أخطأ هندرسون في قراءة هتلر بصورة صحيحة.

إن عجز تشامبرلين وهاليفاكس وهندرسون عن رؤية الحقيقة لا يشبه الأحجية رقم واحد[1]، من الفصل السابق أبداً. لأن ذلك تمحور حول عدم قدرة أشخاص أذكياء على ترجمة الكلام ونقله بشكل صحيح. في حين أن لدينا هنا أشخاصاً خُدعوا من قبل هتلر وآخرون لم يُخدعوا، وتكمن الأحجية في أنه لم يكن من المتخيل خداع المجموعة الأولى، أما أولئك الذين رأوا الحقيقة بوضوح فهم

---

(1) كان المسؤول البريطاني هندرسون مقرباً من غورينغ، نائب هتلر. تعود هندرسون الذهاب في رحلات لصيد الأيل معه، وأجريا محادثات مطولة. لقد وثق هندرسون بأن غورينغ أراد السلام أيضاً، وأن هناك رجلاً محترماً تحت هذا الستار النازي. كتب هندرسون في مذكراته عن الوقت الذي أمضاه في برلين عند اندلاع الحرب، وقال: «أحب غورينغ الحيوانات والأطفال؛ احتوى الطابق العلوي في كارنيهول على صالة ألعاب كبيرة مزودة بكل لعبة ميكانيكية يحلم بها أي طفل معاصر، بالرغم من أنه لم يكن قد رُزق وقتها بطفل، أكثر ما أسعده هو اللعب مع الأولاد. صحيح أن الألعاب قد شملت نماذج عن طائرات تسقط متفجرات فوق بلدات وقرى غير محمية؛ ولكن، كما لاحظت عندما ناقشته بشأن هذا الموضوع، لم يتضمن المفهوم النازي للحياة شيئاً من التحضر بشكل مفرط أو التحفظ مع الصغار.» في حال كنت تتساءل، هذا ما تمحورت حوله النازية حقاً؛ تربية الطفل الصارمة منذ الصغر.

من توقع خداعهم.

على سبيل المثال، لم يصدق ونستون تشرشل للحظة أن هتلر كان أكثر من مجرّد سفاح ومنافق. لقد وصف تشرشل زيارة تشامبرلين بأنها «الحركة الأغبى على الإطلاق». مع أنه لم يعرف عن هتلر سوى ما قرأه عنه. وقد أشار داف كوبر، أحد الوزراء في حكومة تشامبرلين، أن هتلر لم يكن أكثر من مجرد سفاح. لقد استمع برعب إلى رواية تشامبرلين عن لقائه هتلر. لاحقاً، استقال من الحكومة احتجاجاً على ذلك. هل عرف كوبر هتلر شخصياً؟ لا. هناك شخص آخر من الشخصيات البارزة في السلك الدبلوماسي البريطاني - أنتوني إيدن، تولى حقيبة الخارجية قبل هاليفاكس- قابل كل منهما هتلر ورآه على حقيقته. لكن بالنسبة إلى الآخرين؛ الأشخاص الذين رأوا هتلر على حقيقته هم أولئك الذين لم يعرفوا كثيراً عنه. في حين أنه تمكن من خداع الأشخاص الذين تحدثوا معه لساعات.

بالطبع، يمكن أن يكون كل هذا محض صدفة. ربما صمم تشامبرلين وجماعته لسبب ما على رؤية هتلر بطريقتهم الخاصة، بصرف النظر عن الأدلة التي رأوها وسمعوها. يظهر هذا النمط المحير من الأحجيات في كل مكان.

3

كان القاضي في منتصف العمر، طويل القامة، أبيض الشعر، يتمتع بلهجة تعود إلى أهل مقاطعة بروكلين. دعونا ندعه سوليمان. عمل في محكمة ولاية نيويورك لأكثر من عقد. لم يكن مستبداً أو

متعجرفاً. بل كان وقوراً، ويتمتع بأخلاق عالية ولطيفاً.

كان اليوم خميساً، وهذا يعني أنه سيكون يوماً مزدحماً في المحكمة. قُبض على المتهمين جميعاً خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية للاشتباه بارتكابهم بعض المخالفات والجرائم، أمضوا ليلة مؤرقة في زنزانة الحجز، وأُحضروا الآن إلى قاعة المحكمة مكبّلين بأصفاد، واحداً تلو الآخر. جلسوا على مقعد منخفض خلف الحاجز، على يسار سوليمان. عندما تم استدعاء كل متهم، كان الموظف يسلم سوليمان ملفاً يحتوي على قضية المدعى عليه، وعندها يُقلب سوليمان صفحات الملف، ليلقي نظرة سريعة على المعلومات المهمة في الملف، بعد ذلك يمثُل المدعى عليه ومحاميه أمام سوليمان مباشرة بحضور المحامي العام. يتناقش محامي المدعى عليه والمحامي العام، في حين يستمع سوليمان إليهما، ثم يقرر ما إن كان يجب على المدعى عليه دفع كفالة ومقدارها، أم يستحق إطلاق سراحه.

لقد صرّح سوليمان إن أصعب الحالات كانت تلك التي تتعلق بالأولاد. فوفقاً لما كان معمولاً به وقتها يمكن تحميل مراهق يبلغ من العمر ستة عشر عاماً مسؤولية بعض الجرائم الفظيعة، وكان سوليمان يدرك تمام الإدراك أنه إذا فرض كفالة عالية، فسينتهي الأمر بذلك المراهق بالسجن سيئ السمعة في جزيرة ريكرز حيث تحدث «أعمال شغب لأبسط الأمور». لكن ما زاد الأمر صعوبة أن سوليمان عندما جال بناظريه في أرجاء قاعة المحكمة، وجد والدة المراهق جالسة بين الحاضرين وهو في ذلك يقول إنني أواجه مثل هذا الأمر كل يوم

تقريباً، ولكنه عندما بدأ بممارسة التأمل أصبحت الأمور أسهل[1].

يوماً بعد يوم، واجه سوليمان المشكلة نفسها التي واجهت نيفيل تشامبرلين والسلك الدبلوماسي البريطاني في خريف عام 1938: فكل يوم يُطلب إليه تقييم شخص غريب، وهذا النوع من التقييم والقرار الذي يُتخذ، بناء عليه يفترض حصول لقاء مباشر بين الحاكم والمحكوم عليه.

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، واجه سوليمان رجلاً أكبر سناً، يتكلم الإسبانية ويرتدي بنطال جينز وقميصاً فضفاضاً، وكان شعره قصيراً. لقد اعتُقل هذا الرجل بسبب «حادثة» تتعلق بحفيد حبيبته الذي يبلغ من العمر ست سنوات. طالب المحامي العام بكفالة إطلاق سراح قيمتها مئة ألف دولار، وكان من الجلي أن الرجل لا يمتلك هذا المبلغ، وكان سوليمان يعلم أنه إذا وافق على طلب المحامي العام، فسيذهب هذا الرجل صاحب القميص الفضفاض مباشرة إلى السجن.

من ناحية أخرى، أنكر الرجل كل شيء. منذ سنوات مضت ارتكب خطأين ولم يكونا فادحين بل مجرد مخالفتين. إنه ميكانيكي، وذهابه إلى السجن يعني خسارته لعمله، وكان يعيل طليقته وابنه الذي يبلغ الخامسة عشرة من العمر. لذلك وجب على سوليمان التفكير في الولد ذي الخمسة عشر عاماً، الذي يعتمد على راتب والده. لأنه علم أنه لا يمكن الاعتماد تماماً على موثوقية طفل في السادسة من

(1) منذ ذلك الحين تغير القانون، يجب أن يكون عمر المدعى عليه ثمانية عشر عاماً أو أكثر ليتم إرساله إلى ريكرز.

العمر. لذلك لم تكن هناك طريقة تؤكد لسوليمان أن ما حصل هو سوء تفاهم عظيم أو جزء من نمط منحرف متكرر. بعبارة أخرى؛ كان قرار الإفراج عن الرجل ذي القميص الفضفاض - أو احتجازه في السجن حتى المحاكمة - أمراً صعباً للغاية. ولمساعدته على اتخاذ القرار الصحيح، قام سوليمان بما قد يفعله أي منا في هذه الحالة: حدّق إلى عيني الرجل وحاول معرفة حقيقته. هل ساعده ذلك؟ أم أن القضاة يواجهون المعضلة نفسها التي واجهها نيفيل تشامبرلين؟

4

إن أفضل إجابة لدينا عن هذا السؤال مصدرها دراسة أجراها خبير اقتصادي بجامعة هارفارد، مع ثلاثة من نخبة علماء الكمبيوتر، وخبير كفالة من جامعة شيكاغو. سأشير إلى هذه المجموعة باسم خبيرها الاقتصادي، سنديل مولايناثان - لقد اختارت المجموعة من مدينة نيويورك مسرحاً للدراسة. جمعوا سجلات 554689 من المدعى عليهم الذين حوكموا في نيويورك ما بين عامي 2008-2013. من بين هؤلاء، وجدوا أن قضاة نيويورك قد أطلقوا سراح ما يزيد على 400000 شخص.

وقتها صمم مولايناثان نظام ذكاء اصطناعي، غذّاه بالمعلومات نفسها التي زودها المدعون العامون للقضاة في تلك القضايا: عمر المدعى عليه، والسجل الجنائي. وجعل الكمبيوتر يبحث في تلك القضايا الـ554689 لقد كانت عملية تجريبية: الرجل مقابل الآلة. من الذي اتخذ أفضل القرارات؟ قائمة من شملت أولئك الذين ارتكبوا

أقـل عـدد من الجرائـم بعد خروجهم بكفالة؟ لم تكن النتائج متقاربة نهائيـاً. كان الأشـخاص المدرجـون فـي قائمة الكمبيوتـر أقل عرضة بنسـبة 25 فـي المئـة لارتـكاب جريمـة فـي أثناء انتظارهـم المحاكمة من الـ400000 شـخص الذين أطلق سـراحهم قضاة مدينة نيويورك. 25 فـي المئـة! فـي تلـك المواجهة، حققت الآلة انتصاراً سـاحقاً على الإنسان[1].

---

(1) هناك نقطتان تقنيتان حول القوائم التي تضمنت الـ400000 مدعى عليهم: عندما يقول مولايناثان إن قائمة الكمبيوتر احتوت على جرائم أقل بنسبة 25 بالمئة من قائمة القاضي، احتسب ذلك عدم الظهور في تاريخ المحاكمة جريمة أيضاً. ثانياً، أنا واثق من أنكم تتساءلون كيف يمكن أن يحسب مولايناثان من سيرتكب جريمة أم لا عند خروجه بكفالة قبل المحاكمة بهذه الدقة. ليس لأن لديه كرة سحرية. إنه تقدير أُجري على أساس التحليل الإحصائي المتطور للغاية. ها هي ذي النسخة القصيرة. يتناوب قضاة نيويورك في جلسات الاستماع للكفالة. ويتم اختيار القضاة الذين ينظرون في قضايا المدعى عليهم بشكل عشوائي. يختلف القضاة في نيويورك كما هو الحال في كل مكان بشكل كبير في تقرير الإفراج، أو وضع كفالة عالية لشخص ما. بعض القضاة متسامحون للغاية. وبعضهم الآخر في غاية الصرامة. لذلك تخيلوا أن مجموعة من القضاة الصارمين رأوا ألف مدعى عليه، وأفرجوا عن 25 بالمئة منهم. في حين أن هناك مجموعةً أخرى من القضاة المتسامحين الذين رأوا ألف مدعى عليه، بجرائم من نفس نوعية الجرائم الألف التي نظر القضاة الآخرين إليها ولكنهم أفرجوا عن 75 بالمئة منهم. وعند مقارنة معدل الجرائم التي ارتكبها المدعى عليهم المفرَج عنهم في كلتا المجموعتين، يمكنكم ملاحظة عدد الأشخاص المسالمين الذين سجنهم القضاة المتشددون، وعدد الأشخاص الخطرين الذين أطلق سراحهم القضاة المتسامحون. يمكن تطبيق هذه التقديرات على توقعات الآلة أيضاً. عند إصدار حكم على ألف مدعى عليه، هل ستؤدي الآلة أداءً أفضل من القضاة المتشددين والمتسامحين؟ يبدو هذا في غاية التعقيد، وهو كذلك. لكنها منهجية راسخة، إن أردتم قراءة شرح أكثر تفصيلاً، فأحثكم على قراءة بحث مولايناثان.

من أجل إعطائكم فكرة عن مدى دقة آلة مولايناثان، فقد وضعت واحداً بالمئة من جميع المتهمين ضمن فئة «ذوي خطورة مرتفعة». هؤلاء الأشخاص توصل الكمبيوتر إلى أنه يجب ألا يُطلق سراحهم. وفقاً لحسابات الجهاز، فإن أكثر من نصف الأشخاص في هذه المجموعة عالية الخطورة قد يرتكبون جريمة أخرى إذا أُطلق سراحهم بكفالة. رغم ذلك، عندما نظر القضاة إلى المجموعة نفسها من المجرمين، لم يظنوا أنهم يشكلون خطراً على الإطلاق. أطلقوا سراح 48.5 بالمئة منهم! «يعامل القاضي العديد من المجرمين الذين حددت الخوارزمية أنهم يشكلون خطراً كبيراً كما لو أنهم لا يشكلون خطراً كبيراً». لقد توصل فريق مولايناثان إلى استنتاج كارثي. «يشير تنفيذ هذا التمرين إلى أن القضاة يضعون الحد الأدنى من الكفالة لأنهم يخطئون في تقييم المدعى عليهم.... اختير المدعى عليهم الثانويون من خلال توزيع مخاطرهم المتوقعة بأكملها. «الخلاصة؛ قرارات الكفالات التي يتخذها القضاة عشوائية للغاية».

أعلم أن هذا مربك. عندما يتخذ القضاة القرارات المتعلقة بالكفالة، يمكنهم الحصول على المعلومات من ثلاثة مصادر. لديهم سجل المدعى عليه - عمره، مخالفاته السابقة، ما حدث في المرة الأخيرة التي أطلق فيه سراحه بكفالة، مكان إقامته، مكان عمله. ولديهم إفادة محامي المقاطعة العام ومحامي المدعى عليه؛ أي معلومات يتم تداولها في قاعة المحكمة. ولديهم أعينهم التي يرون ويحللون من خلالها كل ما يحصل. ماذا يقول حدسي عن هذا الرجل أمامي؟

من ناحية أخرى، لم ير كمبيوتر مولاياناثان المدعى عليه أو يسمع أي شيء قيل في قاعة المحكمة. كل ما حصل عليه هو عمر المدعى عليهم وسجلاتهم الإجرامية، لم يكن ذلك سوى جزء بسيط من المعلومات المتاحة أمام القاضي، ومع ذلك، أدى الكمبيوتر وظيفة أفضل بكثير في ما يتعلق بقرارات الكفالة.

في كتابي الثاني (التفكير اللماح في طرفة عين)، ذكرت قصة حول كيفية اتخاذ الأوركسترا قرارات تعيين أعضاء جدد بطرق أكثر ذكاءً عندما طلبوا إلى المتدربين المحتملين إجراء تجارب الأداء من خلف ستار عازل؛ إن إخفاء المعلومات عن أعضاء لجنة التعيين جعلهم يتخذون قراراتهم على نحو أفضل. ذلك لأن المعلومات التي يتم استخلاصها من مشاهدة شخص وهو يؤدي تجربة أداء مباشرة غير مهمة إلى حد كبير. إذا أردت معرفة مدى مهارة شخص في عزف الكمان، فلن تساعدك معرفة ما إذا كان هذا الشخص كبيراً أم صغيراً في العمر، وسيماً أم قبيحاً، أبيض أم أسود. في الواقع، سيؤدي ذلك إلى تحيزات تُصعّب عليك اتخاذ القرار.

لكن عندما يتعلق الأمر بقرارات الكفالة، أثبتت المعلومات الإضافية التي تُقدّم إلى القاضي أنها مفيدة للغاية. في قضية سابقة في قاعة محكمة سوليمان، اتُّهم شاب يرتدي سروال كرة السلة وقميصاً رمادياً بضرب أحدهم، وشراء سيارة باستخدام بطاقة ائتمان الرجل المسروقة. عند تحديد الكفالة، أشار محامي المقاطعة العام إلى أنه فشل في المثول أمام المحكمة بعد اعتقالين سابقين. هذا نذير خطر. ولكن ليست جميع حالات الفشل في المثول أمام المحكمة متماثلة.

فربما يكون قد أخطأ في تاريخ المثول، وربما كان تركُه للعمل من أجل المثول قد يجعله يخسر وظيفته، وربما يكون هو أو أحد أقاربه في المستشفى يوم المثول. هذا ما قاله محامي المدعى عليه للقاضي: كان لدى موكلته عذر جيد. الكمبيوتر لم يعرف تلك المعلومة، لكن القاضي عرفها. كيف يمكن لذلك ألا يساعد؟

على المنوال نفسه، صرّح سوليمان إن أكثر الحالات صعوبة في تحديد الكفالة هي حالة «المريض العقلي المتهم بالعنف». يشكل هذا النوع من القضايا أسوأ كابوس بالنسبة إلى القاضي. ذات مرة سمح بإطلاق سراح أحدهم بكفالة، ثم توقف هذا الشخص عن تناول الأدوية، وارتكب جرائم فظيعة. قال سوليمان: «كان ذلك بمثابة كابوس».

صدم سيارته بحافلة صغيرة، مما أسفر عن وفاة امرأة حامل وزوجها، وآذى طفلاً، ودفع بعض الناس أمام قطار الأنفاق ليلقوا حتفهم. إنه وضع مرعب... لن يرغب أي قاض في أن يكون مكان الشخص الذي اتخذ قرار الإفراج عنه في هذه القضية.

تُضمن بعض المعلومات عن هذا النوع من القضايا في ملف المدعى عليه: سجلات طبية، وإقامة سابقة بالمستشفى، وذكر مدى أهلية المدعى عليه. ولكن لا يمكن الوصول إلى المعلومات والدلائل الأخرى إلا في لحظتها.

قال سوليمان: «ستسمعون أيضاً مصطلحات خاصة بقاعة محكمة مثل «إي بي دي»- شخص مضطرب عاطفياً».

ستأتي هذه المعلومات عبر قسم الشرطة والذي أحضره، الذي

سلّم القاضي مغلفاً يحتوي على تقرير طبي أصدره طبيب نفسي قبل جلبه... وفي أحيان أخرى، ستوضع هذه المعلومات في مجلد المحامي العام الذي سيطرح بعض الأسئلة... هذه حقيقة يجب التفكير فيها.

سوف ينظر القاضي في حالة المدعى عليه - بشكل دقيق، وبعناية، وسيبحث على حدّ تعبيره، عن نظرة باردة، أو عدم القدرة على التواصل بالعين. أنا لا أتحدث عن مراهق عاجز عن التواصل بالعينين لأن الفص الجبهي لم يتطور لديه. أنا أتحدث عن الراشدين الذين لا يتناولون أدويتهم...

لا يمكن لآلة مولاينااثان أن تسمع المحامي العام يتحدث عن الشخص المضطرب عاطفياً، ولا يمكنها أن ترى تلك النظرة الباردة. يجب أن تحتسب هذه الحقيقة على أنها ميزة كبيرة لسوليمان وزملائه القضاة. ولكن لسبب ما لا يحصل ذلك.

الأحجية الثانية: كيف يمكن أن تترك مقابلتنا لشخص ما انطباعاً خاطئاً في حين أن عدم إجراء المقابلة يمكن أن يترك انطباعاً صحيحاً؟

5

كانت زيارة نيفيل تشامبرلين الثالثة والأخيرة إلى ألمانيا في نهاية سبتمبر 1938، بعد أسبوعين من زيارته الأولى. عُقد الاجتماع في ميونيخ في مكاتب الحزب النازي- فويرباو- بحضور الزعيم الإيطالي بينيتو موسوليني ورئيس الوزراء الفرنسي إدوارد دالادير. لقد عُقد الاجتماع بين القادة الأربعة ومساعديهم في مكتب هتلر. في صباح

اليوم الثاني، طلب تشامبرلين إلى هتلر عقد اجتماع ثنائي. في هذه المرحلة، شعر تشامبرلين بحجم خطر خصمه.

عندما صرّح هتلر أن طموحاته تقتصر على تشيكوسلوفاكيا فقط، اعتقد تشامبرلين أن «هتلر كان صادقاً». اقتصر الموضوع الآن على كتابة هذا التعهد.

اصطحبه هتلر إلى شقته في برينزريغينبلاتز. أخرج تشامبرلين قطعة من الورق كان قد كتب عليها اتفاقاً بسيطاً وسأل هتلر ما إن كان مستعداً ليوقع وثيقة الاتفاق. كما ترجم المترجم الكلمات إلى الألمانية، أجاب هتلر دائماً بجا جا وتعني «نعم». في النهاية قال: «نعم، سأوقّع بالتأكيد». كتب تشامبرلين لاحقاً إلى إحدى شقيقاته: «سألته: متى ستوقع؟ أجاب: الآن. وتوجهنا نحو الطاولة ووقعنا على النسختين اللتين أحضرتهما معي».

بعد ظهر ذلك اليوم، عاد تشامبرلين إلى إنكلترا ليحظى باستقبال الأبطال. تدافع حشد من الصحفيين نحوه. أخرج الرسالة من جيب سترته الأمامية ولوّح بها للحشد. «في هذا الصباح، أجريت محادثة أخرى مع المستشار الألماني هير هتلر، وإليكم ورقة تحمل توقيعي وتوقيعه».

بعدها أرسلت الرسالة إلى مقر رئيس الوزراء في تن داونينغ ستريت.

«أصدقائي الأعزاء، هذه المرة الثانية في تاريخنا التي يعود فيها أحدهم من ألمانيا إلى داونينغ ستريت حاملاً معه السلام والشرف. أعتقد أنه حان الوقت كي نعيش بسلام. أشكركم من أعماق قلبي».

هلّل الحشد.

«أوصيكم الآن بالعودة إلى منازلكم والنوم بسلام في أسرّتكم».

في مارس 1939، غزا هتلر بقية تشيكوسلوفاكيا. لم يستغرقه الأمر أكثر من ستة أشهر لنقض اتفاقه مع تشامبرلين. في 1 سبتمبر، 1939، غزا هتلر بولندا، ودخل العالم حالة حرب.

بمعنى آخر، لدينا مسؤولون من وكالة الاستخبارات المركزية لا يمكنهم فهم جواسيسهم، ولدينا قضاة لا يستطيعون فهم المدعى عليهم، ورؤساء وزراء لا يستطيعون فهم خصومهم، ولدينا أناس يعانون في اتخاذ انطباع أولي عن شخص غريب، ولدينا أناس لا يزالون يعانون في محاولة فهم شخص غريب بعد أشهر من معرفته. لدينا أناس يعانون إن اجتمعوا مع شخص ما مرة واحدة فقط، وأشخاص يعانون عندما يعاودون لقاء الغريب مراراً وتكراراً، يعانون في تقييم نزاهة شخص غريب، يعانون في تقييم طبع شخص غريب، يعانون في فهم نية هذا الشخص الغريب.

هذا الوضع فوضوي.

6

هناك شيء آخر:

ألقِ نظرة على الكلمة التالية، واملأ الفراغين. افعل ذلك بسرعة، دون تفكير.

جي إل - -

يُعرف هذا باسم اختبار «ملء الفراغات». يستخدمه علماء النفس

بشكل شائع لاختبار أشياء مثل الذاكرة.

أكملت كلمة جي إل - - بجلام/ كئيب. تذكر ذلك. الكلمة التالية هي:

--تي إي أر.

وأكملت الفراغات وأصبحت الكلمة هاتير/ كاره. تذكر ذلك أيضاً. ها هي ذي باقي الكلمات:

سي -- أر إي	إس تي أر ---	بي --تي
بي-- إن	جي أو --	بي أو --
تي أو يو ---	سي إتش إي ---	بي آيه --
آيه تي تي ---	--أو أر--	-أر آيه-
بي أو --	إس إل ---	--- إي آيه تي
إف إل -- تي	إس سي ---	
إس إل - تي	-إن إن إي أر	

بدأت بكلمة جلام/ كئيب وهايتر/ كاره وانتهيت بسكاير/ ذعر، أتاك/ هجوم، بور/ ملل، فلاوت/ ازدراء، سليت/ نحر، تشيت/ خيانة، تراب/ فخ، وديفيت/ هزيمة. هذا سوداوي للغاية إنها قائمة كئيبة.

لكنني لا أعتقد أن ذلك يصف أعماقي. أنا لست شخصاً كئيباً. بل أنا متفائل. أعتقد أن الكلمة الأولى، جلام/ كئيب، قد أثرت عليّ، فتابعت على النسق نفسه.

قبل بضع سنوات، طبق فريق من علماء النفس برئاسة إميلي برونين التمرين نفسه على مجموعة من الأشخاص. طلبت برونين إليهم ملء الفراغات. ثم سألتهم السؤال نفسه: هل تعتقد أن خياراتك

تعبر عنك؟ على سبيل المثال، إذا أكملت تي أو يو -- تاتش/ لمسة، فهل هـذا يشير إلـى أنك شـخص مختلف عـن الذي أكمـل الكلمة تنوف/ قوة؟ تشارك الآخرون بالرأي معي. إنها مجرد كلمات.

وكتـب أحد المشـتركين في تجربـة برونين: «لا أعتقد أن اختبار إكمـال الكلمـات هـذا يعد مقياسـاً لشـخصيتي». ووافق الآخرون في المجموعة على ذلك:

«أشـعر أن اختبـار إكمـال الفراغـات هـذا لا يعبّـر أبـداً عـن شخصيتي... إنه عشوائي للغاية».

«بعـض الكلمـات التي كتبتها هـي النقيض تماماً عن نظرتي إلى الحياة. على سبيل المثال، لا يهمني أن أكون دائماً سترونغ/ قوياً أو ذا بيست/ الأفضل أو وينر/ فائزاً».

«لا أعتقـد أن اختبـار مـلء الفراغـات يكشـف كثيـراً عني... إنه عرضي فقط».

«لا يكشف كثيراً عني... إنها مجرد مفردات.»

«لا أعتقد أن هناك أية علاقة.... الكلمات عشوائية فقط».

«تبدو الكلمات باين/ ألم، أتاك/ هجوم، وثريت/ تهديد مشـابهة لشخصيتي نوعاً ما، لكنني لا أعتقد أنها تعبّر عني تماماً».

لكـن الأمـور أصبحت مثيـرة للاهتمام بعد ذلك. أعطت برونين المجموعـةَ قائمـة كلمـات أشـخاص آخريـن. كانوا غربـاء تماماً عن بعضهم. وسـألتهم السـؤال نفسه. برأيك ماذا تكشـف هذه القائمة عن صاحبها؟ وهذه المرة غيّر المشتركون آراءهـم تماماً.

«يبـدو لـي أن هذ الشـخص لا يقرأ كثيـراً، نظراً لأن تكملة كلمة

بي - - كي الطبيعية من وجهة نظري ستكون بوك/ كتاب. يبدو اختيار كلمة بيك/ منقار عشوائياً إلى حدّ ما، وقد يشير إلى قدرته على عدم التركيز».

«لديّ شعور أن من أكمل هذه القائمة هو شخص مغرور، ولكنه لطيف بشكل عام».

لكن تذكروا أن هؤلاء هم الأشخاص أنفسهم الذين نفوا قبل لحظات أن التمرين له أي معنى على الإطلاق.

«يبدو أن هذا الشخص لديه أهداف محددة وتنافسي للغاية».

«لديّ شعور أن الشخص المعني قد تكون حياته متعبة في كثير من الأحيان. إضافة إلى ذلك، أعتقد أنه قد يكون مهتماً بالتفاعلات الشخصية الحميمية مع شخص من الجنس الآخر. قد يستمتع أيضاً بممارسة الألعاب».

الشخص نفسه الذي قال سابقاً: «لا أعتقد أن اختبار ملء الفراغات هذا يكشف كثيراً عني». أعرب الآن عن رأيه بشخص غريب تماماً:

«أعتقد أن هذه الفتاة في فترة الحيض... أعتقد أيضاً أنها تعاني هي أو شخص تعرفه من خيانة، وفقاً للكلمات هور/ ساقطة، سلوت/ فسحة على غرار سلات/ عاهرة، تشيت/ خيانة».

وتستمر الإجابات على هذا المنوال. لا يبدو أن أحداً قد لاحظ التناقض في أقواله.

«أعتقد أن هناك ترابطاً... إنه يتحدث كثيراً عن المال والمصرف. يوجد ترابط هنا».

«يبدو أنه مهتم بالتنافس والفوز. يمكن أن يكون هذا الشخص رياضياً أو شخصاً تنافسياً للغاية».

«يبدو أن هذا الشخص لديه نظرة إيجابية بشكل عام تجاه الأشياء التي يسعى للحصول عليها. تشير معظم الكلمات، مثل وينر/ رابح، وسكور/ درجة، وغول/ هدف، إلى أنه يتمتع بروح رياضية وتنافسية».

لو رأى باقي المشتركين قائمتي التي تشتمل على جلام/ كئيب وهايتر/ كاره وانتهيت بسكاير/ ذعر، أتاك/ هجوم، بور/ ملل، فلاوت/ ازدراء، سليت/ نحر، تشيت/ خيانة، تراب/ فخ، وديفيت/ هزيمة، لشعروا بالقلق بشأني.

تطلق برونين على هذه الظاهرة اسم «وهم البصيرة غير المتماثلة». وقد ذكرت في تقريرها:

اعتقادنا أننا نعرف الآخرين أفضل مما يعرفوننا - وأن لدينا نظرة مسبقة عنهم لا يعرفونها هم عنا ولكن ليس العكس - يقودنا إلى التحدث والاستماع بصبر أقل عندما يُعبّر الآخرون عن قناعتهم بأنهم يفهمون على نحو خاطئ.

هذه هي المشكلة التي تكمن في صميم هاتين الأحجيتين. كان الضباط في مكتب كوبا التابع لوكالة الاستخبارات المركزية متأكدين من تقييمهم لولاء جواسيسهم، والقضاة لا يتخذون قراراتهم عشوائياً عند تقييم شخصيات المتهمين. بل يمنحون أنفسهم دقيقة أو دقيقتين، ثم يصدرون الحكم بشكل قانوني. كما أن نيفيل تشامبرلين لم يشك أبداً في خطته الجريئة لتجنب الحرب. إذا كانت نوايا هتلر غير

واضحـة، فكانـت مهمتـه بوصفه رئيسـاً للوزراء، الذهـاب إلى ألمانيا وكشفها.

إننا نعتقد أنه يمكننا أن نرى بسهولة ما يدور في باطن الآخرين بنـاءً علـى الدلائـل الأوهـى. نحن نحكـم على الغرباء بسـرعة. لكن بالطبع، لا نفعل ذلك مع أنفسنا. فنحن دقيقون، معقدون، وغامضون. لكن تشخيص الغريب أسهل.

إن أمكنني إقناعكم بشـيء واحد في هذا الكتاب، فليكن ذلك: الحكم على الغرباء ليس سهلاً.

القسم الثاني

غياب الحقيقة

الفصل الثالث

ملكة كوبا

1

دعونا نلقي نظرة على قصة تجسس كوبية أخرى.

في أوائل التسعينيات، بدأ آلاف الكوبيين بالفرار من حكم فيدل كاسترو. بنوا قوارب بدائية - مصنوعة من الأنابيب، والبراميل المعدنية، والأبواب الخشبية، وبعض الأجزاء المتفرقة الأخرى - وانطلقوا في رحلة يائسة عبروا خلالها تسعين ميلاً من مضيق فلوريدا وصولاً إلى الولايات المتحدة. حسب التقديرات، مات أربعة وعشرون ألف شخص عندما حاولوا السفر بتلك الطريقة. لقد كانت كارثة إنسانية. رداً على ذلك، أسست مجموعة من المهاجرين الكوبيين في ميامي مؤسسة هرمانوس إيل ريسكاتي - بروزيرز تو زا ريسكيو. واستعانوا مؤقتاً بطائرة سيسنا سكاي ماستر وتوجهوا إلى السماء فوق مضيق فلوريدا، للبحث عن اللاجئين من الجو وبث إحداثياتهم إلى خفر السواحل. أنقذت مؤسسة هرمانوس الآلاف من الأرواح. لقد أصبح أعضاء المؤسسة أبطالاً.

بمرور الوقت، كبر طموح المهاجرين. بدؤوا بالتحليق في المجال الجوي الكوبي، وإلقاء منشورات فوق سماء هافانا لحث

الشعب الكوبي على الثورة ضد نظام كاسترو. غضبت الحكومة الكوبية، وأُحرجت بسبب تحليق طائرات اللاجئين فوق مجالها الجوي. ازداد التوتر، ووصل إلى ذروته في 24 فبراير 1996. بعد ظهر ذلك اليوم، أقلعت ثلاث طائرات تابعة لـهرمانوس إيل ريسكاتي إلى مضيق فلوريدا. في أثناء اقترابها من الساحل الكوبي، أطلقت طائرتان مقاتلتان من نوع ميغ النار على طائرتين من الثلاث، مما أسفر عن مقتل أربعة أشخاص.

كان الرد على الهجوم فورياً. أصدر مجلس الأمن قراراً يدين الحكومة الكوبية، عقد الرئيس كلينتون مؤتمراً صحفياً. لكن ما أثار غضب المهاجرين الكوبيين في ميامي أن الطائرتين أُسقطتا في المجال الجوي الدولي، الأمر الذي جعل من الحادثة بمثابة إعلان عن الحرب، وتم تسريب حديث اللاسلكي بين الطيارين الكوبيين إلى الصحافة:

«لقد أصبناهما، أجل، أصبناهما».

«لقد أسقطناهما».

«أصبناهما».

«اللعنة عليهم».

«حددوا المكان الذي أسقطناهما فيه».

«لن يثير هؤلاء الحمقى المتاعب بعد الآن».

بعد ذلك، بعد أن حاصرت إحدى طائرات الميغ طائرة السينسا الثانية:

«الوطن أو الموت، أيها الأوغاد».

لكن في خضم الجدل، تحوّرت القصة فجأة. أجرى أدميرال ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌متقاعد يدعى يوجين كارول مقابلة مع شبكة سي أن أن. كان كارول شخصية بارزة وذات نفوذ داخل واشنطن. فقد سبق له أن كان قائداً لإحدى القوات المسلحة الأميركية في أوروبا، مع 7000 سلاح تحت تصرفه. صرح كارول أنه قبل إسقاط طائرتي «هرمانوس إيل ريسكاتي» مباشرة، كان هناك لقاء جمعه ومجموعةً من المحللين العسكريين مع مسؤولين كوبيين كبار.

سي أن أن: حضرة الأدميرال، هل يمكنك أن تخبرنا عن رحلتك إلى كوبا، مع من تحدثت؟ وماذا كانت الردود؟

كارول: استضافتنا وزارة الدفاع. الجنرال روساليس ديل تورو... تجولنا في القواعد الكوبية ومدارسها، ومحطة الطاقة النووية التي شارفت على الانتهاء، وما إلى ذلك. خلال نقاش طويل مع الجنرال روساليس ديل تورو وتابعيه، طُرح السؤال حول هذه الطائرات الأميركية التي تحلق في الأجواء، لكنها ليست طائرات حكومية، بل طائرات خاصة تنطلق من ميامي. سألونا: «ماذا سيحدث إذا أسقطنا إحداها؟ كما تعلمون، يمكننا فعل ذلك».

فسّر كارول هذا السؤال على أنه تحذير مبطن. استمرت المقابلة:

سي أن أن: حسناً، عندما عدت، من أخبرت بهذه المعلومات؟

كارول: بمجرد أن تمكنا من تحديد المواعيد، ناقشنا الظرف الحالي... مع أعضاء من وزارة الخارجية وأعضاء من وكالة الاستخبارات الدفاعية.

وكالة الاستخبارات الدفاعية - دي آي آيه - هي العنصر الثالث المساهم في انتصارات استخبارات الولايات المتحدة في الخارج، إلى جانب وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي. التقى كارول بوزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات الدفاعية، وسلّم التحذير الكوبي إلى أعلى مسؤول في الحكومة الأميركية. وهل اتخذت وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات الأميركية تدابير جدية بخصوص هذه التحذيرات؟ هل تدخلوا وأوقفوا هرمانوس إيل ريسكاتي عن مواصلة تهورهم في المجال الجوي الكوبي؟ من الواضح أنهم لم يفعلوا شيئاً[1].

انتشرت تعليقات كارول بين الدوائر السياسية في العاصمة واشنطن. لقد كان هذا حدثاً محرجاً. حصل إطلاق النار الكوبي في 24 فبراير. وقد بلّغ كارول التحذيرات الكوبية إلى وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات الدفاعية في 23 فبراير. التقى أحد كبار المسؤولين في واشنطن مع المسؤولين الأميركيين في اليوم السابق للأزمة، حذرهم بوضوح من أن صبر الكوبيين قد نفد من هرمانوس إيل ريسكاتي، وتم تجاهل تحذيره. ما بدا أنه جريمة كوبية تحول الآن إلى قصة

---

(1) أصدرت وزارة الخارجية بياناً لـهرمانوس إيل ريسكاتي، عبر القنوات الرسمية، أن أي مخططات طيران كوبية مقصودة هي غير مقبولة. ولكن من الواضح أن هذه التحذيرات لم تنجح.

سي أن أن: حضرة الأدميرال، وجهت وزارة الخارجية تحذيراً آخر إلى بروزرز تو زا ريسكيو، أليس كذلك؟

كارول: لم يكن ذلك فعالاً بما يكفي... فقد علموا أن البروزرز اعتادوا تقديم خطط طيران زائفة ثم يذهبون إلى كوبا، وهذا ما أثار سخط الكوبيين، لأن الحكومة لم تطبق لوائحها الخاصة.

تدور حول العجز الدبلوماسي الأميركي.

سي أن أن: لكن ماذا عن تلك الطائرات المدنية غير المسلحة التي كانت تحلّق في الأجواء؟

كرر كارول ما قيل له في هافانا.

كارول: هذا سؤال حساس للغاية. أين كانت؟ ماذا كانت تفعل؟ سأعطيكم مثالاً توضيحياً. لنفترض أن هذه الطائرات كانت تحلق فوق سان دييغو وانطلقت من المكسيك، وأسقطت منشورات تحرض على ويلسون حاكم كاليفورنيا. إلى متى كنا سنتحمل ذلك بعد تحذيرنا المتكرر لهم؟

لم يتواصل فيدل كاسترو مع شبكة سي أن أن بغرض الدفاع عن نفسه. لم يكن ذلك ضرورياً. فقد دعمه أدميرال.

2

تكرس الفصول الثلاثة التالية من كتاب (التحدث إلى الغرباء) دعماً لأفكار عالم نفس يدعى تيم ليفين، إنه أحد أكثر العلماء في مجال العلوم الاجتماعية الذين فكّروا في السبب الذي يتيح للغرباء خداعنا. يبحث الفصل الثاني في نظريات ليفين من خلال قصة بيرني مادوف، المستثمر الذي أدار أكبر عملية احتيال في التاريخ. في حين يتناول الفصل الثالث حالة جيري ساندوسكي، مدرب كرة القدم في جامعة ولاية بنسلفانيا الذي أُدين بتهمة الاعتداء الجنسي. أما الفصل الأول الذي تحدثنا عنه فيناقش التداعيات بين الولايات المتحدة وكوبا في العام 1996.

بالخيانة على أساس هذه التكهنات شبه الجنونية خطوة كبيرة
خصوصاً أن هذه الزميلة تحظى بمكانة خاصة لدى مونتي. في
اتخذ براون قراره، وصرّح بشكوكه إلى ضابط مكافحة التجس
وكالة الاستخبارات العسكرية اسمه سكوت كارمايكل.

يتذكر كارمايكل أول لقاء له مع ريج براون: «جاء وتح
الشارع لبعض الوقت خلال وقت الغداء. وبالكاد رأى مو
استمع إليه معظم الوقت وهو يقول: «يا إلهي». كانت يداه ت
وهو يردد: «لا أريد فعل الشيء الخطأ».

استدرجه كارمايكل ببطء. تذكر جميع من عمل علي
القنبلة الكوبية التي أسقطها فلورنتينو أسبيلاجا. غطّى ال
آثارهم جيداً. لكن كان لدى براون دليله الخاص. كتب تق
أواخر الثمانينيات من القرن الماضي يتناول فيه بالتفصيل م
كبار المسؤولين الكوبيين في تهريب المخدرات الدولي
كارمايكل: «لقد حدد أسماء مسؤولين كوبيين كبار متورطين
في الموضوع، ثم قدّم التفاصيل. وأعني بذلك، مخططات ا
والتواريخ، والأوقات، والأماكن، والمتورطين، وكل تلك الأ
ثم قبل أيام قليلة من نشر تقرير براون، جمع الكوبيون كل من ت
في التقرير، وأعدموا عدداً منهم، ونشروا إنكاراً علنياً. قال ر
هذا الهراء؟ هناك من سرب من بيننا».

جعل ذلك براون مرتاباً للغاية. في العام 1994، انشق اث
الاستخبارات الكوبية وروبا قصة مماثلة: كان لدى الكوبيين
عالي الرتبة في الاستخبارات الأميركية. قال براون لكارمايكل

على سبيل المثال، اتضح أن لدى الكوبيين مصدراً داخل ه. مانوس إيل ريسكاتي- طيار يدعى خوان بابلو روكي. اختفى في اليوم السابق للهجوم، وذهب إلى جانب كاسترو في هافانا. من ال اضح أن روكي قد أخبر رؤساءه في الوطن أن هرمانوس إيل ، سكاتي قد خططوا لشيء في الرابع والعشرين من هذا الشهر. صعب هذا على براون تصديق أن تاريخ بيان كارول قد اختير مصادفة. من أجل إحداث أكبر تأثير في مجال العلاقات العامة، أراد الكوبيون تحذيرهم في اليوم السابق، أليس كذلك؟ وبهذه الطريقة، لم تستطع وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات العسكرية التخلص من المشكلة والقول إن التحذير لم يكن واضحاً بما يكفي، أو إنه تحذير قديم. فقد أبلغهم به كارول مباشرة في اليوم الذي أقلع فيه الطيارون من ميامي.

تساءل براون، من الذي رتب الاجتماع؟ من اختار تاريخ 23 فبراير؟ أجرى بعض التحريات، وأذهله الاسم الذي توصل إليه. كانت زميلة له في وكالة الاستخبارات العسكرية، آنا بيلين مونتيس وهي خبيرة كوبية. كانت آنا مونتيس شخصية بارزة في مجالها. لقد رُقيّت مراراً وتكراراً، ولديها العديد من الجوائز والمكافآت. كانت التوصيات بشأنها متألقة. انتقلت من وزارة العدل إلى وكالة الاستخبارات العسكرية، وفي إحدى التوصيات، وصفها أحد المشرفين السابقين بأنها أفضل موظفة لديه على الإطلاق. حصلت ذات مرة على ميدالية من جورج تينيت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية. لقد لُقبت داخل مجتمع الاستخبارات بـ «ملكة كوبا».

مرت أسابيع، وشعر براون بقلق شديد. كان اتهام زميلة له

بالخيانة على أساس هذه التكهنات شبه الجنونية خطوة كبيرة للغاية، خصوصاً أن هذه الزميلة تحظى بمكانة خاصة لدى مونتي. في النهاية، اتخذ براون قراره، وصرّح بشكوكه إلى ضابط مكافحة التجسس في وكالة الاستخبارات العسكرية اسمه سكوت كارمايكل.

يتذكر كارمايكل أول لقاء له مع ريج براون: «جاء وتحدثنا في الشارع لبعض الوقت خلال وقت الغداء. وبالكاد رأى مونتيس». استمع إليه معظم الوقت وهو يقول: «يا إلهي». كانت يداه ترتجفان وهو يردد: «لا أريد فعل الشيء الخطأ».

استدرجه كارمايكل ببطء. تذكر جميع من عمل على قضية القنبلة الكوبية التي أسقطها فلورنتينو أسبيلاجا. غطّى الكوبيون آثارهم جيداً. لكن كان لدى براون دليله الخاص. كتب تقريراً في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي يتناول فيه بالتفصيل مشاركة كبار المسؤولين الكوبيين في تهريب المخدرات الدولي. وقال كارمايكل: «لقد حدد أسماء مسؤولين كوبيين كبار متورطين مباشرة في الموضوع، ثم قدّم التفاصيل. وأعني بذلك، مخططات الطيران، والتواريخ، والأوقات، والأماكن، والمتورطين، وكل تلك الأشياء». ثم قبل أيام قليلة من نشر تقرير براون، جمع الكوبيون كل من تم ذكره في التقرير، وأعدموا عدداً منهم، ونشروا إنكاراً علنياً. قال ريج: «ما هذا الهراء؟ هناك من سرب من بيننا».

جعل ذلك براون مرتاباً للغاية. في العام 1994، انشق اثنان من الاستخبارات الكوبية وروويا قصة مماثلة: كان لدى الكوبيين دخيل عالي الرتبة في الاستخبارات الأميركية. قال براون لكارمايكل، حسناً

.. رأيك؟ ألم يكن هناك ما يدعو للشك؟

ثـم أخبـر كارمايـكل بالحادثة الأخرى التي وقعت في أثناء أزمة .مانـوس إيـل ريسـكاتي. عملـت مونتيس في وكالة الاسـتخبارات العسكرية فـي قاعـدة بولينـج للقـوات الجويـة، في قسـم أناكوسـتيا .. العاصمـة واشـنطن. عندمـا أُسـقطت الطائرتـان، استُدعيت إلى البنتاغـون: باعتبارهـا أحـد الخبراء الرئيسـيين بالموضوع الكوبي في الإدارة، وجـب عليهـا الوجـود في مكان الحادثة. أُسـقطت الطائرتان . وم السـبت. فـي الليلـة التالية، أجرى براون مكالمـة هاتفية، وطلب التواصل مع مونتيس.

قـال كارمايـكل: «أجابـت امرأة علـى الهاتف، وأخبرته أن آنا قد غادرت». فـي وقـت سـابق مـن ذلك اليـوم، تلقت مونتيـس مكالمة هاتفية، وثارت ثائرتها بعدها. أخبرت جميع من في القاعة أنها متعبة وتريد الذهاب إلى المنزل.

ارتـاب ريـج للغايـة. كان هـذا مناقضـاً لثقافتهـم لدرجـة أنه لم يستطع تصديـق مـا فعلتـه. يدرك الجميع أنه في حـال حدوث أزمة، وتم استدعاؤك إلى البنتاغون لأنك تتمتع ببعض الخبرة التي يمكن أن تساعد في اتخاذ القرارات، فلا يمكنك الانصراف إلى أن يأذنوا لك بذلك. من المتعارف عليه أنه إذا اتصل بك شخص بارز، لأن هؤلاء الكوريين الشماليين قد أطلقوا صاروخاً فجأة نحو سان فرانسيسكو، فلن تقرر المغادرة فجأة لأنك شعرت بالتعب والجوع. يعلم الجميع ذلـك، ومـع ذلـك هـذا ما فعلته آنا. وقال ريج في سـره: «ما هذا بحق الجحيم؟».

بحسب رأي براون، إن كانت حقاً تعمل مع الكوبيين، فإنهم سيكونون متشوقين لسماع أخبار منها: كانوا يريدون معرفة ما كان يحدث في الاجتماع. هل اجتمعت في تلك الليلة مع المسؤول عنها؟ كان ذلك احتمالاً بعيداً، ولهذا السبب تشوش براون للغاية. لكنه علم جيداً أن هنالك جواسيس كوبيين. ولدينا هذه المرأة هنا، التي تلقت مكالمة هاتفية شخصية، وتوجهت إلى الخارج في وسط ما كان - بالنسبة إلى المتخصصين الكوبيين - أزمة الجيل الكبرى. علاوة على ذلك، ألم تكن هي التي رتبت موعداً ملائماً للغاية لصدور بيان الأدميرال كارول؟

أخبر براون كارمايكل أن الكوبيين أرادوا إسقاط إحدى طائرات هرمانوس إيل ريسكاتي منذ سنوات. لكنهم لم يفعلوا، لمعرفتهم أنها ستكون حركة استفزازية للغاية، قد تخدم الولايات المتحدة وتعطيها العذر لإطاحة فيدل كاسترو أو غزو كوبا. بالنسبة إلى الكوبيين، لم يستحق الأمر كل هذا العناء، ما لم يتمكنوا من تحديد طريقة لقلب الرأي العام لصالحهم.

هكذا اكتشف أن آنا لم تكن أحد الموجودين في الغرفة مع الأدميرال كارول فحسب، بل هي من نظّمت كل شيء. فكّر براون في ذلك قليلاً وقال: «يا إلهي، أنا أنظر إلى عملية خداع من طرف مكافحة التجسس الكوبية، وآنا هي التي نظّمت الاجتماع مع الأدميرال كارول. ما هذا بحق الجحيم؟».

مرت أشهر، ولم تخمد جذوة شكوك براون. أخيراً، سحب كارمايكل ملف مونتيس. لقد نجحت في اجتياز فحص الكذب الذي

أ.ري حديثاً. لم تكن لديها مشكلة سرية تتعلق بالشرب، أو مبالغ
. مفسّرة في حسابها المصرفي. لم تكن لديها أية مؤشرات على الخطر. وقال كارمايكل: «بعد مراجعتي لملفاتها الأمنية والشخصية، ظننت أن ريج مخطئ للغاية في شكوكه. ستصبح هذه المرأة مديرة وكالة الاستخبارات العسكرية. إنها متميزة بالفعل». لكنه علم أنه ا.ريـر تحقيق قائم على أساس بعض التكهنات وجب عليه أن يكون دقيقاً. وقال: «رأيت ريج براون ينهار أمامي». وجب عليه ،أديد شكوك براون، بطريقة أو بأخرى - على حدّ تعبيره - وتوثيق أدق التفاصيل من جميع الأحداث لأنه إذا تسربت الأخبار حول أن مونتيس كانت موضع شك «فإنني متيقن من مواجهتي عاصفة شديدة من الغضب».

طلب كارمايكل إلى مونتيس الحضور. التقيا في قاعة اجتماعات في بولينج. كانت جذابة، ذكية، ممشوقة القامة، شعرها قصير وذات تعابير صارمة. قال كارمايكل في سره، هذه المرأة مثيرة للإعجاب: «عندما جلست، كانت تجلس بجواري تقريباً-على بعد ثلاثة أقدام- شبكت ساقيها. لا أعتقد أنها فعلت ذلك عمداً، بل كانت تحاول الجلوس بوضعية مريحة. ومن المصادفة أنني رجل محب لسيقان النساء، لم تكن لتعرف ذلك، لكني أحب السيقان ولم أقاوم إلقاء نظرة خاطفة».

سألتها عن الاجتماع مع الأدميرال كارول. أجابتني بأن تلك لم تكن فكرتها على الإطلاق، بل كانت فكرة ابن شخص يعمل في وكالة الاستخبارات العسكرية وقد رافق كارول إلى كوبا، ومن ثم

تلقت هي مكالمة بعد ذلك.

قالت: «أعرف والده، اتصل بي والده وقال: إن أردت معرفة آخر مستجدات كوبا، فعليك الذهاب لرؤية الأدميرال كارول، تفقدنا جدولي وقررنا أن يوم 23 فبراير هو التاريخ الأكثر ملاءمة لكلينا، وهذا كل ما في الأمر».

كما تبين لاحقاً، فقد عرف كارمايكل موظف وكالة الاستخبارات العسكرية الذي كانت تتحدث عنه. أخبرها أنه سيتصل به لتأكيد قصتها. وأجابته، «افعل ذلك من فضلك».

بعدها سألها عما حصل عند تلقيها المكالمة الهاتفية في غرفة الاجتماعات؟ أجابت أنها لا تتذكر تلقي مكالمة هاتفية، وبدت صادقة بكلامها، فقد كان يوماً محموماً وجنونياً منذ تسعة أشهر. فسألها: «حسناً، ماذا عن مغادرتك باكراً؟».

أجابت: «نعم، غادرت يومها باكراً». لم تنكر شيئاً واعترفت على الفور، وأثار ذلك شبهاتي بعض الشيء. وتابعت حديثها: «نعم، لقد غادرت باكراً يومها. كان يوم أحد وكما تعلم جميع الكافيتريات مغلقة. أنا انتقائية للغاية عندما يتعلق الأمر بالطعام، ولديّ حساسية، لذلك لا أتناول شيئاً من آلات البيع. وصلت إلى هناك قرابة الساعة السادسة صباحاً، وأصبحت الساعة قرابة... الثامنة مساءً. لذا كنت أتضور جوعاً، لم يكن هناك شيء مهم، في الحقيقة لم يكونوا بحاجة إليّ، لذلك قررت النهوض والذهاب إلى المنزل لتناول الطعام»[1].

---

(1) في الواقع، كان هذا صحيحاً. خصصت مونتيس لنفسها نظاماً غذائياً صارماً، واقتصر الأمر في بعض الأحيان على «تناول البطاطا المسلوقة من دون منكهات».

ا، انني شعور أن ما قالته كان صحيحاً.

بعد المقابلة، تحقق كارمايكل من أجوبتها مرتين. «بدا لي أن .. عد إصدار بيان كارول كان مجرد مصادفة بالفعل. وسافر ابن .. ا يقها إلى كوبا برفقة كارول حقاً».

تأكدت من أنها تعاني بالفعل من الحساسية، ولا تشتري طعامها .. الات البيع، إنها صارمة جداً عندما يتعلق الأمر بطعامها. فكرت: ؛انت في البنتاغون يوم الأحد، جميع الكافتيريات مغلقة، أمضت ا..وم بأكمله دون طعام، لذلك ذهبت إلى المنزل، قلت لنفسي: « حسناً، هذا منطقي نوعاً ما».

«ما دليلي ضدها؟ لم يكن لديّ أي شيء».

أخبر كارمايكل ريج براون بألا يقلق من ناحيتها. وانصرف الاهتمام بمسائل أخرى. عادت آنا مونتيس إلى مكتبها. وتم نسيان ..ل شيء وكأنه لم يحصل حتى أحد الأيام في عام 2001، بعد خمس ..سنوات، عندما اكتشف أن مونتيس كانت تعود كل ليلة إلى منزلها، و تكتب جميع الحقائق والأفكار التي مرت معها خلال ذلك اليوم في العمل، وترسلها إلى معاونيها في هافانا.

كانت مونتيس جاسوسة كوبية منذ اليوم الأول الذي انضمت فيه إلى وكالة الاستخبارات العسكرية.

وخلص علماء النفس في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في وقت لاحق إلى أنها تعاني من الوسواس القهري كذلك كانت تستغرق وقتاً طويلاً في الاستحمام، وتستخدم أنواعاً مختلفة من الصابون، وترتدي القفازات عند قيادتها السيارة. في ظل هذه الظروف، من غير المفاجئ أن يجد الناس صعوبة في تفسير تصرفاتها الغريبة.

3

في قصص التجسس الكلاسيكية، يكون العميل السري مخادعاً ومراوغاً. لقد خدعنا العدو بذكائه، تلك كانت الطريقة التي فسّر بها العديد من العاملين في وكالة الاستخبارات المركزية في ميامي مفاجآت فلورنتينو أسبيلاجا: كان كاسترو عبقرياً، وأبدع عملاؤه في التمثيل. ومع ذلك، نادراً ما يكون أخطر الجواسيس أشراراً. كان لدى ألدريش أميس الذي يعد من أكبر الخونة في التاريخ الأميركي، تقييمات أداء متوسطة، مشكلة إدمان على الكحول، ولم يحاول حتى إخفاء كل الأموال التي حصل عليها من الاتحاد السوفياتي لقاء تجسسه.

لم تكن آنا مونتيس أفضل منه بكثير. بعد اعتقالها مباشرة، عثرت وكالة الاستخبارات العسكرية في حقيبتها على الشيفرة التي استخدمتها لإرسال رسائلها إلى هافانا. وفي شقتها، عُثر على لاسلكي ذي موجات قصيرة في صندوق أحذية داخل خزانة ملابسها.

عرف براين لاتيل مونتيس جيداً، وهو المتخصص في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في كوبا الذي شهد على كارثة أسبيلاجا.

يتذكر لاتيل قائلاً: «لقد اعتادت الجلوس على الطرف الآخر من الطاولة في الاجتماعات التي عقدتها، عندما كنت مسؤولاً عن الاستخبارات الوطنية». علم أنها ذائعة الصيت داخل وكالة الاستخبارات العسكرية، لكنها لطالما بدت غريبة الأطوار قليلاً بالنسبة إليه.

حاولت إشراكها من قبل في بعض الاجتماعات التي عقدتها، ولطالما كانت ردود أفعالها غريبة...

- «ما هي دوافع فيديل برأيك؟»

كانت تتلعثم، تتردد، وحتى إنها تُظهر تعابير جسدية غريبة دفعتني إلى الظن: «إنها متوترة لأنها مجرد محللة سيئة. لا تعرف ما يجب أن تقول».

وصرّح أنه قبل عام واحد، قُبلت مونتيس في برنامج التحليل المتقدم التابع لوكالة الاستخبارات المركزية، وهو بحث استيداع متاح لضباط الاستخبارات من جميع أجهزة الإدارة. أين طلبت الذهاب؟ إلى كوبا بالطبع.

قال لاتيل: «ذهبت إلى كوبا بتمويل من هذا البرنامج. هل يمكنكم تخيل ذلك؟». إذا كنت جاسوساً كوبياً وتحاول إخفاء نواياك، هل كنت لتطلب إجازة مدفوعة الأجر إلى هافانا؟ طبعاً لاتيل يتحدث عن الأمر بعد مرور عشرين عاماً على حصول ذلك، لكن وقاحتها لا تزال تذهله.

ذهبت إلى كوبا بوصفها محللة استخباراتية بارزة من وكالة الاستخبارات المركزية. بالطبع، سُعدوا باستضافتها، خاصة وأن ذلك كان على حسابنا، وأنا واثق من أنهم درّبوها على جميع أنواع الحرف السرية في أثناء وجودها هناك. أظن - لا يمكنني إثبات ذلك، لكنني متأكد تماماً- من أنها قابلت فيدل. أحب فيدل مقابلة عملائه الرئيسيين، لتشجيعهم، وتهنئتهم، والتكلم عن النجاح الذي يحققونه معاً ضد وكالة الاستخبارات المركزية.

عندما عادت مونتيس إلى البنتاغون، كتبت تقريراً لم تخفِ فيه تحيزها أبداً.

وجب اتخاذ جميع الاحتياطات والاستعدادات عندما قرأ المشرفون تقريرها، لأنها كتبت معلومات عن الجيش الكوبي لا معنى لها على الإطلاق، إلا من وجهة نظر [كوبية] لأنهم وحدهم من يمكنهم فهم تلك المعلومات.

سأل لاتيل لكن هل اتخذ أحدهم الاحتياطات؟ «لم أشك للحظة في كونها جاسوسة. كان هناك ضباط بوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية من رتبتي، أو قريبين من رتبتي، ظنوا أنها أفضل محللة كوبية على الإطلاق». لذلك فكَر قليلاً في قرارة نفسه وقرر الارتياح لها قليلاً. وتابع حديثه: «لم أثق بها أبداً، ولكن لأسباب خاطئة، وهذا أحد الأشياء التي أشعر بالأسى بسببها. كنت مقتنعاً تماماً بأنها محللة سيئة فيما يتعلق بكوبا. حسناً، لم يخب ظني كثيراً لأنها كانت بالفعل كذلك. لم تعمل لصالحنا. بل لصالح فيدل. لكنني لم أربط الأمور ببعضها أبداً».

لم يفعل أحد ذلك. لدى مونتيس شقيق أصغر اسمه تيتو، وكان عميلاً في مكتب التحقيقات الفيدرالي. لم تكن لديه أية فكرة. عملت أختها أيضاً في مكتب التحقيقات الفيدرالي، وأدت في الحقيقة دوراً رئيساً في فضح عصابة الجواسيس الكوبيين في ميامي. لم تكن لديها أية فكرة أيضاً.

حتى حبيب مونتيس عمل هو الآخر في البنتاغون. تخصص بالاستخبارات الأميركية اللاتينية. كانت وظيفته القبض على

الجواسيس مثل حبيبته. لم تكن لديه أدنى فكرة أيضاً. عندما قُبض على مونتيس اتصل رئيس قسمها بزملائها وعقد اجتماعاً ليخبرهم المستجدات. بكى العديد منهم وصعب عليهم تصديق ذلك. اصطف مالجون نفسيون في وكالة الاستخبارات العسكرية لتقديم الاستشارة والتقييم في موقع الحدث. حزن المشرف عليها بشدة. لم يملك أي منهم أدنى فكرة. في مكتبها، كانت هنالك لوحة لاقتباس من مسرحية شكسبير (هنري الخامس) معلقة على جدارها على مستوى البصر - يراها كل العالم.

«لدى الملك معلومات
بكل ما يخططون له،
عبر التنصت
الذي يحلمون هم به».

أو بعبارات أكثر وضوحاً: تدوّن ملكة كوبا كل ما تنوي الولايات المتحدة فعله، عبر وسائل لا يحلم بها من هم حولها.

لا تكمن المشكلة في أن الجواسيس بارعون للغاية. بل تكمن المشكلة فينا نحن.

4

خلال حياته المهنية، أجرى عالم النفس تيم ليفين مئات الأبحاث عن التجربة البسيطة نفسها. يدعو الطلاب إلى مختبره، ويعطيهم اختباراً سهلاً. ما هو أعلى جبل في آسيا؟ وأشياء من هذا القبيل. ومن يُجِب عن السؤال بشكل صحيح يفُز بجائزة نقدية.

يساعدهم شريك، شخص لم يسبق لهم أن التقوه أو تعرفوا إليه، وهو عميل لدى ليفين، وهناك مرشدة في الغرفة اسمها رايتشل، وعادة ما تُستدعى في وسط الاختبار، تغادر وتصعد إلى الطابق العلوي. ثم يبدأ اختبار الأداء الحقيقي. يقول الشريك: «لا أعرف ما وضعك، لكنني بحاجة إلى النقود. أعتقد أن الإجابات موجودة هناك». ويشير إلى مغلّف ملقى أمامهما على المنضدة. يقول ليفين: «يعود الأمر لهما إن غشا أم لا. وكانوا يغشون في ما نسبته ثلاثون بالمئة من الحالات». ثم يواصل ليفين المقابلة، ويسألهما: «هل غششتما؟».

كثر هم العلماء الذين يدرسون الخداع البشري عبر العالم. يفوق عدد نظريات أسباب الكذب، وكيفية اكتشاف الأكاذيب، عدد نظريات أسباب اغتيال كينيدي، ويبرز ليفين في هذا المجال المزدحم بالعلماء. لقد بنى بعناية نظرية موحدة حول الخداع[1]. وجوهر تلك النظرية هي الأفكار التي اكتسبتها من دراسته السابقة المتعلقة باختبار المعلومات السهل.

شاهدت شرائط فيديو لعشرات من المقابلاتِ لما بعد تجربة ليفين في مكتبه في جامعة ألاباما في برمنغهام. إليكم أحد النماذج التي تتضمن شاباً كان سارحاً بعض الشيء. فلندعه فيليب.

المحاور: حسناً، هل لعبت سابقاً ألعاب تخمين سهلة؟

فيليب: ليس غالباً، لكن أعتقد أني فعلت.

---

(1) وضع ليفين نظرياته في كتابه، دابد؛ ديفولت ثيوري أند سوشيال ساينس أوف لاينغ أند ديسيبشن توسكالوسا، مطبعة جامعة ألاباما، 2019. إن أردتم معرفة كيف يحصل الخداع، فلا يوجد أفضل من هذا المكان للحصول على المعلومات.

المحاور: هل وجدت الأسئلة صعبة في هذه اللعبة؟

فيليب: نعم، بعضها. قلت لنفسي وقتها: «ما هذا السؤال؟»

المحاور: إن طلبنا إليك تقييمها من واحد إلى عشرة من ناحية الصعوبة، فما هو تقييمك لصعوبتها؟

فيليب: أعتقد أن مستوى صعوبتها هو ثمانية من عشرة.

المحاور: ثمانية. حسناً، إنها صعبة بعض الشيء.

أخبر المحاور أن فيليب وشريكه قد أديا أداءً جيداً في الامتحان. وسأله عن السبب الذي يكمن وراء ذلك.

أجاب **فيليب**: العمل الجماعي.

المحاور: العمل الجماعي؟

فيليب: أجل.

المحاور: حسناً، لقد طلبت إلى رايتشل مغادرة الغرفة لبرهة من الزمن. هل غششتما عندما خرجت من الغرفة؟

فيليب: لا أعتقد ذلك.

تمتم فيليب إجابته بصوت منخفض. ثم شرد بعيداً.

المحاور: هل تقول الحقيقة؟

فيليب: نعم.

المحاور: حسناً. عندما أقابل شريكك وأسأله السؤال نفسه، ماذا سيكون رده؟

في هذه المرحلة من التسجيل، سادت بعض اللحظات من الصمت المريب، وكأن الطالب يفكر في كذبته.

فكر ليفين: «من الجلي أنه يفكر كثيراً».

قال فيليب: لا.

المحاور: لا؟

فيليب: نعم.

المحاور: حسناً، هذا كل ما أحتاجه منك.

هل يقول فيليب الحقيقة؟ عرض ليفين شريط فيديو فيليب على مئات الأشخاص، وعلم جميع المشاهدين تقريباً أن فيليب قد غش. كما أكد «الشريك» لليفين أن فيليب قد نظر داخل مغلّف الأجوبة عندما غادرت رايتشل الغرفة. وكذب في مقابلة ما بعد الاختبار. وكان ذلك واضحاً. قال ليفين: «لم يكن مقنعاً البتة».

شعرت بالشيء نفسه. في الواقع، عندما سُئل فيليب: «هل غششت؟». وكانت إجابته: «لا». لم أستطع تمالك أعصابي وصرخت: «ذلك مريع للغاية». حدّق فيليب بعيداً، متوتراً للغاية. لم يستطع النظر مباشرة في وجهه. عندما تابع المقابلة وسأله: «هل تقول الحقيقة؟» صمت قليلاً، كما لو وجب عليه التفكير في الأمر أولاً.

في البداية، بدا الأمر سهلاً، لكن الصعوبة ازدادت كلما اطّلعنا على عدد أكبر من الفيديوهات. إليكم الحالة الثانية، دعونا نطلق عليه اسم لوكاس. كان وسيماً، واضحاً، وواثقاً من نفسه.

المحاور: يجب عليّ أن أطرح هذا السؤال، عندما غادرت رايتشل الغرفة، هل حصلت أية عملية غش؟

لوكاس: لا.

المحاور: لا؟ هل تقول الحقيقة؟

لوكاس: نعم.

المحاور: عندما أجري مقابلة مع شريكك وأسأله السؤال نفسه، ماذا سيكون رده برأيك؟

لوكاس: الشيء نفسه.

قال ليفين: «صدقه الجميع، حتى أنا صدقته. لكن تبين أنه كان كاذب».

قضيت أنا وليفين فترة الصباح ونحن نشاهد أشرطة الفيديو المتعلقة بذلك الاختبار. بحلول النهاية، استسلمت أخيراً. لم تكن لدي أية فكرة عن كيفية كشف خداع أي منهم.

كان الهدف من بحث ليفين هو محاولة الإجابة عن أحد أكبر الألغاز في علم النفس البشري: لماذا نحن سيئون للغاية في كشف الأكاذيب؟ نعتقد أننا نجيد كشف الأكاذيب. بحسب المنطق من المفيد بالنسبة إلى البشر أن يعرفوا متى يُخدعون. وأن التطور على مدى ملايين السنين وجب عليه أن يجد حلاً لكشف الكذب. لكن ذلك لم يحصل.

في إحدى المرات التي أعاد فيها ليفين مشاهدة الأشرطة، قسمها إلى قسمين؛ اثنين وعشرين كاذباً واثنين وعشرين صادقاً. حدّد الأشخاص الذين شاهدوا جميع مقاطع الفيديو الأربعة والأربعين بشكل صحيح وكانت نسبة الكاذبين 56 في المئة. وقد حاول علماء النفس الآخرون صيغاً مماثلة من التجربة نفسها. ما هو متوسطهم جميعهم؟ 54 في المئة. الجميع مروعون في كشف الكاذبين: رجال الشرطة، القضاة، المعالجون النفسيون، وحتى رجال الاستخبارات المركزية الأميركية الذين يديرون شبكات تجسس كبيرة خارج البلاد.

فشل الجميع في ذلك، لماذا[1]؟

تُدعى إجابة تيم ليفين عن هذا السؤال بـنظرية افتراضية الصدق أو تي دي تي.

انبثق بحث ليفين من فكرة ثاقبة أتت من إحدى طالباته المتخرجات، هي صن بارك. كان ذلك في بداية بحث ليفين، عندما كان محتاراً مثل بقية زملائه في المهنة حول سبب كوننا سيئين للغاية في شيء يجب أن نبرع فيه.

قال ليفين: «كانت فكرتها الأولى، أن الرقم 54 بالمئة من منسوب دقة كشف الخداع تراوح بين الصدق والأكاذيب. لقد توصلت إلى فهم مختلف تماماً إن فصلنا... عدد الناس الصادقين، وعدد الناس الكاذبين».

هذا ما أقصده. إذا قلت لك إن معدل دقتك على فيديوهات ليفين يصل إلى ما يقارب 50 بالمئة، فإن الافتراض الطبيعي هو الاعتقاد أنك تخمّن ببساطة. لكن لاحظت بارك أن ذلك غير صحيح. نحن أفضل بكثير في تحديد الطلاب الذين يقولون الحقيقة بشكل صحيح اعتماداً فقط على المصادفة. لكننا أسوأ بكثير في تحديد الطلاب الذين يكذبون بشكل صحيح. عدنا وشاهدنا جميع مقاطع الفيديو، واعتقدنا - «صادق، صادق، صادق»- وهذا يعني أننا نحدد الصادقين بشكل صحيح، ونخطئ بتحديد معظم الكذابين. لدينا ميول لافتراض الصدق: نفترض دائماً أن الأشخاص الذين نتعامل معهم صادقون.

---

(1) في كتابي (التفكير اللماح بطرفة عين)، كتبت عن ادعاء بول إيكمان بأن مجموعة صغيرة من الناس قادرة على اكتشاف الكاذبين بنجاح. لمعرفة المزيد حول نقاش إيكمان-ليفين، الرجاء مراجعة التعليق الموسع في قسم الملحوظات.

يقول ليفين إن تجربته هي توضيح شبه مثالي لهذه الظاهرة، فهو ...و الناس للمشاركة في اختبار أسئلة مقابل الحصول على جائزة ...بة. فجأة يتم استدعاء المرشدة إلى خارج الغرفة. ويصدف أنها تركت ...ف الإجابات على مكتبها؟ يقول ليفين يجب أن يكون الطلاب قد ...شفوا الحيلة بحلول هذا الوقت. فهُم طلاب جامعيون وليسوا أغبياء. ...ركوا في تجربة نفسية. وتم إقرانهم مع «شريك» لم يلتقوا به من قبل ...هم على الغش دائماً. قد تظن أنه بحلول هذه النقطة قد يرتابون قليلاً أو يشكون في أن الأمور ليست كما تبدو عليه. ولكن لا!

يقول ليفين: «في بعض الأحيان، يشكون في أن مغادرة المرشدة ...ن الغرفة مكيدة». الشيء الذي لا يشكون فيه أبداً هو أن يكون ...ريكهم مزيفاً... لذلك يعتقدون أنه قد تكون هناك مخططات خفية. يعتقدون أن هنالك مكيدة لأن التجارب هي عبارة عن خُدع، أليس كذلك؟ لكنهم لا يشكون بهذا الشخص اللطيف الذي يتحدثون ويدردشون معه.

يتطلب التخلص من نمط فرضية الصدق ما يسميه ليفين بالحافز. لا يماثل الحافز الشك، أو الارتياب. نحن نتخلص من نمط فرضية الصدق فقط عندما نسير ضد افتراضنا الأولي بالصدق. بكلمات أخرى؛ نحن لا نتصرف مثل العلماء ذوي التفكير الرصين، نجمع ببطء الأدلة على حقيقة شيء قبل التوصل إلى استنتاج صحته أو زيفه. نحن نفعل العكس. نثق أولاً، ثم نتوقف عن الثقة فقط عندما ترتفع شكوكنا ومخاوفنا إلى حد لا يمكننا فهمه أو تفسيره.

في البداية، يبدو هذا الاقتراح بمثابة نوع من التفرقة الذي يحب

علماء الاجتماع الانخراط فيه. إنه مفهوم عميق يشرح كثيراً من هذا السلوك المحير.

على سبيل المثال، خذوا بعين الاعتبار أحد أكثر الاكتشافات شهرة في مجال علم النفس: تجربة ستانلي ميلغرام للطاعة. في العام 1961، جمع ميلغرام متطوعين من نيو هافين للمشاركة فما فيما قيل إنها تجربة للذاكرة. التقى كل منهم بشاب مفعم بالحيوية، يدعى جون ويليام، وأوضح أنهم سيؤدون دور «المعلم» في التجربة.

قدّمهم ويليام إلى متطوع آخر، رجل لطيف في أواسط العمر يدعى السيد والاس، قيل لهم إنه هو «المتعلم». وجلس في الغرفة المجاورة، موصولاً بجهاز معقد قادر على إيصال صدمات كهربائية قد تصل قوتها إلى 450 فولت. إذا كنت تشعر بالفضول حيال ما يعنيه 450 فولت من الكهرباء، فإنه يشابه مقدار الصدمة الكهربائية التي تتسبب بتلف في الأنسجة.

أُصدرت تعليمات للمتطوع/ المعلم تتضمن إعطاء المتعلم سلسلة من الاختبارات المتعلقة بالذاكرة، وفي كل مرة يفشل فيها المتعلم، عاقبه المعلم بصدمة كهربائية أكبر، لمعرفة ما إذا كان التهديد بالعقوبة يؤثر على قدرة شخص ما على أداء اختبار الذاكرة بشكل أفضل. عندما تصاعدت الصدمات، صرخ والاس من الألم، وفي النهاية بدأ يقرع على الجدران. ولكن إذا توقف «المعلم» عن المتابعة، فإن المرشد المفوّض سيحثهما على ذلك:

«تابعا من فضلكما».

«تتطلب هذه التجربة متابعتكما».

«من المهم أن تتابعا».

«ليس لديكما خيار آخر، عليكما المتابعة».

السبب الذي يكمن وراء شهرة هذه التجربة هو أنه إذا جمعنا عدد المرات التي تلقى فيها المتعلمون التعساء صدمات كهربائية قصوى فستصل نسبتها إلى خمس وستين بالمئة. أحدثت نتائج ميلغرام ضجة كبيرة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والكشف عما أُمر الحراس الألمان بالقيام به في معسكرات الاعتقال النازية.

لكن بالنسبة إلى ليفين، هناك منحى ثانٍ للتجربة. يأتي المتطوع و يلتقي بالممثل جون ويليامز. عمل مدرساً لعلوم الحياة في المدرسة الثانوية، تم اختياره على حد تعبير ميلغرام، لأنه كان «ذا مظهر تقني و جاف، النوع الذي تراه على التلفاز ببرامج تتعلق بالفضاء». كل ما قاله ويليامز خلال التجربة حفظه من سيناريو كتبه ميلغرام بنفسه.

كان اسم السيد والاس الحقيقي هو جيم ماكدونو. عمل في مجال السكك الحديدية. فضل ميلغرام أن يجعله يؤدي دور الضحية لأنه بدا «بسيطاً وخاضعاً». سُجلت صرخاته جراء العذاب وبُثّت عبر مكبرات الصوت. كانت التجربة عبارة عن إنتاج مسرحي صغير الهواة. وكلمة الهواة هنا بالغة الأهمية. لم يتم إنتاج تجربة ميلغرام لمسرحية برودواي. لأنه بحسب وصف ميلغرام كان السيد والاس ممثلاً سيئاً للغاية. وبدا كل ما تعلق بالتجربة صعب التصديق. لم تصعق آلة الصدمات الكهربائية فعلياً. لاحظ أكثر من مشارك مكبر الصوت في الزاوية وتساءل عن سبب سماع صوت صراخ والاس من هناك، وليس من خلف الباب المؤدي إلى الغرفة حيث كان

والاس. وإذا كان الغرض من التجربة هو التوصل لمفهوم أعمق للتعلم وقياسه، لم قضى ويليامز كامل الوقت مع المعلم وليس وراء الباب مع المتعلم؟ ألا يجعل ذلك من الواضح أن ما أراد فعله حقاً هو ملاحظة الشخص الذي يُلحق الألم، وليس الشخص الذي يتألم؟ كانت تجربة ميلغرام خدعة واضحة. ومثلما هو الحال مع اختبار ليفين البسيط للمعلومات، سقط الناس ضحية تلك الخدعة. لقد افترضوا الحقيقة.

كتب أحد المتطوعين إلى ميلغرام في استبيان المتابعة: «لقد راجعت في الواقع إشعارات الوفاة في سجل نيو هافن لمدة أسبوعين على الأقل بعد التجربة لمعرفة ما إذا كنت قد تسببت في وفاة المتعلم المزعوم - لقد شعرت بالارتياح الشديد لعدم ظهور اسمه». وكتب آخر: «صدقوني، عندما لم يصدر أي رد من السيد والاس بعد تلقيه الصدمة الكهربائية القوية اعتقدت حقاً أن الرجل قد مات». هؤلاء أشخاص بالغون - وليسوا طلاباً جامعيين سذجاً- وقد اقتنعوا تماماً على ما يبدو بأن مؤسسة مرموقة للتعليم العالي ستدير عملية تعذيب قاتلة في قبوها. وكتب آخر «لقد تركت هذه التجربة تأثيراً كبيراً عليّ، إذ قضيت الليل وأنا أتعرق وتراودني الكوابيس بسبب خوفي من أنني لربما قتلت ذلك الرجل الجالس إلى الكرسي».

لكن إليكم التفصيل الأهم. لم يكن متطوعو ميلغرام سذجاً. بل راودتهم الشكوك- كثيرٌ من الشكوك! في تاريخها الحافل مع تجارب الطاعة، قابلت جينا بيري، صاحبة كتاب (بيهايند ذا شوكينغ ماشين،) صانع أدوات متقاعد اسمه جو ديمو، الذي كان أحد المتطوعين

الأساسيين لدى ميلغرام. أخبر ديمو بيري: «نعم، اعتقدت أن هذا مريب». وأصبح ديمو واثقاً بأن والاس كان يمثل فحسب.

قلت إنني لم أكن أعرف بالضبط ما كان يجري، ولكن كانت لديَ شكوكي الخاصة حول هذا الموضوع. اعتقدت، «إذا كانت شكوكي صحيحة، فإن [المتعلم] متواطئ معهم؛ لا بد من ذلك. وأنا لا أصعقه بالكهرباء أبداً. بل يصرخ بين الوهلة والأخرى فحسب».

ولكن في نهاية التجربة، خرج السيد والاس من الغرفة المغلقة متصنعاً التعب. تذكر ديمو أنه بدا «منهكاً» ومنفعلاً. أخرج منديلاً ومسح به وجهه. اقترب مني ليصافحني وقال: «أريد أن أشكرك على مجيئك».

عندما دخل قلت لنفسي: «حسناً، ربما كان ذلك حقيقياً». كان ديمو متأكداً من أنه يُكذب عليه. ولكن كل ما تطلبه الأمر هو أن يطيل أحد الكاذبين التمثيلية لفترة أطول قليلاً - أن يبدو مستاءً قليلاً ويمسح جبينه بمنديل - مما زعزع شكوك ديمو.

الرجاء إلقاء نظرة على إحصائيات تجربة ميلغرام:

56.1 بالمئة	صدقوا أن المتعلِم تلقى تلك الصدمات الكهربائية المؤلمة.
24 بالمئة	بالرغم من بعض الشكوك، إلا أنهم صدقوا أن المتعلم صُعق حقاً.
6.1 بالمئة	لم يعرفوا ما إن كان المتعلم يتلقى الصدمات الكهربائية فعلياً أم لا.
11.4 بالمئة	بالرغم من بعض الشكوك، إلا أنهم اعتقدوا أن المتعلم لم يُصعق بتلك الصدمات الكهربائية.
2.4 بالمئة	كانوا متأكدين من أن المتعلم لم يُصعق كهربائياً.

شعر أكثر من 40 بالمئة من المتطوعين أن هنالك شيئاً غريباً يحصل؛ شعروا أن التجربة لم توحِ بما هي عليه. لكن تلك الشكوك لم تكن كافية لإبعادهم عن افتراض الصدق. على الأقل هذه هي وجهة نظر ليفين. أنت تصدق شخصاً ليس لأنه ليس لديك شكوك اتجاهه. القناعة لا تعني غياب الشك، بل تصدق شخصاً ما لأنه ليس لديك ما يكفي من الشكوك حوله.

سأعاود التحدث عن نقطة التميز بين بعض الشكوك وما يكفي من الشكوك، لأنني أعتقد أنه أمر بالغ الأهمية. فقط فكّروا في عدد المرات التي انتقدتم فيها شخصاً بعد فوات الأوان لفشله في كشف نفاق أحدهم. «وجب عليك أن تعرف. كان مثيراً للشبهة. كانت لديك شكوك حوله». يقول ليفين إن هذه الطريقة خاطئة للنظر إلى المشكلة. السؤال الصحيح هو: هل كان هناك ما يكفي من الشكوك لدفعك لتتجاوز عتبة التصديق؟ إذا لم تكن الشكوك الكافية موجودة، لجوؤك إلى افتراض الحقيقة يعني أنك تصرفت وفقاً لطبيعتك الإنسانية.

نشأت آنا بيلين مونتيس في ضواحي بالتيمور الميسورة، وعمل والدها طبيباً نفسياً، التحقت بجامعة فرجينيا، ثم حصلت على درجة الماجستير في مجال الشؤون الخارجية من جامعة جونز هوبكنز. كانت من المناصرين لحكومة الماركسيين الساندينيستيين في نيكاراغوا، التي عملت الإدارة الأميركية حينها على الإطاحة بها، وجذب نشاطها انتباه مجند من الاستخبارات الكوبية. في العام 1985، سافرت سراً إلى هافانا. «قيّم المعاونون، بمساعدتها غير المقصودة، نقاط ضعفها واستغلوا احتياجاتها النفسية، الأيديولوجية، وأمراضها

النفسية لجذبها والحفاظ على دوافعها للعمل في هافانا». هذا ما خلصت إليه وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بعد فحص سيرتها المهنية وتدقيقها. شجّعها أبناء وطنها الجديد على التقدم للعمل في مجتمع الاستخبارات الأميركي. في العام نفسه، انضمت إلى وكالة الاستخبارات العسكرية- ومن هناك بدأت تترقى وتصعد السلم بسرعة.

في الصباح الباكر، وصلت مونتيس إلى مكتبها، تناولت طعام الغداء في مكتبها، وظلّت منطوية على نفسها.

عاشت وحدها في شقة مؤلفة من غرفتَي نوم في كليفلاند بارك في واشنطن، وظلت عزباء. جمع سكوت كارمايكل في أثناء تحقيقه عضو من مكافحة التجسس في مركز الاستخبارات العسكرية - كل صفة استخدمها زملاء مونتيس لوصفها. إنها قائمة مثيرة للإعجاب: خجولة، هادئة، منعزلة، لطيفة، مستقلة، تعتمد على نفسها، متحفظة، ذكية، جدية، متفانية، مركزة، دؤوبة، حادة الطبع، سريعة، متلاعبة، حقودة، منطوية على نفسها، طموحة، جذابة، واثقة، عملية، عقلانية، حازمة، متأنية، هادئة، ناضجة، باردة الأعصاب، مقتدرة، كفوءة.

افترضت آنا مونتيس أن سبب لقائها مع كارمايكل هو فحص أمني روتيني، إذ يُفحص كل العاملين في قطاع الاستخبارات بشكل دوري ليحصلوا على تصريح أمني. كانت فظّة للغاية.

يتذكر كارمايكل: «في البداية، عندما جاءت إلى هنا، أخبرتني - وكان ذلك صحيحاً - أنها عُينت للتو رئيسة شعبة بالوكالة. كان لديها كثير من المسؤوليات، والاجتماعات، ولم تملك كثيراً من الوقت».

كارمايكل طفولي الوجه بشكل مزعج، شعره منسدل وبطنه بارزة. يبدو حسب تقديره، مثل الممثل الكوميدي الراحل كريس فارلي. لا بد أنها اعتقدت أنها ستتمكن من التنمر عليه. يتابع: «تعاملت معها بالطريقة المعتادة».

في المرة الأولى التي ستسمع فيها بالأمر، ستقول: «أوه، لقد فهمت. نعم، سمعت بذلك، مبروك، هذا عظيم. أتفهم أن وقتك محدود». ثم ستنتقل إلى أمور أخرى، إذ سيتطلب إليك الأمر اثني عشر يوماً لتستقر. ولكن بعد ذلك حدثتني مرة أخرى... حرصت على إيصال وجهة نظرها تماماً. لم أكن قد بدأت حتى وقالت: «حسناً لكن حقاً، يجب أن أغادر الساعة الثانية ظهراً، لديّ أمور كثيرة يجب عليّ القيام بها». أو شيء من هذا القبيل.

قلت في سري: «ما هذا بحق الجحيم؟»... لم أفقد أعصابي، لكنني فقدت صبري. «اسمعي يا آنا. لديّ سبب يدفعني للاشتباه بتورطك في عملية تجسس. علينا الجلوس والتحدث عن الموضوع». هكذا واجهتها بالموضوع.

آنذاك، كانت مونتيس تتجسس لصالح كوبا منذ اليوم الأول لعملها في الإدارة. لقد قابلت معاونيها 300 مرة على الأقل، وباحت بكثير من الأسرار لذلك صُنفت بكونها واحدة من أخطر الجواسيس في تاريخ الولايات المتحدة. لقد سافرت إلى كوبا سراً في عدة مناسبات. بعد إلقاء القبض عليها، تبين أن فيدل كاسترو شخصياً منحها ميدالية. خلال كل ذلك، لم تكن هناك حتى نفحة من الشك. وفجأة، فيما اعتقدت أنه فحص روتيني عن الخلفية، كان كريس

ما لي ذو المظهر المضحك يشير بإصبعه إلى وجهها. جلست هناك مصدومة تماماً.

«حدّقت إليّ كالغزال المرتجف، تنتظر مني أن أنطق بكلمة أخرى، تنتظر فحسب».

عندما تذكر كارمايكل ذلك الاجتماع بعد مرور عدة سنوات، ادرك أن ذلك هو الدليل الذي فاته: لم يكن رد فعلها منطقياً.

لم ألحظ أبداً تعابير وجهها، وأنها لم تقل أبداً «عمّ تتحدث؟». لا شيء من هذا القبيل. لم تنبس ببنت شفة. بقيت جالسة في مكانها مستمع، لو كنت أكثر فطنة، للاحظت ذلك، لم تغضب أو تنكر أياً من هذا. إن قيل لأحد إنه مشتبه به بارتكاب جريمة قتل أو ما شابه... إذا كان بريئاً تماماً، فسيغضب للغاية ويقول: «ماذا تقصد؟ انتظر لحظة، أنت تتهمني بشيء خطير... أريد أن أعرف ما الذي يجري...». لم تفعل آنا أي شيء من هذا، بل بقيت ساكنة في مكانها.

منذ البداية، شك بها كارمايكل. لكن الشكوك لا تزعزع ثقتك إلا عندما لا تستطيع تفسيرها. وأمكنه تفسيرها بسهولة. كان لقبها «ملكة كوبا»، كيف يمكن لملكة كوبا أن تكون جاسوسة؟ قال لها هذه العبارة – «لديّ أسباب تدفعني للشك في أنك تعملين لصالح وكالة تجسس مضادة» – فقط لأنه أراد أن يأخذ الاجتماع على محمل الجد. «حرصت على الدخول في الموضوع والمباشرة بالخطوة التالية. كما قلت، كنت أحاول فحسب: لقد نجح ذلك، وأسكتها. لن أسمع المزيد من ذلك الهراء بعدها. الآن، لندخل في صلب الموضوع وننهِه». ولهذا السبب فاتني الأمر.

تحدثنا عن لقاء الأدميرال كارول. كانت لديها إجابة جيدة. تحدثنا عن سبب خروجها فجأة من البنتاغون في ذلك اليوم. وكانت لديها إجابة أيضاً. حاولت التودد إليّ بعض الشيء، وأصبحت أكثر استرخاءً. فنظرت إلى ساقيها مجدداً.

شبكت آنا ساقيها، وظلّت تحرك أصابعها. لا أعلم ما إذا كان ذلك مقصوداً... ولكن ما أعرفه هو أن ذلك يجذب الانتباه.. تصرفنا براحة أكثر مع بعضنا، وبدأت تتودد إليّ أكثر؟ تودد؟ لستُ واثقاً من ذلك، ولكن في بعض الأحيان أصبحت ردود فعلها في غاية اللطف.

تحدثنا عن المكالمة الهاتفية. أنكرت تلقي مكالمة هاتفية، أو على الأقل لم تتذكر تلقي مكالمة. كان ينبغي أن يكون ذلك نذير خطر آخر: يتذكر الأشخاص الذين كانوا معها في ذلك اليوم في غرفة العمليات بوضوح تلقيها لمكالمة هاتفية. ولكنه كان يوماً طويلاً ومجهداً. وكان الجميع مشغولين بحل أزمة دولية. ربما خلطوا بينها وبين شخص آخر.

كان هناك شيء آخر - لحظة أخرى عندما لاحظ كارمايكل رد فعلها حول أمر ما فأخذ يتساءل. عندما شارفت المقابلة على الانتهاء، طرح كارمايكل سلسلة من الأسئلة على مونتيس حول ما حدث بعد مغادرتها البنتاغون في ذلك اليوم. كان ذلك إجراءً روتينياً. أراد فقط الحصول على صورة شاملة قدر الإمكان عن تحركاتها في تلك الليلة.

سألها عما فعلت بعد العمل. أجابت بأنها قادت سيارتها وتوجهت نحو المنزل. سألها عن الموقع الذي ركنت فيه السيارة.

أ ١٠ابت في موقف للسيارات قبالة الشارع. سألها إذا رأت أي شخص ا ٠, وهي تركن سيارتها. إن ألقت التحية على أحدهم؟ أجابت: «لا».

قلت: «حسناً، ماذا فعلتِ بعدها؟ لقد ركنت سيارتك وعبرتِ ال:.ارع»- تغير سلوكها عندما بدأت بطرح هذه الأسئلة. تذكروا أنني :. ـت قد تحدثت إليها طيلة ساعتين متتاليتين تقريباً. وبحلول ذلك الو قت، أصبحتُ وأنا بمثابة صديقين، وسادت بعض الألفة بيننا. أصبحت مزوحة، وألقت تعليقات ساخرة بين الحين والآخر - إن صح التعبير، بشكل عفوي للغاية.

ثم تغيرت كلياً فجأة. كان ذلك جلياً، فقد توددت إليّ وقضت وقتاً ممتعاً... ثم تغيرت فجأة. كالولد الصغير الذي أمسكت به والدته ويده داخل إناء الحلوى، فخبأه وراء ظهره، وسألته أمه: «ماذا تخبئ هناك؟». كانت تنظر إليّ باستنكار... لكن علَت وجهها ملامح أخرى تقول: «ماذا تعرف؟ كيف علمتَ بذلك؟ هل ستقبض عليّ؟ لا أريد أن يُقبض عليّ».

بعد إلقاء القبض عليها، اكتشف المحققون ما حدث بالفعل تلك الليلة. كان هنالك ترتيب مسبق بينها وبين الكوبيين: إذا رصدت يوماً أحد معاونيها القدامى في الشارع، فهذا يعني أن رؤساءها بحاجة ملحة إلى التحدث إليها شخصياً. استمرت في المشي وقابلتهم في صباح اليوم التالي في موقع متفق عليه مسبقاً. في تلك الليلة، عندما ذهبت إلى منزلها بعد خروجها من البنتاغون، رأت أحد معاونيها القدامى يقف بجانب شقتها. لذلك عندما سألها كارمايكل، بصراحة، «من الذي رأيته؟ هل رأيت أحداً في طريق عودتك إلى المنزل؟». اعتقدت

أنه يعلم بخصوص الترتيب فظنت أن أمرها قد كُشف.

كانت خائفة حتى الموت. ظنت أنني قد اكتشفت أمرها، ولكن ذلك لم يكن صحيحاً. لم تكن لديّ أية فكرة. لم أعرف مدى خطورة المعلومات التي أتعامل معها، لكني علمت أنني أمسكت بطرف خيط. علمت أن هناك خطباً ما. أعود الآن في ذاكرتي إلى الوراء وأتذكر ما بعد المقابلة... ماذا فعلتْ؟ فعلتْ الشيء نفسَه الذي قد يفعله أي إنسان.... بررتْ كل شيء.

فكرت في سري، حسناً، ربما كانت تواعد رجلاً متزوجاً... ولم تُرد إخباري. أو ربما كانت غير طبيعية وتقيم علاقة مع صديقة لها ولم تُرد أن نعرف شيئاً عنها، وشعرت بالقلق حيال ذلك. بدأت أفكر في كل هذه الاحتمالات الأخرى وصدقتها. لقد قبلتُ تبريراتي للموضوع كي أتوقف عن الشك والتخمين.

لم تكن آنا مونتيس جاسوسة محترفة، ولم تحتج إلى ذلك. لأنه في عالمنا هذا نميل إلى التصديق أكثر من التشكيك، الأمر الذي يسهّل على الجاسوس عمله. هل كان سكوت كارمايكل مهملاً بطريقة أو بأخرى؟ أبداً. لقد تصرف بما تنبأت به نظرية افتراض الحقيقة، وهذا ما سيفعله أي منا: لقد افترض أن آنا مونتيس تقول الحقيقة، ومن دون أن يدرك تصرفَ على هذا الأساس. نحتاج إلى حافز ليحرضنا ويُخرجنا من حالة افتراض الحقيقة، ولكن يجب أن تكون آلية التحفيز لدينا عالية. لم يصل كارمايكل وقتهَا إلى تلك المرحلة.

يناقش ليفين في هذه النقطة، في الحقيقة لا يعمل معيار كشف الكذب - ولا يمكنه أن يعمل- بالطريقة التي نتوقع أن يعمل بها. في

الأفلام، يواجه المحقق المتميز المتهم، ويمسكه في اللحظة نفسها ،... ب كذبة. ولكن في الحياة الواقعية، يستغرق تجميع كمية كافية من الأدلة للتغلب على شكوكنا وقتاً طويلاً. فقد تسألين زوجك إن كان ... نك، وسيجيبك بـ «لا»، وسوف تصدقينه. لأنكِ سوف تفترضين أ.ه يقول الحقيقة. حتى لو كانت هناك بعض التناقضات الصغيرة في ...ته، فسوف تبررينها. لكن بعد مرور ثلاثة أشهر، سوف تلاحظين ، ..ود رسوم حجز فندق إضافية على فاتورة بطاقة الائتمان الخاصة ، ه، وسيدفعك مزيج من غيابه غير المبرَّر خلال كل تلك الأسابيع ، ىلقيه للمكالمات الهاتفية الغامضة للشك به. هذه هي الطريقة التي نكشف بها الأكاذيب.

هذا هو تفسير الألغاز الأولية، لماذا تمكن الكوبيون من الوصول إلى معلومات خاصة بوكالة الاستخبارات المركزية لفترة طويلة بهذه البساطة؟ لا تتعلق القصة بتوجيه الاتهامات أو التساؤل حول كفاءة الوكالة. بل تعكس فقط حقيقة أن عناصر وكالة الاستخبارات المركزية هم بشر مثلنا - ولديهم النزعة نفسها للانحراف نحو التصديق بدلاً من التشكيك، مثلنا جميعاً.

عاد كارمايكل إلى ريج براون وحاول أن يفسر له.

قلت: «ريج، أدرك كيف يبدو الموضوع بالنسبة إليك، وأتفهم الأسباب التي تدفعك للشك بأن هذه عملية تأثير متعمدة. فهذا ما يبدو الأمر عليه. ولكن إذا كان الأمر كذلك، لا يمكنني توجيه أصابع الاتهام إليها والقول إنها جزء من عملية متعمدة. ذلك غير منطقي البتة... وفي نهاية اليوم، وجب عليّ إغلاق القضية».

6

بعد أربع سنوات من مقابلة سكوت كارمايكل لآنا مونتيس، التقى أحد زملائه في وكالة الاستخبارات المركزية بمحلل من وكالة الأمن القومي خلال اجتماع مشترك بين الوكالات. وكالة الأمن القومي هي الطرف الثالث لشبكة الاستخبارات الأميركية، إلى جانب وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الاستخبارات العسكرية. أولئك هم محللو الشيفرات، وقال المحلل إن وكالته حققت بعض النجاحات بواسطة الرموز التي استخدمها الكوبيون للتواصل مع عملائهم.

ملكة كوبا:

كانت الشيفرات عبارة عن صفوف طويلة من الأرقام، تُبث على فترات منتظمة عبر راديو ذي موجة قصيرة، وقد تمكنت وكالة الأمن القومي من فك شيفرة بعض المقتطفات. لقد أعطوا قائمة من المعلومات لمكتب التحقيقات الفيدرالي قبل عامين ونصف، لكنهم لم يتلقوا رداً. بدافع الإحباط، قررت محللة من وكالة الأمن القومي مشاركة بعض التفاصيل مع نظيرها من وكالة الاستخبارات العسكرية. وقالت إن الكوبيين لديهم جاسوس في واشنطن أطلقوا عليه اسم «العميل إس». كان «العميل إس» مهتماً بشيء يدعى النظام «سايف»[1]. ويبدو أن العميل إس قد زار القاعدة الأميركية في خليج غوانتانامو لأسبوعين بين 4 يوليو وإ 18 يوليو 1996.

شعر الرجل من وكالة الاستخبارات العسكرية بالقلق. فالنظام

(1) «سايف» تعني بيئة ملف محلل الأمان. أحب عندما يبدأ الناس بالاختصار ثم يفسرون الاسم الكامل

«.. ايف» هو اسم أرشيف مراسلة الكمبيوتر الداخلية التابع لوكالة الا ستخبارات العسكرية. هذا يشير بقوة إلى أن «العميل إس» هو أ . ، عناصر الوكالة، أو على الأقل لديه ارتباط وثيق بالوكالة. عاد وا خبر مشرفيه، الذين بدورهم أخبروا كارمايكل، الذي غضب بشدة. .. ل مكتب التحقيقات الفيدرالي على قضية تجسس يُحتمل أن .. ل موظفاً يعمل داخل وكالة الاستخبارات العسكرية لمدة عامين ونصف، ولم يخبروه؟ وهو المحقق المسؤول عن مكافحة التجسس في وكالة الاستخبارات العسكرية.

علم بالضبط ما كان عليه القيام به - البحث في نظام كمبيوتر وكالة الاستخبارات العسكرية. يحتاج أي موظف في وزارة الدفاع إلى الحصول على موافقة أمنية للسفر إلى خليج غوانتانامو. عليهم إرسال رسالتين عبر نظام البنتاغون، يطلبون عبره الإذن بالسفر والإذن التحدث إلى من يرغبون في إجراء مقابلة معه في القاعدة.

قال كارمايكل، «حسناً، رسالتان إذن».

لقد توقع أن أول الأشخاص الذين سافروا إلى خليج غوانتانامو في يوليو قد تقدموا بطلب للحصول على تصاريحهم في أبريل. وهكذا .ون معيار البحث الخاص به: طلبات السفر الرسمية والتصاريح الأمنية من موظفي وكالة الاستخبارات المركزية فيما يتعلق بخليج غوانتانامو المقدمة ما بين 1 أبريل و18 يوليو، 1996. وطلب إلى زميله في العمل أتور جونسون، أن يقوم بالبحث نفسه في الوقت نفسه. فعقلان مفكران أفضل من عقل واحد.

ما فعله نظام الكمبيوتر في تلك الأيام، هو إعداد ملف الزيارات.

من شأنه أن يجمع كل الرسائل إلكترونياً ويخبرك: «لقد حصلت على العدد إكس من الزيارات». يمكنني سماع غاتور هناك... يمكنني سماع صوته وهو ينقر على الحاسب وأعلم أنه لم ينتهِ من مهمة الاستعلام الموكلة إليه حتى الآن، وكان لديّ ملف الزيارات الخاص بي بالفعل، لذلك قررت المرور سريعاً على تلك الأسماء، فقط لمعرفة ما إذا كان هناك أي اسم مثير للشبهة، وحدث ذلك عندما رأيت الاسم رقم عشرين. لقد كانت آنا بي مونتيس. انتهت اللعبة، وأعني أنها انتهت بغمضة عين... لقد ذُهلت حقاً؛ تفاجأت. شعرت أني سأسقط عن كرسي من دهشتي. لقد تراجعت من مكاني حرفياً - كنت أجلس على كرسي مدولبة- وحاولت الابتعاد من مكاني حرفياً عن هذه الأخبار السيئة... لقد ظللت أتراجع حتى وصلت إلى نهاية مكتبي ولا أزال أسمع صوت غاتور وهو ينقر.

قلت: «اللعنة».

الفصل الرابع

الأحمق الأكبر

1

في نوفمبر 2003، كتب نات سيمونز، وهو مدير الحوافظ لصندوق التحوط لشركة ريناسانس تيكنولوجيز التي يقع مقرها في لونغ أيلاند، بريداً إلكترونياً إلى عدد من زملائه يعبّر فيه عن قلقه. من خلال مجموعة معقدة من الترتيبات المالية، وجدت شركة ريناسانس أن لديها حصةً في صندوق يديره مستثمر من نيويورك يدعى برنارد مادوف، مما جعل مادوف يشعر بعدم الارتياح تجاه سيمونز.

إن عملت في الأوساط المالية في نيويورك في التسعينيات وأوائل العقد الأول من القرن العشرين، فمن المحتمل أنك سمعت عن برنارد مادوف. عمل في برج وسط مدينة مانهاتن يدعى مبنى ليبستك. وكان عضواً في مجالس إدارة العديد من المؤسسات المالية المهمة. انتقل بين طبقات الأثرياء في هامبتون وبالم بيتش، وكان مجعداً أبيض الشعر، انعزالياً، ومتحفظاً. لقد جعلت الصفة الأخيرة سيمونز يشعر بعدم الراحة. لقد سمع شائعات. شخص ما قد وثق به، وكتب في رسالة البريد الإلكتروني الجماعية، «أخبرنا بثقة أنه يعتقد أن مادوف سيواجه مشاكل خطيرة في غضون عام».

وتابع: «إضافة إلى ذلك، صهره هو مدقق حساباته، ويحتل ابنه مكانة عالية في المنظمة، أضف إلى ذلك وجود بعض الادعاءات المسيئة، من تجميد حسابات وما إلى هنالك».

في اليوم التالي، كتب هنري لوفر رداً يوافقه فيه الرأي، وهو أحد كبار المسؤولين التنفيذيين في الشركة. وأضاف أن لدى شركة ريناسانس «دليلاً مستقلاً» على أن هناك شيئاً غامضاً حول مادوف. وأرفق مدير المخاطر في شركة ريناسانس، بول برودر - المسؤول عن عدم وضع أموال صندوق الشركة في أي مكان خطير - تحليلاً مفصلا طويلاً لاستراتيجية التداول التي ادعى مادوف أنه استخدمها. وخلص إلى القول: «لا يبدو أيٌ من هذا منطقياً البتة». قرر ثلاثتهم إجراء تحقيق خاص بهم. مما أدى لتعمق شكوكهم. لاحقاً قال برودر: «توصلت إلى استنتاج مفاده أننا لم نفهم ما كان يفعله. لم تكن لدينا أية فكرة عن كيفية جنيه للأموال. لم نجد توثيقاً أو دليلاً على الأرقام التي كان يجنيها في أي مكان». كانت لدى أعضاء شركة ريناسانس شكوكهم.

هل باعت شركة ريناسانس حصتها لمادوف؟ ليس تماماً. قسموا حصتهم مناصفةً. ضمنوا رهاناتهم. بعد خمس سنوات، بعد اكتشاف أن مادوف محتال - والعقل المدبر لأكبر عملية احتيال في التاريخ - جلس المحققون الفيدراليون مع نات سيمونز وطلبوا إليه توضيح السبب. أجاب سيمونز: «بما أنني المدير، لم أتصور أبداً أن يكون محتالاً». كان على استعداد للاعتراف بأنه لم يفهم ما الذي كان يخطط له مادوف، وأن مادوف كان مثيراً للشبهة نوعاً ما، لكنه لم يكن على استعداد لتصديق أنه كاذب. كانت لدى سيمونز شكوكه، ولكنها

ام بحن كافية. لذلك تخلّف عن التصديق.

تـم اكتشـاف رسـائل البريـد الإلكترونـي المتبادلة بين سـيمونز ولا، فـر خـلال التدقيـق الروتيني مـن قبـل لجنـة الأوراق الماليـة والبورصة أس إي سـي، وهي الوكالة المسـؤولة عن مراقبة ما يتعلق بصناديق التحـوط. لـم تكـن هـذه هـي المـرة الأولى التي تشـك بها لجنة الأوراق المالية والبورصة بنشـاطات مادوف. ادعى مادوف أنه يستخدم استراتيجية اسـتثمار مرتبطة بسـوق الأوراق المالية والبورصة، ما يعني أنه مثل أية اسـتراتيجية أخرى تعتمد على السـوق، يجب أن ترتفع عائداتـه وتنخفـض مع ارتفاع البورصـة وهبوطها. لكن عوائد مادوف كانت ثابتة، وذلك منافٍ للمنطق. ذات مرة، ذهب محقق من قبل لجنـة الأوراق الماليـة والبورصة اسـمه بيتر لامور لرؤية مادوف والحصول على تفسـير. كانت إجابة مادوف أنه يمكنه مبدئياً أن يتنبأ بحركة السـوق. راوده «إحسـاس داخلي» دفعه للخروج من السـوق قبل حصول هبوط مفاجئ، والعودة إلى السوق قبل ارتفاعه مباشرة. «سألته مراراً وتكراراً»، ويتذكر لامور لاحقاً:

كمـا تعلمـون، اعتقدت أن إحساسـه الداخلي كان غريباً ومريباً. ظللـت أحـاول الضغـط عليـه. اعتقدت أن هنالك شـيئاً مـا يجري... اعتقـدت أنـه كان يحصـل على نوع من المعلومات الداخلية المتعلقة بالسوق لم يحصل عليها الآخرون. لذلك ظللت أضغط عليه. سألته عنه مراراً وتكراراً. وفي مرحلة ما، لم أعد واثقاً مما عليّ فعله.

تحدث لامور عن شـكوكه مع رئيسـه، روبرت سـولازو، الذي كانـت لديه شـكوك أيضاً. ولكنهـا لم تكن بالمقدار الكافي. كما ورد

في تقرير لجنة الأوراق المالية والبورصة المتعلق بقضية مادوف: «لم يجد سولازو أن ادعاء مادوف بشأن شعوره الداخلي وحركة السوق كان بالضرورة سخيفاً». اختارت لجنة الأوراق المالية والبورصة التصديق، واستمر الاحتيال في سوق البورصة. في الواقع، اعتقد كثير من الأشخاص الذين تعاملوا مع مادوف أن هناك شيئاً مريباً حوله تجنبته عدة بنوك استثمارية، حتى السمسار العقاري الذي استأجر منه مكتبه اعتقد أنه كان مريباً بعض الشيء. لكن أحداً لم يفعل شيئاً حيال ذلك، ولم يقفز أحد إلى الاستنتاج بأنه كان يدير أعظم عملية احتيال في التاريخ. في قضية مادوف، تخلف الجميع عن الحقيقة. الجميع، عدا شخص واحد.

في أوائل فبراير 2009 - بعد مرور أكثر من شهر على تسليم مادوف نفسه للسلطات - أدلى رجل يدعى هاري ماركوبولوس بشهادته في جلسة بثها التلفزيون على المستوى الوطني أمام الكونغرس. ماركوبولوس هو محقق احتيال مستقل. ارتدى بذلة خضراء غير مناسبة لمقاسه، تحدث بلكنة شمال نيويورك، وكان مرتبكاً للغاية. لم يسمع به أحد من قبل.

«لقد بذلت أنا وفريقي قصارى جهدنا لدفع لجنة الأوراق المالية والبورصة للتحقيق وإغلاق مخطط احتيال مادوف. لقد بدأنا بإرسال تحذيرات متكررة وموثقة إلى لجنة الأوراق المالية والبورصة في مايو 2000». هذا ما أدلى به ماركوبولوس أمام جمهور هائم تماماً. قال ماركوبولوس إنه وزملاءه جمعوا مخططات ورسومات بيانية، وأداروا نماذج كومبيوتر، وتجوّلوا في أوروبا، حيث كان مادوف يجمع معظم

[illegible]: «لقد كنا متأكدين حينها من أننا زودنا اللجنة والبورصة بما [illegible] من إنذارات الخطر ودلائل بيانية على نحو يمكنهم إيقافه هناك [illegible] الاحتيال بمبلغ يفوق السبعة مليارات. عندما لم تتصرف لجنة [illegible] اق المالية والبورصات، عاد ماركوبولوس في أكتوبر 2001. ثم [illegible] أخرى في الأعوام 2005، 2007، و2008. ولم يتمكن من فعل [illegible] في كل من تلك المرات». وصف ماركوبولوس وهو يقرأ ببطء [illegible] اته سنوات الإحباط التي مرّ بها.

لقد كشفت مخطط أكبر عملية احتيال في التاريخ وقدمته إليهم، [illegible] ذلك، لم يزعجوا أنفسهم بإجراء تحقيق شامل ومناسب لأنهم [illegible] وا مشغولين بأمور أهم وذات أولوية. إذا كان مخطط الاحتيال [illegible] الغ قيمته 50 مليار دولار لا يُصنّف ضمن قائمة أولويات لجنة الأوراق المالية والبورصات، فأريد أن أعرف ما هي أولوياتهم.

كانت لدى هاري ماركوبولوس وغيره من الأشخاص شكوك حول بيرني مادوف، لم يتخلفوا عن رؤية الحقيقة. لقد رأى شخصاً غريباً على حقيقته. في منتصف الجلسة، سأل أحد أعضاء الكونغرس ماركوبولوس عن رغبته في القدوم إلى واشنطن وإدارة لجنة الأوراق المالية والبورصات. في أعقاب واحدة من أسوأ الفضائح المالية في التاريخ، شعروا أن هاري ماركوبولوس شخص يمكن أن يتعلم الجميع منه. يمثل افتراض الحقيقة مشكلة كبيرة، لأنه يسهل على الجواسيس والمحتالين القيام بعملهم.

أم هل هو كذلك؟ نأتي هنا إلى المكون الأساسي الثاني لأفكار تيم ليفين حول الخداع وافتراض الحقيقة.

2

هاري ماركوبولوس شخص نحيل الجسد وحيوي. في أواسط العمر، ولكنه يبدو أصغر سناً. إنه متحدث لبق ومحبوب، بالرغم من أنه يلقي في بعض الأحيان فكاهات غريبة. ويصف نفسه بأنه مهووس: النوع الذي يُطهّر لوحة مفاتيحه بعد أن يفتح حاسوبه النقال. وهو ما يطلق عليه بالمحلل الكمّي في سوق المال، رجل حسابات. ويقول: «بالنسبة إليّ، الرياضيات هي الحقيقة». عندما يحلل فرصة استثمارية أو شركة، فإنه يفضل عدم استيفاء أي من المبادئ بشكل شخصي؛ لا يريد أن يرتكب خطأ نيفيل تشامبرلين.

أريد أن أسمع ما يقولونه وأراه عند ظهورهم علناً، وأن أحصل على بياناتهم المالية، ثم أريد أن أحلل تلك المعلومات حسابيا باستخدام هذه التقنيات البسيطة... أريد أن أبحث عن الحقيقة. لا أريد أن أتلقى رأياً إيجابياً من أحدهم، لأن ذلك قد يؤثر سلباً على قضيتي.

نشأ ماركوبولوس في إيري، بنسلفانيا، وهو أحد المهاجرين اليونانيين. أدارت عائلته سلسلة من محلات الوجبات تحت اسم آرثر تريتشر فيش أند شيبس. ويتذكر: «اعتاد أعمامي مطاردة الأشخاص الذين تناولوا العشاء وفروا. ليمسكوهم ويجبروهم على الدفع».

رأيت والدي وهو يتشاجر مع الزبائن ويطاردهم أحياناً. رأيت الزبائن وهم يسرقون الفضيات. ليست فضيات حتى بل أدوات مائدة عادية... أتذكر أحد الأشخاص، كان ضخماً للغاية ويتناول بقايا الطعام التي تركها الزبائن الآخرون على بعض الطاولات، خاطبه

.. ب قائلاً: «لا يمكنك القيام بذلك». فأجابه الرجل: «بل يمكنني، ا م بنهوا الطعام». لذلك توجه عمي إلى الطرف الآخر من الطاولة، ا.. اك بالرجل من لحيته وأبعده من مكانه... عندها قلت في سري ..وت عمي الآن. لقد كان الرجل ضخماً للغاية. سوف يُقتل عمي. ا...ن الحظ، تدخل زبائن المطعم الآخرين. لو لم يحصل ذلك لقُتل ...ي وقتها.

إن قصة المهاجرين العاملين الاعتيادية تدور حول جرأتهم و إ...اعهم. يقول ماركوبولوس، إن تجربته المبكرة في مجال الأعمال ا جارية العائلية علّمته أن العالم مكان مظلم وخطير:

شهدت على كثير من السرقة في آرثر تريتشر. وأصبحت على ..اية بالاحتيال في سن التكوين، في سن المراهقة وأوائل العشرينيات ..ن عمري. ورأيت ما يمكن للناس القيام به، لأنه عندما تدير عملك الخاص، ستفقد خمسة إلى ستة بالمئة من إيراداتك بسبب السرقة. هـذه هي إحصائيات منظمة مشخصي الاحتيال المعتمدة. لم أكن أ مرف الإحصائيات عندما كنت صغيراً، ولم تكن تلك المنظمة .و جودة، لكنني رأيت ذلك بأم عيني، رأيت الموظفين وهم يسرقون الدجاج والقريدس ويخرجون من الباب الخلفي ليضعوه في صناديق سياراتهم.

عندما دخل هاري ماركوبولوس إلى كلية إدارة الأعمال، أعطاه أحد أساتذته العلامة التامة. لكن فحص ماركوبولوس الطريقة التي استخدمها الأستاذ لحساب الدرجات، وأدرك أنه هنالك خطأ، فهو لم يستحق علامة تامة بل أقل من ذلك. ذهب إلى الأستاذ واعترض.

عندما عمل للمرة الأولى بعد تخرجه من كلية إدارة الأعمال، عمل لدى شركة وساطة تبيع الأسهم خارج البورصة، وإحدى قواعد هذا السوق هي أنه يجب على الوسيط الإبلاغ عن أية صفقة خلال تسعين ثانية، اكتشف ماركوبولوس أن صاحب العمل الجديد ينتظر أطول من تسعين ثانية لإبلاغ رؤسائه. مما دفع ماركوبولوس لإبلاغ رؤسائه عنه. تعلمنا في صغرنا أن الجميع يكرهون الواشي، وهذا يعني أن السعي في بعض الأحيان لتحقيق ما يبدو عادلاً يأتي بتكلفة اجتماعية غير مقبولة. إذا أخبر أحدهم ماركوبولوس بذلك في طفولته، فهو لم يستمع بالتأكيد.

سمع ماركوبولوس عن مادوف للمرة الأولى في أواخر الثمانينيات. لاحظت المصارف الاستثمارية التي عمل لديها ماركوبولوس عوائد مادوف المذهلة، وأرادت المصارف أن يقلّد ماركوبولوس استراتيجية مادوف. حاول ماركوبولوس تقليدها، لكنه لم يستطع معرفة أساسيات استراتيجية مادوف. ادعى مادوف أنه يكسب المال بناءً على استراتيجية التداول بمبالغ ضخمة لما يُعرف باسم المشتقات المالية. ولكن ببساطة لم يكن هناك أي أثر لمادوف في تلك الأسواق.

يتذكر ماركوبولوس: «تداولت مبالغ ضخمة من المشتقات المالية كل عام، ولذلك كانت لديّ علاقات مع أكبر البنوك الاستثمارية التي عملت في ذلك المجال».

اتصلت بالأشخاص الذين أعرفهم في مكاتب التداول وسألتهم: «هل تتداولون مع مادوف؟» أجابوا جميعاً «لا». حسناً، إذا كنت

. ..اول مشتقات الأموال، فيجب عليك التعامل مع أكبر خمسة ..ك للتداول بحسب المبالغ التي كنت تتداولها. إن لم تسمع أكبر ..ـسة بنوك بتداولاتك ولم تشهد أياً من أعمالك، فلا بد من أنك ..ر مخططاً احتيالياً. لم يكن ذلك صعباً. وجب عليّ إجراء بعض المحالمات الهاتفية فقط.

في تلك المرحلة، كان ماركوبولوس في الموقف نفسه الذي ..امل معه الموظفون في شركة ريناسانس بعد عدة سنوات. درس الأمر، وشك فيه. لم يبدُ عمل مادوف منطقياً البتة.

الفرق بين ماركوبولوس وريناسانس، هو أن ريناسانس تثق في النظام. كان مادوف عضواً في واحد من أكثر القطاعات رقابة وتشدداً في السوق المالية. «إن كان يختلق الأمور بالفعل، ألم تكن لتقبض عليه إحدى هيئات الرقابة الحكومية؟». كما قال نات سيمونز، المدير التنفيذي لشركة ريناسانس لاحقاً: «يمكنك فقط افتراض أن أحدهم كان يولي اهتماماً».

تجدر الإشارة إلى أنه تم تأسيس ريناسانس تيكنولوجيز في الثمانينيات من قبل مجموعة من علماء الرياضيات ومفككي الشيفرات. ربما ربحت هذه الشركة أموالاً أكثر من أية شركة استثمار أخرى في التاريخ. يحمل لاوفر، المسؤول التنفيذي في ريناسانس، شهادة دكتوراه في الرياضيات من جامعة برينستون، ولجأ إليه سيمونز طالباً المشورة، وكتب كتباً ومقالات تحت عناوين مثل «المفردات ثنائية الأبعاد العادية» و«الحد الأدنى للإهليلجات الفردية». كان الموظفون في ريناسانس بارعين للغاية. من ناحية أخرى، كانوا أشبه

بالطلاب في تجربة ليفين الذين شاهدوا المرشدة وهي تغادر، ورأوا المغلف مع الإجابات على المنضدة، لكنهم لم يكتشفوا أن ذلك مجرد ادعاء.

لكن لم يثق ماركوبولوس بالنظام، وكانت لديه جميع الحقائق. بالنسبة إليه تنتشر الخيانة والغباء في كل مكان. وقال: «يثق الناس كثيراً في المنظمات الكبيرة. يثقون في شركات المحاسبة، التي يجدر بهم عدم الثقة بها أبداً لأنها لا تتمتع بالكفاءة. فهم غير أكفياء في أفضل حالاتهم، يساعدون ويحرضون على الاحتيال في باقي الأيام، ويغضون النظر عن الأمر».

وتابع كلامه: «أعتقد أن قطاع التأمين فاسد تماماً. فما من رقيب عليهم، وهم يتعاملون مع تريليونات الأصول والخصوم. أعتقد أنه ما بين 20 إلى 25 بالمئة من الشركات العامة مارست الغش في حساباتها المالية. ثم قال فجأة: «هل ترغبون في التحدث عن عملية احتيال أخرى؟». كان قد نشر للتو مذكرات واكتسب عادة التدقيق في رسوم الترخيص المستحقة. وقال إنهم أطلقوا عليهم اسم «المجنون الصيني» أولئك المحتالون الذين اعتاد التحقيق معهم، ولديهم بيانات مالية «أكثر عرضة للتصديق من ناشريه».

قال إن الحقيقة الوحيدة التي يضعها في عين الاعتبار عندما يذهب إلى مكتب الطبيب هي أن أربعين سنتاً من كل دولار من أموال الرعاية الصحية تذهب إما ضحية الاحتيال وإما الهدر.

أتأكد من أن من يتولى علاجي يعرف أنني محقق عمليات نصب واحتيال، وأخبرهم أن هناك كثيراً من الاحتيال في مجال الطب.

وأخبرهم بتلك الإحصائية. أفعل ذلك حتى لا يعبثوا معي أو مع أحد أفراد عائلتي.

ليست هناك حدود عالية في عقل ماركوبولوس قبل أن تتحول الشكوك إلى عدم تصديق. ليست لديه حدود على الإطلاق.

3

في الفولكلور الروسي هناك نموذج أولي يسمى يوروديفي أو الأحمق الأكبر. الأحمق الأكبر هو شخص غريب الأطوار اجتماعياً، ومجنون أحياناً، ولكنه بالرغم من ذلك يستطيع رؤية الحقيقة. صياغة تلك العبارة خاطئة لأن الأحمق الأكبر هو راوٍ للحقيقة لأنه منبوذ. أولئك لا يمثلون جزءاً من التسلسلات الهرمية الاجتماعية الحالية، ويمكنهم التفوه بتساؤلات حول الأمور التي يعتبرها بعضنا أمراً مسلماً به أو بحقائق غير ملائمة، في حكاية روسية، ينظر الأحمق الأكبر إلى صورة شهيرة لمريم العذراء، ويعلن أنها من عمل الشيطان. ولكن بعد ذلك يرمي أحدهم حجراً على الصورة مما يؤدي لتصدع الواجهة، وظهور وجه الشيطان من تحتها.

كل بلد لديه في ثقافته نسخة بشكل ما عن الأحمق الأكبر. في حكاية الأطفال لهانز كريستيان أندرسن الشهيرة «الملابس الجديدة للإمبراطور» يسير الملك في الشارع بما قيل له إنه زي سحري. لا يتفوه أحدهم بكلمة إلا صبي صغير، يصرخ قائلاً: «انظروا إلى الملك، إنه لا يرتدي شيئاً على الإطلاق» الولد الصغير هو الأحمق الأكبر. أخبره الخياطون الذين باعوا الملك ثيابه أنها ستكون غير مرئية لأي

شخص لا يصلح لعمله. لم يتجرأ الكبار على قول شيء، خوفا من وصفهم بعدم الكفاءة. لكن الولد الصغير لم يهتم. في عصرنا الحديث، الأقرب إلى كونهم الحمقى الكبار هم المخبرون. إنهم على استعداد للتضحية بالولاء لمؤسساتهم - وفي كثير من الحالات، دعم أقرانهم - في سبيل كشف الاحتيال والخداع.

ما يميز الأحمق الأكبر عن غيره هو إحساسه المختلف بالخداع. في الحياة الحقيقية، يذكرنا تيم ليفين بأن الأكاذيب نادرة. ويتم إطلاق تلك الأكاذيب من قبل مجموعة صغيرة من الناس. لهذا السبب لا تهمنا كثيراً حقيقة أننا رهيبون في اكتشاف الأكاذيب في الحياة الواقعية. في ظل هذه الظروف، اللجوء إلى التصديق هو أمر منطقي. إن أخبرك الموظف الذي يقف خلف المنضدة في المقهى أن إجمالي الضريبة هو 6.74 دولار، فيمكنك حساب ذلك للتأكد من الفاتورة، وتأخير الصف خلفك، وإهدار ثلاثين ثانية من وقتك أو يمكنك ببساطة افتراض أن الموظف يقول الحقيقة، لأن معظم الناس يقولون الحقيقة بشكل عام.

هذا ما فعله سكوت كارمايكل. حين واجه خيارين. قال ريج براون إن آنا مونتيس تتصرف بشكل مثير للريبة. على النقيض من ذلك، كان لآنا مونتيس تفسير بريء تماماً لأفعالها. من ناحية كان احتمال أن تكون إحدى أكثر الشخصيات البارزة في وكالة الاستخبارات العسكرية جاسوسة ضئيلاً للغاية، ومن ناحية أخرى، كان هناك احتمال أن قصة براون لا تعدو عن كونها مجرد شكوك. صدّق كارمايكل الفرص الأعلى: هذا ما نقوم به عندما نتخلف عن

رؤية الحقيقة. كذلك صدّق نات سيمونز الفرص الأعلى. كان من الممكن أن يكون مادوف العقل المدبر لأكبر عملية احتيال مالي في التاريخ، ولكن ما هي فرص حصول ذلك؟

الأحمق الأكبر هو الشخص الذي لا يفكر بهذه الطريقة. تفيد الإحصاءات أن الكاذبين والمخادعين نادرون. لكن بالنسبة إلى الأحمق الأكبر، هم في كل مكان.

نحن بحاجة إلى أولئك الحمقى الكبار في مجتمعنا، من وقت إلى آخر. لأنهم يقومون بدور القيم. لهذا السبب نتغنّى بهم. هاري ماركوبولوس هو بطل قصة مادوف. صُنعت بعض الأفلام عن المخبرين لتصور طبيعتهم. لكن الجزء الحاسم الآخر من حجة ليفين هو أننا لا نستطيع أن نكون جميعاً حمقى كبار. قد يكون ذلك كارثياً.

يجادل ليفين بأنه طيلة التطور، لم يطور البشر أبداً مهارات معقدة ودقيقة لاكتشاف الخداع لأنه لا توجد فائدة من قضاء وقتك في التدقيق في كلمات وسلوكيات من حولك. تكمن مصلحة البشر في افتراض أن الغرباء صادقون. على حد تعبيره، فإن التباين بين افتراض الحقيقة وخطر التعرض للخداع أمر مهم بالنسبة إلينا. ما نحصل عليه مقابل كوننا عرضة للكذب هو التواصل الفعال والتنسيق الاجتماعي. الفوائد كبيرة والثمن باهظ بالمقارنة. بالتأكيد، نُخدع بين الفينة والأخرى. هذه هي تكلفة دخول مجال الأعمال التجارية.

يبدو هذا قاسياً، لسهولة رؤية الأضرار التي ألحقها أشخاص

مثل آنا مونتيس وبيرني مادوف. لأننا نثق ثقة عمياء، فلا يكتشف الجواسيس، ويتجول المجرمون براحتهم، وتدمر حياة الناس. لكن بحسب رأي ليفين فإن ثمن التخلي عن تلك الاستراتيجية أعلى بكثير. إن تصرف الجميع في وول ستريت مثل هاري ماركوبولوس، سيخلو وول ستريت من عمليات الاحتيال - لكن ستصبح الأجواء مليئة بالشك والقلق وسيتدمر السوق[1].

---

(1) لكن لحظة، ألا نريد أن يكون المسؤولون عن مكافحة التجسس حمقى كبار؟ أليست هذه المهنة التي تخولك بالشك بكل من حولك بشكل منطقي؟ على الاطلاق. سبق سكوت كارمايكل إلى هذا المنصب الشهير جيمس أنغلتون، الذي أدار عمليات الاستخبارات المضادة لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، خلال العقد الأخير من الحرب الباردة. أصبح أنغلتون مقتنعاً بوجود عميل سوفياتي في منصب عالٍ داخل الوكالة. حقق مع مئة وعشرين مسؤولًا من وكالة الاستخبارات المركزية. لم يستطع العثور على أي جاسوس، وبدافع الإحباط، سرّح أنغلتون العديد من أعضاء القسم السوفياتي. تم تعيين مئات الأشخاص - المتخصصين الروس الذين لديهم معرفة وخبرة هائلة بالخصم الأميركي الرئيسي - في أماكن أخرى. انخفضت الروح المعنوية، وتوقف مسؤولو القضية عن تجنيد عملاء جدد.

في نهاية الأمر، قيّم أحد كبار مسؤولي أنغلتون التكاليف الباهظة لأكثر من عقد من جنون الشك ووصل إلى استنتاجه الآخير: إذا كنت أحد مسؤولي الاتحاد السوفياتي وأردت شل حركة وكالة الاستخبارات المركزية، فإن الطريقة الأكثر فعالية للقيام بذلك هي أن يؤدي العميل مطاردة طويلة وشاملة بحثاً عن الجاسوس. مما يعني أن العميل يجب أن يكون أنغلتون.

من هي الضحية الأخيرة وراء مطاردة جيمس أنغلتون؟ إنه جيمس أنغلتون نفسه. تم طرده من وكالة الاستخبارات المركزية في عام 1974، بعد ثلاثين سنة من الخدمة. لو تصرف سكوت كارمايكل بطريقة جيمس أنغلتون نفسها واشتبه في كون الجميع جواسيس، لكانت وكالة الاستخبارات العسكرية قد انهارت في إعصار مدمر من جنون الارتياب وانعدام الثقة مثل انقسام وكالة الاستخبارات المركزية السوفيتية.

4

في صيف عام 2002، سافر هاري ماركوبولوس إلى أوروبا. كان يبحث وزميله عن مستثمرين لمشروع استثمار جديد. التقى بمديري الأصول في باريس وجنيف وجميع عواصم أوروبا الغربية، وأدهشه ما تعلمه هناك. استثمر الجميع مع مادوف. إذا سألت أحداً في سوق البورصة في نيويورك، كنت لتعتقد أن مادوف كان عضواً محلياً في السوق، أحد مديري الأموال الذين خدموا أثرياء الساحل الشرقي. لكن ماركوبولوس أدرك أن مادوف كان يمارس عمله دولياً. وفاق حجم إمبراطوريته الاحتيالية بكثير ما تخيله ماركوبولوس.

أدرك ماركوبولوس حينها أن حياته في خطر. كان هناك عدد لا يحصى من الأشخاص الأقوياء والأثرياء الذين لديهم مصلحة عميقة في إبقاء مادوف واقفاً على قدميه وصامداً. هل هذا هو السبب في أن المحاولات المتكررة للهيئات التنظيمية باءت بالفشل؟ كان اسم ماركوبولوس معروفاً من قبل الأشخاص البارزين في هيئة الأوراق المالية والبورصات. لم يكن بآمان إلى أن يتم الكشف عن مخطط الاحتيال الأكبر في التاريخ للعلن.

قرر أن الخطوة المنطقية التالية هي التواصل مع المدعي العام في نيويورك، إليوت سبيتزر، وهو أحد المسؤولين المنتخبين القلائل الذين أظهروا اهتماماً بالتحقيق في سوق البورصة. لكن وجب عليه توخي الحذر. ينحدر سبيتزر من عائلة غنية من عائلات نيويورك. هل يمكن أنه كان يستثمر أيضاً مع مادوف؟ علم ماركوبولوس أن سبيتزر قد تواجد في بوسطن لإلقاء خطاب في مكتبة جون كينيدي. طبع

بياناتـه علـى أوراق بيضـاء، أزال جميع الدلالات التي قد تشير إليه، ووضعها في مغلف بني عادي. ثم بدافع الأمان، وضع هذا المغلف داخل مغلف بني أكبر منه. ارتدى زوجاً من القفازات، لذلك لم يكن هنالـك بصمات على المسـتندات. ارتـدى الكثير من الملابس وأكبر معطف امتلكه. لم يرد أن يتم التعرف إليه. شق طريقه إلى مكتبة جون كينيدي وجلس في مكان غير بارز. ثم في نهاية الخطاب، اقترب من المنصة محاولاً تقديم الوثائق إلى سـبيتزر شـخصياً. لكنه لم يسـتطع الاقتراب بما فيه الكفاية - فبدلاً من ذلك سلمها إلى امرأة من حزب سبيتزر، وطلب منها إيصالها إلى رئيسها.

يتذكر ماركوبولوس: «جلست هناك وبيدي الوثائق.

سأسلمها له، لكن بعد أن ينتهي من إلقاء الكلمة، أعطيتها لامرأة لتسلمها إلى إليوت سبيتزر لأنني لم أستطع الاقتراب منه. يحيط الناس به من جميع الجهات. ثم خرج من الباب الخلفي. أعتقد أنه سيذهب إلى الحمام ومن بعدها سيذهب لتناول العشاء في الغرفة المجاورة، حسـناً؟ أنا لسـت مدعواً إلى العشـاء. خرج من الباب الخلفي وتوجه نحـو سـيارة الليموزيـن في طريقه إلى المطـار للحاق بآخر رحلة إلى نيويورك... لم يستلم إليوت ملفاتي قط.

تجدر الإشـارة إلى أنه في الوقت الذي عمل فيه ماركوبولوس رئيسـاً لجمعية سـيكيوريتي أناليسـتس سوسـايتي في بوسـطن، وهي مجموعـة تجاريـة تضـم 4000 عضـو. لـم يكن مضطـراً إلى التخفي والذهـاب إلى خطاب سـبيتزر، مرتديـاً معطفاً ضخماً وبيده مجموعة من الوثائق داخل مظروفين بنيين. أمكنه فقط الاتصال بمكتب سبيتزر

مباشرة وطلب اجتماع.

سألته عن ذلك:

ماركوبولوس: أندم على هذا. أحمّل نفسي المسؤولية تماماً. كان سبيتزر الرجل المناسب للقضية. وجب عليّ الاتصال به. ربما كان ليصدقني، وربما لا. لكنني أعتقد أنه كان ليصدقني.

م غ: كنت صاحب منصب بارز. كنت...

ماركوبولوس: رئيس محللي الأمن... إن اتصل الرئيس السابق أو الرئيس الحالي... بالمدير وقال: «بحوزتي أكبر مخطط احتيال على الإطلاق. ويجري كل هذا أمام أعيننا». أعتقد أنه كان قد صدقني.

م غ: لمَ لم تفعل ذلك؟

ماركوبولوس: أنا نادم على ذلك. وكما تعلم، لا توجد عملية تحقيق مثالية، وقد ارتكبت نصيبي من الأخطاء أيضاً. كان يفترض بي المضي قدماً، لكنني لم أفعل.

يرى ماركوبولوس خطأه الآن، لكنه تأخر كثيراً. وفي خضم الأمور، لم يتمكن نفس العقل اللامع الذي اكتشف خداع مادوف من جعل الناس في مناصب المسؤولية يأخذونه على محمل الجد. هذه هي نتيجة عدم التصديق. إذا لم تتمكن من الثقة بأحدهم منذ البداية، فلن تتمكن من تشكيل علاقات اجتماعية ذات معنى.

كما كتب ليفين:

إن خُدعنا بين الفينة والأخرى فلن يقف ذلك في طريقنا، ولن يشكل خطراً على الحياة البشرية. من ناحية أخرى، التواصل الفعال له تداعيات هائلة على حياتنا.

الأمر معقد وليس مجرد عملية موازنة بسيطة.

ببساطة، كانت محاولة ماركوبولوس للتواصل في المكتبة غير فعالة. لم تكن المرأة التي أعطاها المغلف أحد مساعدي سبيتزر. بل مجرد موظفة في مكتبة جون كينيدي. لم تكن أكثر صلة بسبيتزر منه، وحتى لو كان بمقدورها فعل ذلك، ستعتبر أنه من واجبها حماية شخصية عامة مثل سبيتزر من رجال غامضين يرتدون معاطف كبيرة ويمسكون بمغلفات بنية اللون بأيديهم.

5

بعد إخفاق محاولاته مع هيئة الأوراق المالية والبورصات، بدأ ماركوبولوس بحمل مسدس سميث أند ويسون. ذهب لرؤية رئيس الشرطة المحلية في إحدى بلدات ماساتشوستس الصغيرة حيث كان يعيش. أخبره ماركوبولوس عن نشاطاته ضد مادوف، وأن حياته في خطر، لكنه توسل إليه ألا يكتب هذه الحقيقة في سجل الشرطة. سأله رئيس قسم الشرطة عن رغبته في ارتداء درع واقٍ. رفض ماركوبولوس، فهو أمضى سبعة عشر عاماً في الجيش وعرف بعض التكتيكات المميتة. وقال إن قاتليه سيكونون محترفين وسيطلقون النار على رأسه مباشرة. لذلك فإن درع الجسد عديم الفائدة. ركّب ماركوبولوس نظام إنذار متطوراً في منزله، وبدّل الأقفال، وحرص على اتخاذ طريق مختلف إلى المنزل كل ليلة، وتحقق من مرآة الرؤية الخلفية كي لا يتتبعه أحد.

عندما سلّم مادوف نفسه، اعتقد ماركوبولوس أنه أصبح آمناً.

لكنه أدرك أنه استبدل بالخطر خطراً آخر. ألن تسعى هيئة الأوراق المالية والبورصات وراء ملفاته الآن؟ ففي نهاية الأمر، كان لديه مجموع سنوات من الأدلة الموثقة بدقة على عدم كفاءتهم وتواطئهم الإجرامي. واستنتج أنهم إذا جاؤوا للقضاء عليه، فإن أمله الوحيد هو المماطلة لأطول فترة ممكنة، حتى يتمكن من الحصول على المساعدة. جهّز بندقية، ووضع في جعبته عشرين طلقة إضافية. ثم أخرج قناع الغاز الذي يعود إلى أيام خدمته في الجيش. ماذا لو استخدموا الغاز المسيل للدموع؟ جلس في المنزل، والبندقية جاهزة بيده - في حين تابعنا نحن حياتنا بهدوء.

الفصل الخامس

دراسة حالة : الفتى في الحمام

1

المدعي العام: حين كنت مساعداً للمدرب في العام 2001، هل حصل شيء غريب في تلك الفترة؟

ماكويري: نعم.

المدعي العام: أيمكنك أن تخبر هيئة المحلفين عن تلك الحادثة؟

21 مارس 2017، محكمة مقاطعة داوفين في هاريسبورغ بنسلفانيا. الشاهد هو مايكل ماكويري، لاعب الوسط الذي أصبح مساعداً لمدرب كرة القدم في جامعة ولاية بنسلفانيا: ضخم، واثق من نفسه، حليق الرأس. كانت المحققة معه هي نائب المدعي العام لولاية بنسلفانيا، لورا ديكتا.

ماكويري: ذات ليلة، ذهبت إلى مبنى كرة القدم – مبنى لاش لكرة القدم – وتابعت طريقي إلى إحدى غرف تبديل الملابس. سمعت صوت مياه منبعثاً من الحمامات، وصوت لطم، فدخلت ممراً آخر كان مفتوحاً، كانت خزانتي جهة اليمين في ممر الخزائن. استدرت نحو خزانتي، وبالطبع عرفت أن أحداً ما كان يستحم هنالك. لقد نبهني صوت إلى أن شيئاً ما يحصل في الحمام.

في تلك اللحظة، قاطعته ديكتا. كم كانت الساعة عندها؟

ماكويري: 8:30 مساء يوم الجمعة. تلك الزاوية من الحرَم الجامعي هادئة. مبنى لاش مهجور بالكامل. والأبواب مقفلة.

ديكتا: حسناً، عذراً على المقاطعة. أريد طرح سؤال ثانٍ عليك. وصفت صوتاً مثل اللطم، مثل صوت التصفيق. أنت لا تتحدث عن التصفيق مثل تصفيق الأيدي؟

ماكويري: لا، لا.

ديكتا: أنت تتحدث عن نوع آخر من الأصوات؟

ماكويري: صحيح.

قال ماكويري إنه نظر من فوق كتفه إلى مرآة على الجدار، ما أتاح له إمكانية الرؤية، بزاوية معينة في الحمام. رأى رجلاً عارياً، يقف خلف ما دعاه «بفتى قاصر».

ديكتا: تمكنت من رؤية، ما تقول عنه إنه فتى قاصر.

هل نحن نتكلم عن أحد بعمر السابعة عشرة أو السادسة عشرة، أم أحد ما بدا أصغر سناً؟

ماكويري: أوه، أصغر سناً.

ديكتا: حسناً، كم تقدر عمر الفتى الذي رأيته؟

ماكويري: يتراوح بين عشر واثنتي عشرة سنة.

ديكتا: حسناً. هل كانا يرتديان ملابسهما أم عاريين؟

ماكويري: لا يرتديان شيئاً. عاريان.

ديكتا: هل رأيت أية حركة؟

ماكويري: حركة بطيئة جداً. يمكنكِ القول لا حركة تقريباً.

ديكتا: حسناً. الحركة البطيئة التي رأيتها، ما نوعها؟ ما الذي كان يتحرك؟

ماكويري: كان جيري خلف الفتى، ملتصقاً به.

ديكتا: الجلد على الجلد؟

ماكويري: نعم تماماً.

ديكتا: المعدة على الظهر؟

ماكويري: نعم.

جيري الذي ذكره ماكويري كان جيري ساندوسكي. كان ساندوسكي شخصاً محبوباً في ولاية بنسلفانيا التي تعشق كرة القدم، وكان ماكويري يعرفه منذ سنوات.

ركض ماكويري إلى الأعلى، واتصل بوالديه. قال والد ماكويري للمحكمة بعد أن أنهى ابنه الإدلاء بشهادته «إنه طويل ورجل قوي البنية، وليس جباناً، لكن معنوياته لم تكن في أحسن أحوالها بشكل جلي، لم يكن صوته كما كان في العادة. لدرجة أن أمه أدركت ذلك على الهاتف من دون أن تراه حتى. وقالت: هنالك خطب ما يا جون».

بعد أن رأى «ماكويري» «ساندوسكي» في الحمام في فبراير عام 2001، ذهب لرؤية رئيسه، جو باتيرنو، المدرب الرئيس الأسطوري لفريق كرة القدم في ولاية بنسلفانيا.

ديكتا: هل فسّرت له أن جيري ساندوسكي كان عارياً في الحمام؟

ماكويري: نعم بالطبع.

ديكتا: وهل فسّرت له عن التلامس الجسدي مع الفتى؟

ماكويري: أعتقد ذلك، نعم سيدتي.

ديكتا: وهل فسرّت له أنك سمعت أصوات التلاطم؟

ماكويري: نعم.

ديكتا: حسناً. ماذا كان ردّ فعله؟ كيف تصرف؟

ماكويري: فوجئ. جلس فقط في كرسيه، ووضع يديه على وجهه، وغمر الحزن عينيه.

بدوره أخبر باتيرنو رئيسه، المدير الرياضي في ولاية بنسلفانيا، تيم كورلي، الذي أخبر بدوره أحد كبار الإداريين الآخرين في الجامعة غاري شولز الذي أخبر بدوره رئيس المدرسة، غراهام سبانير. بعدها جرى تحقيق. في اللحظة المناسبة، أُلقيَ القبض على ساندوسكي، وخلال محاكمته، ظهرت قصة غريبة. اعترف ثمانية شبان يافعين أن ساندوسكي تحرش بهم مئات المرات طيلة أعوام، في غرف الفنادق وفي حمامات غرف تبديل الملابس، وحتى في قبو منزله خلال وجود زوجته في الطابق العلوي. أُدين ساندوسكي بخمس وأربعين حالة تحرش بالأولاد. دفعت ولاية بنسلفانيا مئة مليون دولار في التسويات لضحاياه.[1] أصبح، بحسب عنوان أحد الكتب التي كتبت عن القضية: «أكثر رجل مكروه في أميركا».

لكن الحقيقة الأكثر روعة بخصوص قضية ساندوسكي كانت الجملة «في الوقت المناسب». رأى ماكويري ساندوسكي في الحمام

---

(1) في ذلك الوقت، كان ذلك رقماً قياسياً بالنسبة إلى جامعة أمريكية في قضية تحرش جنسي. تم كسر ذلك الرقم القياسي في قضية لاري ناسار في جامعة ولاية ميشيغان، فقد وصلت تعويضات الأضرار التي دفعتها الجامعة إلى 500 مليون دولار.

في العام 2001. ولكن التحقيق في سلوك ساندوسكي لم يبدأ إلا بعد مدة من الزمن، ولم يُلقَ القبض عليه قبل نوفمبر من العام 2011. لماذا استغرق الأمر كل هذا الوقت؟ بعد أن دخل ساندوسكي السجن، سلط الضوء على قيادة جامعة ولاية بنسلفانيا. استقال جو باتيرنو، مدرب كرة القدم في الجامعة، مكللاً بالخزي، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يتوفى، وتمت إزالة تمثال له كان قد وُضع قبل بضعة أعوام. أما تيم كورلي وغاري شولز، الإداريان الكبيران في الجماعة اللذان أخبرهما ماكويري، اتُّهما بالتآمر وبإعاقة العدالة، والفشل في الإعلان عن قضية تحرش بالأولاد.[1] وأودعا السجن. في نهاية الفضيحة، وفي خاتمة مدمرة، التفت المدعون القضائيون إلى رئيس الجامعة، غراهام سبانير. كان قد تولى رئاسة الجامعة منذ ست عشرة سنة وبدّل من سمعتها الأكاديمية. كان محبوباً. في نوفمبر من عام 2011، طُرد، وبعد ستة أعوام، اتهم بتعريض الأولاد للخطر.[2]

في خضم حالة الجدل، أجرى ساندوسكي مقابلة مع المذيع بوب كوستاس من قناة إن بي سي الرياضية.

كوستاس: أنت تدّعي أنك لست متحرشاً بالأولاد.

ساندوسكي: صحيح.

---

(1) تضمنت التهم أيضاً شهادة زور (التي أُسقطت على الفور) وتعريض أولاد للخطر. في النهاية اعترف الرّجلان بأنهما مذنبان فقط بتهمة «تعريض أولاد لخطر» لكي يتم إسقاط كل التهم الأخرى.

(2) في الوقت الذي كان فيه هذا الكتاب تحت الطبع، أسقط القاضي الفيدرالي تهمة سبانير في اليوم السابق لنقله إلى السجن. ليست لديّ معلومات إن كان المحامي العام سيستأنف الحكم أم لا.

كوستاس: ولكنك رجل استحم مع أولاد صغار. وهذا أمر غير مناسب على الإطلاق... هنالك تقارير عدة تفيد بأنك كنت في الفراش مع فتية صغار أقاموا في قبو منزلك. كيف ترد على هذه التقارير؟ وإن لم تكن متحرشاً بالأولاد، فماذا تكون؟

ساندوسكي: حسناً، أنا شخص لديه اهتمام كبير... أنا شغوف جداً فيما يخص إحداث فرق في حياة بعض الشباب. عملت بجد لكي أتواصل معهم...

كوستاس: ولكن أليس ما تصفه هو صفات للعديد من المتحرشين بالأولاد؟...

ساندوسكي: حسناً – هذا ما تظنه، لا أدري.

يضحك ساندوسكي بتوتر، ويبدأ بتفسير دفاعي مطول ومن ثم

كوستاس: هل أنت منجذب جنسياً إلى الأولاد الصغار – الأولاد القاصرين؟

ساندوسكي: هل أنا منجذب جنسياً إلى الأولاد القاصرين؟!

وقفة.

كوستاس: نعم.

وقفة أخرى.

ساندوسكي: منجذب جنسياً، كما تعلم، أنا - أنا أستمتع برفقة الأولاد. أحب – أحب أن أكون حولهم. ولكن لا، لست منجذباً جنسياً إلى الأولاد الصغار.

ترك غراهام سبانير ذاك الرجل يحوم حراً في حرم جامعة بنسلفانيا.

لكن سؤالي هو، في ضوء آنا مونتيس وبيرني مادوف وهاري ..ر دوبولوس وكل جزء من الأدلة التي وجدها تيم ليفين حول كم ..ن الصعب بالنسبة إلينا أن نتغلب على الحقيقة التي اعتدنا عليها: ..ل تعتقد إن كنت رئيس جامعة ولاية بنسلفانيا، وواجهتك مجموعة ..فانع والأسئلة نفسها، أنك كنت ستتصرف بشكل مختلف؟

2

ترعرع جيري ساندوسكي في واشنطن بنسلفانيا. ترأس والده ..ز الترفيه المجتمعي المحلي، الذي كان ينظم نشاطات رياضية ..لأولاد. عاشت عائلة ساندوسكي في الطابق العلوي، وكان منزلهم ..نا بمضارب البيسبول وكرات السلة والقدم، وكان هنالك أولاد في ..ل مكان. عندما أصبح ساندوسكي بالغاً، أعاد صنع عالم طفولته. أطلق ابن ساندوسكي إي جاي ذات مرة على أبيه لقب «رئيس ..روضة المحبط». فقد نظّم ساندوسكي مباريات كرة القدم في الفناء الخلفي وكما قال إي جاي: «كان والدي يدعو كل الأولاد. كنا نقيم ..ن ألعاب كرة القدم في الولايات المتحدة. ألعاب كرة القدم كانت ..مل أربعين ولداً». تبنى ساندوسكي وزوجته دوتي ستة أولاد، وكانا ..ين كفيلين لعدد غيرهم. «لقد اعتنيا بكثير من الأولاد المكفولين ..جة أن أصدقاءنا المقربين لم يعودوا يحفظونهم جميعاً». كما ..ب جو بوسنانسكي في سيرة ذاتية لجو باتيرنو، رئيس ساندوسكي. ..ان الأولاد يحيطون بساندوسكي لدرجة أنهم أصبحوا جزءاً من شخصيته».

كان ساندوسكي مضحكاً ومهرجاً. كتب ساندوسكي معظم سيرته الذاتية بقلمه التي عنونها بعنوان مثير للسخرية «ملموس»، التي خصصها للحديث عن قصص طفولته: مثل المرة التي وضع فيها فحماً على سماعات مدرس الكيمياء، والمرة التي سخر فيها من المنقذ مع أولاده في مسبح عمومي. لقد كرس أربع صفحات ونصف لألعاب بالونات المياه التي نظّمها عندما كان في الجامعة. كتب ساندوسكي: «أينما ذهبت، بدا الأمر وكأن المشاكل ستلحق بي. أعيش جزءاً كبيراً من حياتي في عالم خيالي. استمتعت بالتظاهر حين كنت ولداً، ولا أزال أحب القيام بالأمر ذاته وأنا بالغ مع هؤلاء الأولاد. لطالما كان التظاهر جزءاً مني».

في العام 1977، أسس ساندوسكي جمعية خيرية باسم «سيكوند مايل»، وكانت عبارة عن برنامج ترفيهي للأولاد المضطربين. على مدى السنوات، مر بهذا البرنامج آلاف الأولاد من المنازل الفقيرة والمضطربة في المنطقة. كان ساندوسكي يأخذ أولاد الجمعية إلى مباريات كرة القدم، ويتصارع معهم. ويعطيهم الهدايا، ويكتب لهم الرسائل، ويأخذهم في رحلات، ويجلبهم إلى منزله. عدد كبير من هؤلاء الأولاد كانت تربيهم أمهات عازبات. حاول أن يكون الأب الذي لم يحظوا به، وكما كتب أحد صحفيي مجلة سبورتس إلوستريتد بعد تقاعد ساندوسكي من تدريب فريق كرة القدم في جامعة بنسلفانيا: «لو لم يكن ساندوسكي يملك جانباً بشرياً كهذا، لكان سكان ولاية بنسلفانيا سيمجدونه».

نذكر هنا، من الحقبة ذاتها، جزءاً من مقالة لمجلة فيلادلفيا

إمحو ايرر:

حيثما التقيته، ومهما كان الإطراء الذي تقوله له بسيطاً، كان ،،رد وجهه وترتسم على شفتيه ابتسامة تنم عن تواضع وحنان، لم ...ع من عمله الخيري وراء الشهرة. يلعب فريقه خططه أمام الملايين، لكن حين يفتح بابه ويدعو ولداً تائهاً آخر، لا يكون هنالك جمهور .:اهد. الجانب النبيل من الرجل هو أنه اختار العمل الذي يؤديه من دون ملاحظة العامة.

ظهرت أولى التساؤلات عن أساليب ساندوسكي في العام ١٩٩٨. أتى أحد أولاد جمعية سيكوند مايل إلى المنزل بعد قضاء يوم مع ساندوسكي، لاحظت والدته أن شعره كان مبللاً. قال الولد إنه أدى التمارين الرياضية مع ساندوسكي، ثم استحما معاً في غرفة تبديل الملابس. قال الولد إن ساندوسكي عانقه بذراعيه وقال: «سأعصرك بقوة». ثم حمله ليزيل الصابون من شعره. وكانت رِجلا الولد تلامسان فخذي ساندوسكي[1].

أخبرت الأم أليشيا تشيمبرز، طبيبة ولدها النفسية عما حصل، ولكنها لم تكن متأكدة مما عليها فعله إزاء الحادثة.

سألت تشيمبرز: «هل أنا أبالغ بردة فعلي؟». أما ابنها فلم يرَ ما هو خاطئ. لقد قال إنه أكثر ولد محظوظ في العالم. لأنه عندما

(1) لم يكن هذا غير عادي بالنسبة إلى ساندوسكي. كان يستحم دوماً بعد التمارين مع أولاد جمعية سيكوند مايل، وكان يحب لعب الألعاب في غرف تبديل الملابس. اعترف أحد أفراد جمعية سيكوند مايل السابقين في محاكمة ساندوسكي: «ما حصل هو أن اللعب أدى إلى بدء معارك الصابون. كانت هنالك معدات توزيع صابون بجانب كل واحد من الحمامات، وكان يعبئ يده ويرمي الصابون علينا».

يكون بصحبة ساندوسكي يتسنى له الجلوس على المقاعد الجانبية في مباريات كرة القدم في ولاية بنسلفانيا.

تم إغلاق القضية.

الحادثة التالية التي أُبلغ عنها حصلت بعد عشر سنوات، وكانت بخصوص فتى يدعى أرون فيشر، أحد أولاد جمعية سيكوند مايل منذ الصف الرابع. أتى فيشر من منزل مضطرب، وتعرف إلى ساندوسكي بشكلٍ مقرب، وأمضى عدة ليالٍ في منزله. لقد وصفت والدته ساندوسكي «بالملاك من نوع آخر». لكن في نوفمبر من عام 2008، حين كان في الخامسة عشرة من العمر، ذكر فيشر أمام والدته أنه يشعر بالغرابة اتجاه سلوكيات ساندوسكي. كان ساندوسكي يمسكه بقوة ويطقطق ظهره. وكان يتعارك معه بطريقة بدت غريبة.

أُحيل فيشر إلى طبيب نفسي خاص بالأولاد يُدعى مايك غيلوم، وهو أحد المؤمنين بفكرة أن ضحايا التحرش الجنسي أحياناً ما يدفنون تجاربهم في مكان عميق لدرجة لا يمكن استردادها إلا مع العناية المفرطة والصبر. كان مقتنعاً بأن ساندوسكي تحرش جنسيا بفيشر، ولكن فيشر لم يكن قادراً على تذكر الحادثة. التقى فيشر طبيبه بشكل متكرر، وأحياناً بشكل يومي، على مدى أشهر، وكان غيلوم يشجع فيشر ويساعده. كما يقول أحد محققي الشرطة الذين كانوا جزءاً من القضية لاحقاً: «تطلب الأمر أشهراً حتى بدأ الفتى بالتحدث بعد أن انتبهنا للقضية. أولاً كان الأمر 'نعم، كان يفرك كتفي' ثم تطلب الأمر كثيراً من التكرار حتى وصلنا إلى مرحلة تمكن فيها من إخبارنا بما حصل». بحلول شهر مارس من العام 2009، كان فيشر يومي

.أسه للإجابة عن سؤال إذا ما كان قد مارس الجنس الفموي مع ..وسكي. أخيراً، وبحلول شهر يونيو، تمكن من الإجابة بنعم.

هناك إدانتان بحق ساندوسكي على مدى عقد من الزمن. ولكن ام تؤد أي منهما إلى اعتقاله. لماذا؟ مجدداً، بسبب افتراض البراءة.

هل وصل الشك والاشتباهات إلى مستوى لم يعد من الممكن ..يره في حالة عام 1998 والولد في الحمام؟ لا أبداً. كتب الطبيب ا.فسي للفتى تقريراً حول القضية ذكر فيه أن سلوك ساندوسكي .طبق عليه على الأرجح تعريف متحرش بالأولاد الذي يبني الثقة .قدم بشكل تدريجي على لمس الجسد، بسياق علاقة «محبة مميزة». : م عُيّن عامل اجتماعي في القضية من قبل إدارة الرعاية العامة في ..اريسبيرغ وأخذ يحقق، وكان أقل يقيناً من الطبيب. أعتقد أن الحادثة ..ع في مجال رمادي إن كنا نتحدث عن صعوبة في تحديد إلى أي .ن المنطقتين ينتمي السوداء أو البيضاء. أما التقرير الثاني الذي كتبه .ون سيزوك، فاستنتج فيه: «لا يبدو أن هناك ما يمكن وصفه بتحرش .نسي، ولا يبدو أن هنالك أي نمط متتابع، ومنطقي، وسلوكي .وافق عادة مع البالغين الذين يواجهون صعوبة مع التحرش الجنسي .الأولاد». لم يرَ سيزوك الأمر أبداً. قال إنه يجب على أحدهم التكلم . ع ساندوسكي حول كيفية «البقاء خارج المناطق الرمادية تلك في ا.مستقبل».

التقى العامل الاجتماعي وأحد محققي الشرطة المحليين .ساندوسكي. أخبرهما ساندوسكي أنه عانق الفتى ولكن «لم يكن .ناقاً بدافع جنسي». اعترف بأنه استحم مع فتية آخرين في الماضي.

وقال: «أقسم بالله، لم يحصل شيء». وتذكروا، إن الفتى نفى حصول أي شيء. حسناً ماذا نفعل؟ نفترض البراءة.

كانت قصة أرون فيشر غامضة أيضاً[1]. ما تذكره فيشر، خلال كل تلك المحادثات مع طبيبه النفسي وخلال الجلسات مع هيئة المحلفين الكبرى، لم يكن ذاته في كل جلسة. ففي إحدى الجلسات قال إن الجنس الفموي توقف في نوفمبر من العام 2007، ثم قال في جلسة أخرى إنه بدأ في صيف العام 2007 واستمر حتى سبتمبر من العام 2008، إلا أنه عاد وقال إنه بدأ عام 2008 واستمر حتى العام 2009. وقال إنه مارس الجنس الفموي مع ساندوسكي عدة مرات، لكنه بعد أسبوع غيّر أقواله وذكر إنه مارس ذلك مرة واحدة، لكنه عاد بعد خمسة أشهر وأنكر حصول ذلك بالمطلق. شهد فيشر على قضية ساندوسكي أمام هيئة محلفين كبرى مرتين في العام 2009، ولكن يبدو أن هذه الهيئة الكبرى لم تصدقه. ورفضت اتهام ساندوسكي.

بعد ذلك، بدأت الشرطة تجري مقابلات منتظمة مع أولاد آخرين كانوا في برنامج جمعية سيكوند مايل، بحثاً عن ضحايا غير معلن عنهم. ولكن الشرطة لم تعثر على أحد. ظلت الشرطة تجري مقابلات طيلة سنتين، وأوشك المدعي الذي يتولى القضية على رميها في القمامة. فهناك رجل بالغ يحب اللهو مع الأولاد الصغار، وشك به بعض الناس،

---

(1) فكرة أن الذكريات الصادمة مقموعة ويمكن استردادها فقط بتوجيه من الطب النفسي هي -على الأقل- مثيرة للجدل. اقرأ الملاحظات لتجد مناقشات إضافية حول هذا.

وا،ن مهلاً الشكوك ليست عدوة التصديق؛ بل هي رفيقته.

فجأة في نوفمبر من العام 2010، استلم مكتب المدعي العام ر ،ا إلكترونياً مجهول المصدر ذكر: «أنا أتواصل معكم بخصوص م ،ي ساندوسكي. إن لم تفعلوا ذلك بعد، عليكم التواصل مع المدرب المساعد لفريق ولاية بنسلفانيا مايك ماكويري وإجراء مقابلة معه. قد يكون شهد على شيءٍ ما يخص ساندوسكي وأحد الأولاد».

بعيداً عن المراهقين المضطربين الذين يملكون ذكريات مشوشة. أخيرا، ومع ظهور مايكل ماكويري، أصبح لدى الادعاء الوسيلة المناسبة ليبنوا ادعاءهم عليها ضد ساندوسكي وإدارة الجامعة. يشهد رجل على حالة اغتصاب، ويخبر رئيسه، ولا يحصل شيء طيلة أحد عشر عاماً. لو قرأت عن قضية ساندوسكي في تلك الفترة، لكنت سمعت هذه النسخة من القصة، مجردة من الغموض والشك.

قالت المدعية العامة لورا ديكتا في مرافعتها الختامية في محاكمة سبانير: «كما تعلمون، هنالك قول مأثور مفاده أن السلطة المطلقة تُفسد بالتأكيد، ودعوني أقول إن غراهام سبانير كان مخرباً بسبب سلطته المطلقة، لقد أعمى سعيه للحفاظ على سمعته بصيرتَه؛ لقد كان قائداً، ولكنه فشل في القيادة». أخيراً، توصلوا في بنسلفانيا إلى نتيجة مفادها أن جرائم ساندوسكي يمكن أن يُلام عليها رأس الهرم القيادي. تقول ديكتا لقد قرر سبانير: «ببساطة أن يبقي الأمر سراً» هذا ما تخيلته يقول لكورلي وشولز: «لن نبلغ عن ذلك ولن نخبر أية سلطات بالأمر». لكن لسوء الحظ، الأمور لا تكون دائماً بهذه البساطة.

3

يبلغ طول مايكل ماكويري خمسة أقدام وخمسة إنشات. حين بدأ باللعب بكونه لاعب وسط في فريق ولاية بنسلفانيا، كان يزن 5 باونداً. في وقت حادثة الحمام، كان في السابعة والعشرين من العمر يعني في أوج حياته الرياضية. وكان ساندوسكي يكبره بثلاثين عاماً ويُفترض أن جسده متخم بالأمراض.

السؤال الأول الذي يطرح نفسه هنا: إذا كان ماكويري متأكداً من أنه رأى حالة اغتصاب، لمَ لم يبادر إلى ردع المغتصب؟

في القسم الثالث من التحدث إلى الغرباء، سأروي قصة قضية التحرش الجنسي الشهيرة في جامعة ستانفورد. اكتُشف أن طالبين متخرجين كانا يقودان دراجتيهما الهوائيتين في الحرم الجامعي ورأيا رجلاً وامرأة مستلقيين على الأرض. كان الرجل فوقها ويتحرك بشكل مريب. وكانت المرأة ساكنة. اقترب الطالبان من الشخصين. فرّ الرجل. وطارده الطالبان. كان هنالك ما يكفي من الوقائع دفعت الطالبين للافتراض أن ما يحصل على الأرض لم يكن بريئاً.

واجه ماكويري وضعاً – على الأقل نظرياً – مريباً أكثر بكثير. لم يكن الشخصان بالغَين. بل كانا عبارة عن رجل وفتى، كل منهما عار. ولكن ماكويري لم يتدخل. تراجع، وتوجه إلى الطابق العلوي واتصل بوالده. طلب إليه والده العودة إلى المنزل. ثم طلب والده إلى صديق للعائلة طبيب اسمه جوناثان درانوف- المجيء والاستماع لقصة مايكل.

هنا نذكر ما قاله درانوف تحت القسم وهو يصف ما أخبره به ماكويري:

قال إنه سمع أصواتاً، أصواتاً جنسية. وطلبت إليه تفسير ما ه اه وقال: «نعم كما تعلم، أصوات جنسية». حسناً لم أعلم تماماً ما الـ ا.ي يتحدث عنه، لم يخض بالتفاصيل أكثر من ذلك، ولكن حين ضغطت عليه، بدا واضحاً أنه لا يملك شيئاً آخر ليقوله. سألته عما ر اى. فأجابني إنه لم يرَ شيئاً، ولكنه كان مهزوزاً ومتوتراً.

درانوف طبيب. ويحتّم عليه واجبه المهني التبليغ عن أي تحرش بالأولاد. سؤال مهم: حسناً، لماذا لم يخبر درانوف السلطات حين سمع قصة ماكويري؟ سئل عن ذلك خلال المحاكمة.

الدفاع: الآن، لقد ضغطت عليه تلك الليلة، وأردت أن تعرف ما ر اه بالضبط، ولكن فهمت أنه لم يخبرك بما رآه. صحيح؟

درانوف: صحيح.

الدفاع: حسناً. ولكنك غادرت، وأنت تعرف أنه سمع أصواتاً جنسية صحيح؟

درانوف: ما فسره على أنه أصوات جنسية.

ما فسره على أنه أصوات جنسية.

الدفاع: واقترحت عليه أن يُخبر رئيسه، جو باتيرنو. صحيح؟

درانوف: صحيح.

الدفاع: لم تخبره أن عليه إبلاغ خدمات الأولاد والشباب، صحيح؟

درانوف: صحيح.

الدفاع: لم تخبره أن عليه إبلاغ الشرطة. صحيح؟

درانوف: صحيح.

الدفاع: لم تخبره أن عليه إبلاغ أمن الجامعة. صحيح؟

درانوف: صحيح.

الدفاع: ألا تظن أنه وجب عليك إبلاغ جهة ما بناء لما سمعـ به صحيح؟

درانوف: صحيح.

الدفاع: وبالفعل، السبب وراء عدم طلبك إلى مايك ماكوير إخبار خدمات الأولاد والشباب أو الشرطة هو أنك لم تعتقد أن ما قاله مايك ماكويري لك مناسب. صحيح؟

درانوف: صحيح.

أصغى درانوف إلى قصة ماكويري بشكل شخصي، عن الليا التي حصل فيها ذلك، وهو غير مقتنع.

أصبحت الأمور أكثر تعقيداً. في البداية، قال ماكويري إنه رأ ساندوسكي في الحمامات يوم الجمعة 1 مارس 2002. كانت تلك عطلة الربيع. وتذكر أن الحرم الجامعي كان مهجوراً، وقال إنه ذهب لرؤية باتيرنو في اليوم التالي - السبت 2 مارس. ولكن حين عا المحققون للبحث في بريد الجامعة الإلكتروني، اكتشفوا أن ماكوير كان مخطئاً. فقد التقى بباتيرنو قبل عام - السبت 10 فبراير 2001 الذي يقترح أن حادثة الحمام حصلت في الأمسية التي سبقت ذلك الجمعة 9 فبراير.

لكن هذا لا يبدو منطقياً. يتذكر ماكويري أن الحرم كان مهجورا في الليلة التي رأى فيها ساندوسكي في الحمام. ولكن في أمسي الجمعة تلك من فبراير، لم يكن الحرم مهجوراً على الإطلاق. كان

... جامعة بنسلفانيا للهوكي يلعب مع فريق غرب فيرجينيا في ... غرينبيرغ بافيليون المجاور، لقد بدأت المباراة الساعة 9:15 ... لا بد أن حشوداً من الناس كانت تملأ الملعب، وفي مركز ... جوردان، الذي يقع على بعد خمس دقائق مشياً، كانت فرقة ... الكندية المشهورة بيرنيكد ليديز تعزف. في تلك الليلة تحديداً، ... الزاوية من الحرم الجامعي كانت مليئة بالناس.

يناقش جون زيغلر، الصحفي الذي كتب كثيراً عن فضيحة ... بنسلفانيا، من الناحية الزمنية، يمكننا تقبل أن يوم الجمعة الذي ... عنه ماكويري هو الجمعة 29 ديسمبر من عام 2000 – خلال ... الكرسمس. لو كان زيغلر محقاً – وكان نقاشه مقنعاً – فهذا ... على طرح سؤال ثالث: لو شهد ماكويري على حالة اغتصاب، لماذا انتظر خمسة أسابيع– من نهاية ديسمبر إلى بداية فبراير – ليخبر إدارة الجامعة؟[1]

تظاهر الادعاء في قضية ساندوسكي أن حالات عدم اليقين والغموض هذه لم تكن موجودة. أخبروا العامة أن كل شيء كان معلوماً وقطعياً. وردَ في لائحة الاتهام المدمرة التي دُونت على 23 صفحة وقُدمت في نوفمبر من عام 2011 أن «المساعد الخريج» – أي ماكويري – «رأى فتى عارياً... يضع يديه عالياً على الجدار، في

(1) الدليل الذي جمعه زيغلر في هذه المرحلة كان مقنعاً. على سبيل المثال، حين شهد درانوف في محاكمة سبانير، قال إنه التقى بغاري شولز بشأن قضية منفصلة تماماً لاحقاً في شهر فبراير، وذكر قضية ساندوسكي «بما أن ذلك كان ربما بعد ثلاثة أشهر من الحادثة ولم نسمع أي شيء تابع لذلك». هل يمكننا تحديد التاريخ بالضبط؟ على الأغلب لا نستطيع.

الوقت الذي يغتصبه فيه ساندوسكي العاري». في اليوم التالي ذهـ ماكويـري «إلـى منـزل باتيرنو، وأخبره بما رأى» ولكن لم تكن أي مـ هذه الادعاءات متطابقة مع الوقائع، صحيح؟

كان زيغلـر أكثـر النـاس صخبـاً ممـن يعتقدون أن ساندوسـكـ بـريء. انظـر أيضـاً: مارك بندرغاسـت، أكثر رجل مكـروه في أمير كا بعض مزاعم زيغلر أكثر إقناعاً من مزاعم الآخرين. لنقاش أطول حوا المشككين بقضية ساندوسكي، راجع الوقائع.

حيـن قـرأ ماكويري تلك الكلمات في لائحة الاتهامات، أرسـا بريـداً إلكترونيـاً لجونيـل إيشـباك، المدعي الرئيسـي فـي القضية. بـا منزعجـاً عندمـا كتـب: «أشـعر أن كلماتي حُورت بعض الشـيء، ولم تُذكر بشكلٍ دقيق في الافتتاحية، أريد أن أضمن أنكم تملكون الوقائع من جديد في حال لم أكن واضحاً، لا يمكنني أن أجزم ألفاً في المئ أن ما حصل كان لواطاً. لم أرَ أي دليل على الجنس. أعتقد أن ذلك كان فعلاً جنسياً / أو خارجاً عن الحدود المناسبة، مهما يكن ذلك». أراد أن يصحح السـجل. سـأل إيشـباك: «ما هي الخيارات المتاحة لي، فيما يخص أي بلاغ مني؟».

فكّـر فـي ما شـعر به ماكويري وهو يقـرأ الطريقة التي حرف بها إيشـباك كلماته. رأى شـيئاً مزعجاً برأيه. لابد أنه شـعر بالأسـى طيلة خمسـة أسـابيع، وهو يشـعر بتأنيب الضمير. ما الذي رأيته؟ هل علي أن أقول شـيئاً ما؟ ماذا لو كنت مخطئاً؟ ثم قرأ لائحة الاتهام، ولكن ماذا وجد فيها؟ وجد أن الادعاء، ولكي يخدم مصالحه الخاصة، حوّل الرمادي إلى أسـود وأبيض. ولكن كيف أثّر هذا التحويل عليه؟ لقد

••ل منه جباناً، شاهد عملية اغتصاب، ولكنه ركض للاتصال بوالديه ..ا، أن يبلغ الشرطة.

كتب لإيشباك: «تغيرت حياتي بشكل جذري». كان ساندوسكي ..ب يستحم مع الأولاد الصغار في وقت متأخر من الليل غريباً على ..يري، ورفض إيشباك الاعتراف كم كان من الصعب التعرف إلى ..ا الغريب. يتابع ماكويري: «تغيرت حياة عائلتي بشكلٍ جذري. ..ا. دمرت وسائل الإعلام والرأي العام سمعتي بكل طريقة ممكنة. و..اذا؟».

4

من المفيد مقارنة فضيحة ساندوسكي بواحدة أخرى، وهي قضية ..رش بفتيات حصلت بعد عدة سنوات. وكان بطل عملية التحرش ..لك طبيباً في ولاية ميشيغان يدعى لاري نصار؛ ونصار هذا، هو ..بيب منتخب الولايات المتحدة الأميركية للجمباز للإناث، ولاري ..ذا ثرثار، وغريب التصرفات بعض الشيء، ويضع نظارة، لم يبدُ أنه ..ذ، بل على العكس بدا محباً لمن يعالجهن، إنه من نوعية الأطباء ..ين تتصل بهم عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل ويردون على ..سالك بطيب خاطر، لقد أحبه الأهل، فهو يعالج الأوراك والسيقان و الكواحل وغيرها من الإصابات الناتجة عن الضغط الهائل الذي ..سعه لاعبات الجمباز المحترفات على أجسادهن الصغيرة.

اختص نصار بمعالجة ما يسمى اختلال الحوض الوظيفي، و..انت تدخلاته العلاجية تشتمل على وضع أصابعه في مهابل

الفتيات اللواتي يعالجهن، ليدلك العضلات والأربطة المصا... بسبب التدريب، وهذا ما فعله مراراً وتكراراً. ولم يكن يطلب موا... المريضة أو ذويها كما أنه لم يكن يضع قفازين، وفي كثير من الأحيا... لم يكن مثل هذا التدخل العلاجي ضرورياً. كان يدلك أثداء مريضا... ويضع أصابعه في مستقيماتهن من دون سبب واضح، لقد استعـ... هذا الإجراء الطبي عذراً ليغطي دافعه الجنسي. لقد وُجهت للار... اتهامات فيدرالية في صيف العام 2017 وسيمضي بقية حياته في... السجن.

فيما يتعلق بفضائح التحرش الجنسي، كانت قضية نصار قاطعـ... تماماً. لم تكن هذه مسألة «قيل وقال». صادرت الشرطة القرص... الصلب من حاسوب نصار، ووجدت مكتبة كاملة من أفلام الأولا... الإباحية، 37 ألف صورة بالمجمل، وبعضها كان مزعجاً لأبعد... الحدود. كانت لديه صور لمريضاته الشابات وهن جالسات في حوض الاستحمام، يأخذن مغطساً بارداً قبل العلاج. لم تكن قضيته مشابهة لساندوسكي فبدلاً من المدعي الوحيد المشوش كانت هناك مئات المدعيات اللواتي روين قصصاً متشابهة، هنا تتحدث ريتشل دينهولاندر، التي تبيّن أن ادعاءاتها بحق نصار كانت جوهرية وأساسية لاتهامه.

عندما كنت في الخامسة عشرة، حين عانيت من آلام مزمنة في الظهر، تحرش بي لاري جنسياً بشكل متكرر طيلة عام تقريباً بحجة العلاج الطبي. لقد تحرش بي حتى عندما كانت أمي في الغرفة، وكان يحجب بحذر الرؤية عنها كي لا ترى ما يفعله.

كانت دينهولاندر تملك دليلاً، موثقاً.

حين تقدمت بادعائي في عام 2016، جلبت معي ملفاً كاملاً من الأدلة... جلبت السجلات الطبية من إحدى الممرضات توثق تعرضي للتحرش... وجلبت مذكراتي التي تبيّن الأذى النفسي الذي تعرضت له منذ حادثة التحرش.. جلبت أيضاً شاهداً تحدثت إليه... جلبت فتاتين أخريين تحرش بهما ولم تكونا على اتصال بي وقد أخبرتانا بتعرضهما للتحرش الجنسي.

كانت قضية نصار مفتوحة وقاطعة. ولكن كم من السنوات تطلب الأمر لكي يتم تقديمه للعدالة؟ سنوات. لاريسا بويس، ضحية أخرى من ضحايا نصار، قالت إنه تحرش بها عام 1997، حين كانت بعمر السادسة عشرة. وماذا حصل؟ لا شيء. أخبرت بويس مدربة الجمباز في ولاية ميشيغان، كيثي كليغز. وواجهت كليغز نصار. فأنكر. صدقت كليغز نصار ولم تصدق بويس. ولّدت الادعاءات شكوكاً، ولكن لم تكن هذه الشكوك كافية. استمرت حالة التحرش. في محاكمة نصار، في لحظة تفطر القلب، تحدثت بويس بشكلٍ مباشر مع نصار وقالت: «كنت أكره الذهاب إلى موعدي التالي في عيادتك لأنني كنت خائفة من أن تخبرك كيثي عما أثار قلقي».

لسوء الحظ كنت محقة. شعرت بالخزي وبالعار لأنني تحدثت إلى كيثي عن هذا. أتذكر بوضوح حين دخلت الغرفة وأغلقت الباب خلفك، وسحبت مقعدك وجلست أمامي وقلت: «هكذا إذن، لقد تحدثت إلى كيثي. حالما سمعت تلك الكلمات غار قلبي في صدري. شعرت بالخيانة. أردت الزحف إلى أعمق حفرة لأختبئ فيها».

في الفترة التي مارس فيها لاري التحرش، هناك ما يصل إلى أربع عشرة حالة تم فيها تحذير أشخاص في مراكز سلطة بأن شيئا ما خاطئاً يحصل: أهالٍ، ومدربون، ومسؤولون. ولم يحرك أحدٌ ساكنا

في سبتمبر من العام 2016، نشرت مجلة إنديانابوليس ستار لائحة مروعة بسجلّ نصار، مدعومة باتهامات دينهولاندر. ولكن العديد من الأشخاص المقربين من نصار ظلوا يدعمونه بعدها. يُزعم أن رئيس نصار، مدير قسم الطب التقويمي في جامعة ميشيغان، قال للطلاب «يثبت هذا أن أحداً منكم لم يتعلم الدرس الأهم في الطب، الطب الحقيقي... لا تثق بمرضاك. يكذب المرضى ليورطوا الأطباء في مشاكل».

دفعت كيثي لاعبي الجمباز في فريقها لتوقيع بطاقة لنصار: «نفكر فيك».

تطلب الأمر اكتشاف القرص الصلب على حاسوب نصار، مع مجموعة الصور الفاضحة عليه، حتى يغير الناس رأيهم أخيراً.

حين تحصل مثل هذه الفضائح، تتمثل ردود أفعالنا الأولى باتهام من هم في السلطة بتغطية حقيقة المجرم – وحمايته، أو التغاضي عما يحصل، أو وضع مصالحهم المؤسسية أو المالية قبل الحقيقة، إننا نبحث عن مؤامرة خلف الصمت، ولكن قضية نصار تذكرنا كم قد يكون التفسير غير كافٍ. كان العديد من أهم المدافعين عن نصار من أهالي مريضاته، لم يكونوا منخرطين في مؤامرة صمت ما لحماية مصالحهم المؤسسية أو المالية الأكبر، فالمريضات اللواتي تعرضن للتحرش هن بناتهم.

هنا تتحدث أم إحدى لاعبات الجمباز - وهي طبيبة أيضاً عن الحادثة في مقابلة مع بيليفد وهو برنامج رائع عن فضيحة نصار. «انت المرأة في الغرفة حين كان نصار يعالج ابنتها، جالسة على بُعد صعة أقدام.

أذكر أنني رأيت بطرف عيني ما بدا مثل انتصاب. وأتذكر أنني لكرت «هذا غريب، هذا حقاً غريب. يا له من مسكين». وفكرت أنه سيكون من الغريب جداً بالنسبة إلى طبيب أن يحصل لديه انتصاب في غرفة الفحص.

لكن في تلك اللحظة، وعندما تكون في العيادة، والطبيب يعمل، لا يخطر في بالك إلا أنه طبيب مشهور ولامع ويقوم بكل ما يستطيع لعلاج ابنتك. نعم، لقد كان بارعاً وذكياً ومخادعاً إلى هذه الدرجة.

في حالة أخرى، ذهبت فتاة صغيرة لرؤية نصار مع أبيها. سبر نصار داخلها بأصابعه، مع أن والدها في الغرفة. يومها وفي وقت لاحق أخبرت الفتاة أمها. تتحدث الأم عما أخبرتها به ابنتها:

أذكر الأمر، وكأنه حصل منذ خمس ثوانٍ. كنت في مقعد السائق، كانت ابنتي تجلس في مقعد الراكب، وقالت: «لقد قام لاري اليوم بشيء جعلني غير مرتاحة».

وقلت: «حسناً، ما الذي تعنينه؟»

«حسناً، لقد لمسني».

وقلت: «أين لمسك؟»

قالت: «في الأسفل». طوال الوقت أنت تعرف ما الذي تحاول

قولـه، ولكنـك تحـاول أن تجعـل الأمـر منطقياً، وتحـاول تكذيب ما تسمعه.

اتصلـت بزوجهـا، وسـألته إن غـادر غرفـة المعاينة في أي وقت خلال المعاينة؟ فقال إنه لم يغادر.

وليسامحني الله... نسيت القصة. وكتبت ملفاً عنه من جديد في خزانة ملفات الأهالي عام 2016.

بعد فترة، بدأت القصص تصبح متشابهة جميعاً. هنا والد آخر كانت جالسـة في مقعد السـيارة هادئة ومكتئبة وقالت: «أبي، إنه لا يساعد في تخفيف ألم ظهري. لا أريد المجيء مرة أخرى». ولكن هـذا لاري. إنـه طبيـب الجمبـاز. إن لم يسـتطع علاجهـا فلن يتمكن أحـد آخـر مـن ذلك. الله وحده يعرف أكثـر من لاري. «كوني صبورة حبيبتـي. سـيتطلب الأمـر بعض الوقت. تتطلـب الأمور الجيدة بعض الوقت» هذا ما علمناه لأولادنا. لذا قلت: «حسناً، سنذهب من جديد في الأسـبوع المقبل ومن جديد في الأسـبوع الذي يليه وستشـعرين بالتحسن شيئاً فشيئاً».

قالت: «حسناً أبي. أنا أثق بما تقوله».

إن حقيقـة أن نصـار كان يفعـل شـيئاً مروعـاً هـو تماماً ما يجعل موقـف الأهالـي صعبـاً للغاية. لو كان نصار وقحـاً مع بناتهم، لكانوا سيشتكون من ذلك على الفور. لو قالت لهم بناتهم إنهن شممن رائحة كحـول فـي نفَـس نصـار، لكان معظـم الأهالي سـيتأهبون، فليس من المستغرب أن يكون الأطباء وقحين أو ثملين أحياناً. يصبح افتراض الحقيقة مشكلة حين نُرغم على الاختيار بين خيارين، أحدهما مرجح

والآخر يستحيل تخيله. هل كانت آنا مونتيس أقوى جاسوسة كوبية في التاريخ، أم هل كان براون مجنوناً بالشك ببساطة؟ يجعلنا افتراض الحقيقة نميل لصالح التفسير المرجح. كان سكوت كارمايكل يجعل آنا مونتيس صادقة، حتى اللحظة التي أصبح فيها تصديقها مستحيلاً. فعل الأهالي الأمر ذاته، ليس لأنهم مهملون، بل لأن تلك هي الطريقة التي تعمل بها عقول معظم الناس.

في الواقع، دافعت معظم الإناث اللواتي تحرش بهن نصار عنه. لم يتمكنّ من الرؤية لما بعد الحقيقة المفترضة أيضاً. عولجت ترينيا غونزار من قبل نصار 856 مرة خلال لعبها للجمباز. حين أتت إحدى رفيقاتها في الفريق وقالت إن نصار وضع أصابعه في داخلها، حاولت غونزار أن تطمئنها: «إنه يفعل ذلك معي طوال الوقت!».

حين نشرت مجلة إنديانابوليس ستار قصة نصار، وقفت غونزار إلى جانبه. كانت مقتنعة بأنه بريء. كان الأمر كله عبارة عن سوء فهم. متى غيرت رأيها أخيراً؟ فقط حين أصبح الدليل ضد نصار قاطعاً. في محاكمة نصار، حين انضمت غونزار إلى مجموعة ضحاياه اللواتي شهدن ضده، استسلمت أخيراً لشكوكها:

كان عليّ أن أتخذ قراراً صعباً للغاية هذا الأسبوع لاري. كنت مضطرة للاختيار بين الاستمرار بدعمك أو دعم الفتيات. واخترتهن يا لاري. اخترت أن أحبهن وأحميهن، واخترت التوقف عن الاهتمام بقضيتك ودعمها، اخترت النظر إلى وجهك والقول لك إنك جرحتنا وجرحتني... آمل أن ترى من خلال عينيّ اليوم أنني لطالما آمنت بك حتى أصبح الأمر مستحيلاً، آمل أن تبكي مثلما بكينا، آمل أن

تشعر بالسوء لما فعلته، آمل أكثر من أي شيءٍ آخر أن تشعر هؤلا. الفتيات بألم أقل كل يوم، وآمل أن تريد ذلك من أجلنا، ولكن ها ا وداعي لك، حان الوقت لكي أدافع عن هؤلاء الفتيات الصغيرا. وألا أدعمك بعد الآن يا لاري.

وداعاً لاري. ليبارك الله روحك المظلمة المكسورة.

لطالما آمنت بك حتى أصبح الأمر مستحيلاً. أليست هذه جما مثالية للتعبير عن افتراض الحقيقة؟

يعمل مفهوم افتراض البراءة حتى حين يكون مرتكب الجري. يملك 37 ألف صورة إباحية للأولاد في حاسوبه، واتُهم مرات عديد. من قبل العديد من الناس، على مدى مسيرته المهنية. كانت قضي. نصار قاطعة ومع ذلك كانت هنالك شكوك. تخيلوا الآن السيناري ذاته، ولكن في قضية ليست قاطعة. هذه هي قضية ساندوسكي.

5

حين أُعلن عن الاتهامات ضد ساندوسكي للعامة، كان أكثر المدافعين عنه إخلاصاً أحد المشاركين السابقين في جمعية سيكوند مايل واسمه آلان مايرز. حين كانت شرطة بنسلفانيا تجري مقابلات مع أولاد كانوا في جمعية سيكوند مايل في محاولة لإثبات الادعاءات ضد ساندوسكي، تواصلوا مع مايرز، وكان صامداً. يذكر تقرير الشرطة: «قال مايرز إنه لا يصدق الادعاءات، وإن المدعي... يحاول جني المال. لقد واظب مايرز على التواصل مع ساندوسكي مرة إلى مرتين بالأسبوع عبر الهاتف». أخبر مايرز الشرطة أنه استحم في غرفة

...ل الملابس مع ساندوسكي عدة مرات بعد التمارين الرياضية، ولم يحصل أي شيء مريب أبداً.

بعد شهرين، تابع مايرز قصته إلى حدّ أبعد. دخل إلى مكاتب محامي ساندوسكي وكشف عن معلومات مذهلة. بعد قراءته لتفاصيل قصة ماكويري، أدرك أنه هو الفتى الذي كان في الحمام تلك الليلة. ...ب كورتيس إيفرهارت، أحد المحققين إلى محامي ساندوسكي، ... جزا عن مقابلته مع مايرز. إن هذا الموجز يستحق عرضه بالتفصيل هنا.

سألت سؤالاً محدداً: «هل لمسك جيري يوماً بطريقة شعرت أنها غير مناسبة، أو تسبب بشعورك بالقلق لتجاوزه حدود مساحتك الشخصية؟». أجاب مايرز بجملة واضحة: «لم يحصل أي شيء من هذا القبيل أبداً».

قال مايرز: «لم يُشعرني جيري يوماً بعدم الراحة أو بالانتهاك، أعتقد أن جيري هو الأب الذي لم أحظَ به في حياتي»... كما قال مايرز في ليلة طلاب السنة الأخيرة في مباراة لكرة القدم في مدرسة وست برانش الثانوية: «طلبت إلى جيري دخول الملعب مع أمي. وأعلن على مكبر الصوت 'الأب جيري ساندوسكي' مع اسم أمي». دعوت جيري ودوتي إلى زفافي. لو كانت هناك مشكلة ما كنت لأطلب إلى جيري- من كان أبي في ليلة طلاب السنة الأخيرة- ومن دوتي حضور زفافي، وأيضاً طلبت إلى المدرسة أن أطلب إلى جيري التحدث في يوم تخرجي، وفعل ذلك... لو تحرش جيري بي ما كنت لأسافر معه لحضور المباريات، وأذهب إلى منزله وأقطع كل هذه

المسافات. لو حصل ذلك، لكنت أردت أن أكون أبعد ما يمكن عنه

يصف مايرز الليلة المشبوهة بوضوح:

ذكر مايرز أنه وجيري كانا قد أنهيا لتوهما التمرين الرياضي، وذهبا إلى منطقة الحمامات ليستحما ويغادرا. «كنت عادة أتمرن مرة أو مرتين في الأسبوع، ولكني أذكر هذه الليلة بوضوح، كنا في الحمام، وكنت وجيري نضرب المناشف على بعضنا بعضاً محاولين لسع بعضنا. كنت أضرب بها الجدران وأنزلق على أرض الحمام، وأنا متأكد من أن تلك الأصوات كانت مسموعة في منطقة الخزائن الخشبية. بينما كنا نمضي وقتاً ممتعاً كما وصفت، سمعت صوت خزانة تُغلق، وهو صوت مألوف. ولكني لم أرَ من أغلق الخزانة. تقول لجنة المحلفين الكبرى إن المدرب ماكويري قال إنه رآني مع جيري منخرطين في فعل جنسي. ولكن ماكويري لا يقول الحقيقة. لم يحصل شيء تلك الليلة في الحمام».

لكن بعد بضعة أسابيع، وقّع مايرز مع أحد المحامين الذي مثّل مجموعة من ضحايا ساندوسكي المزعومين. ثم أصدر بياناً للشرطة غير فيه أقواله تماماً. كان بالفعل أحد ضحايا ساندوسكي بحسب قوله الآن.

أنت معذور لو ظننت أن ذلك محيّر. إن الفتى في الحمام هو الشاهد الأهم في القضية كلها. كان المدّعون يبحثون في كل الأماكن، لأنه كان العامل الأهم في قضية ساندوسكي. وأخيراً ظهر، ولكنه أنكر حصول أي شيء، وبعدها مباشرة تقريباً بدّل كلامه، وقال إن شيئاً ما قد حصل بالفعل. حسناً، هل أصبح مايرز إصبع الاتهام الرئيسي الشاهد في قضية ساندوسكي؟ كان ذلك منطقياً. كان القطعة الأهم

في الأحجية. لا! تركه الادعاء في المنزل لأنه لم يثق بقصته.[1]

كانت المرة الوحيدة التي ظهر فيها مايرز في المحكمة من أجل أن يشهد خلال استئناف قضية ساندوسكي. كان ساندوسكي قد طلب شهادته، على أمل بأن يعود مايرز لموقفه الأصلي ويقول إن شيئاً لم يحصل في الحمامات. ولكن مايرز لم يفعل ذلك، بدلاً منه، قرأ محامي ساندوسكي لمايرز كل بيان من البيانات التي أعلن فيها قبل أقل من عام عن براءة ساندوسكي، جلس مايرز هناك بوجه جامد، وهز كتفيه لكل ما قيل، بما في ذلك صورة له واقفاً بسعادة إلى جانب ساندوسكي. وسُئل عن الأشخاص الموجودين في الصورة.

مايرز: هذا أنا وساندوسكي.

الدفاع: متى التقطت هذه الصورة؟ هل تذكر؟

مايرز: لا أذكر.

كانت تلك صورة لمايرز وساندوسكي في زفاف مايرز. بشكلٍ عام، قال إنه لا يتذكر ذلك لأربع وثلاثين مرة.

ثم كان هنالك بريت سويشر هاوتز، وهو أحد الأولاد المشاركين في جمعية سيكوند مايل ومن المقربين من ساندوسكي. كان على الأرجح الشاهد الأكثر إثارة للانزعاج في محاكمة ساندوسكي.

---

(1) إن تقرير الادعاء حول آلان مايرز مميز. تحدث محقق اسمه مايكل كوريسيلي مع محامي مايرز، الذي أخبره أن مايرز ادعى الآن أنه تعرض للاغتصاب بشكلٍ متكرر من قبل ساندوسكي. أصدر محاميه تقريراً من ثلاث صفحات كُتب بحسب ما كان مزعوماً من قبل مايرز يتحدث فيه بالتفصيل عن التحرش الذي تعرض له على يدَي ساندوسكي. قرأ فريق الادعاء التقرير وشككوا بأن مايرز هو من كتبه بل محاميه. أخيراً، استسلم الادعاء، وابتعد عن واحد من أهم الأشخاص في القضية بأكملها.

تحدث هاوتز وقال إنه تعرض مراراً وتكراراً للتحرش والإساءة – وعن العديد من الحوادث الجنسية مع ساندوسكي خلال سنوات مراهقته في الحمامات، وغرف الساونا، والفنادق.

الادعاء: سيد هاوتز، هل يمكنك أن تخبر السيدات والسادة في لجنة المحلفين كم مرة تقريباً قام المدعى عليه، في غرفة خزائن المنطقة الشرقية أو في حمامات مبنى لاش... بوضع... في فمك؟

هاوتز: لا بد أن ذلك حصل لأربعين مرة على الأقل.

الادعاء: هل أردت منه أن يقوم بذلك؟

هاوتز: لا.

الادعاء: ولا مرة؟

هاوتز: لا.

ثم، طُلب إلى زوجة ساندوسكي، دوتي، أن تصعد إلى المنصة. سُئلت عن آخر مرة رأى فيها زوجها بريت هاوتز.

دوتي ساندوسكي: أعتقد أن ذلك كان قبل ثلاث سنوات أو سنتين، لست متأكدة.

زعم هاوتز أن القصص التي رواها حصلت في التسعينيات. قالت دوتي ساندوسكي إنه بعد عقدين من الزمن وبعد التعرض للانتهاك والإساءة بشكلٍ متكرر، قرر هاوتز أن يزورهما.

الدفاع: هل يمكنك أن تخبرينا عن ذلك؟

دوتي ساندوسكي: نعم. تلقى جيري اتصالاً هاتفياً. كان بريت المتصل. قال إنه يريد الحضور، وإحضار حبيبته وابنه لنراهما، كان الولد بعمر السنتين تقريباً. أتوا إلى المنزل حيث كانت صديقتي إلين

شتاينباخر، وذهبنا لإحضار دجاج كنتاكي المقلي وتناولنا العشاء وكانت زيارة لطيفة.

هذا مثال أكثر إرباكاً بكثير من حالة ترينيا غونزار في قضية نصار. غونزار لم تنكر حصول أي شيء خلال جلساتها مع نصار. اختارت أن تفسر أفعاله على أنها غير خطيرة - ولأسباب مفهومة تماماً - حتى تلك اللحظة حين كانت قد أصغت لشهادات زميلاتها من لاعبات الجمباز في محاكمة نصار. أما ساندوسكي، فلم يكن يؤدي عملاً طبياً غامضاً، كان يفترض أنه منخرط في أفعال عنف جنسي متكررة. ولم يسيء ضحاياه فهم ما كان يفعله بهم، تصرفوا وكأن شيئاً لم يحصل، لم يتحدثوا عن ذلك لأصدقائهم، لم يكتبوا قصصاً غاضبة في مذكراتهم، لقد مرّ أحدهم بعد سنوات ليجعل الرجل الذي اغتصبه يرى ولده، لقد دعا أحدهم المغتصب إلى حفل زفافه. أطلق أحد الضحايا الذين استحموا مع ساندوسكي على نفسه لقب «أكثر ولد محظوظ في العالم». وظهر فتى آخر مع قصة، بعد أشهر من المعالجة لدى معالج نفسي، ولكن لم يقنع ذلك هيئة المحلفين.

إن قضايا التحرش الجنسي معقدة، ومغلفة بطبقات من الخزي والنكران والذكريات المشوشة، وبعض القضايا الكبرى كانت معقدة كما كانت قضية جيري ساندوسكي. الآن فكّر في ما تعنيه هذه التعقيدات بالنسبة إلى أولئك المضطرين لأن يجدوا المنطق في كل هذا التناقض المتداخل. دوماً كانت هنالك شكوك حول ساندوسكي. ولكن كيف تتوصل لما يكفي من الشكوك حين يقوم الضحايا بتناول دجاج كنتاكي المقلي بسعادة مع مغتصبهم؟

6

حسناً: يذهب ماكويري لرؤية رئيسه، جو باتيرنو يوم السبت يجلس باتيرنو المتفاجئ مع تيم كورلي وغاري شولز في اليوم التالي الأحد. يتصلون على الفور بمجلس الجامعة، ثم يوم الإثنين يخبرو رئيس الجامعة، غراهام سبانير. ثم يطلب كل من كورلي وشول حضور ماكويري.

يمكنكم تخيل ما الذي يفكر فيه كل من كورلي وشولز وهما يصغيان إليه: لو كانت هذه حقاً حالة اغتصاب، لماذا لم تحاول أن تساعد المعتدى عليه؟ إن كان ما رأيته مزعجاً، لمَ لم يقم أحد، بما في ذلك صديق عائلتك الطبيب، بإخبار الشرطة؟ وإن كنت أنت مايك ماكويري – منزعجاً جداً لرؤية ما رأيته، لمَ انتظرت كل هذا الوقت حتى تخبرنا؟

بعدها اتصل كورلي وشولز بمجلس الجامعة، ولكن ماكويري لم يمنحهم كثيراً من المعلومات. توصلوا فطرياً - كما- كنا سنفعل جميعاً – لأكثر التفسيرات براءة: ربما كان جيري يتصرف على سجيته المضحكة. يتحدث هنا محامي جامعة ولاية بنسلفانيا، ويندل كورتني، عن محادثته مع غاري شولز.

كورتني: سألت في وقت ما من المحادثة إن كانت هذه المهزلة التي تجمع بين جيري وفتى صغير تشمل أي شيء جنسي في طبيعته. حينها قال لي إنه لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً.... وجهة نظري، على الأقل بعد ما سمعت ما وصف لي وبعد التحدث مع السيد شولز، أن ما حصل كان عبارة عن فتى صغير في الحمامات،

وبما أن هناك كثير من المياه في منطقة الحمامات الجماعية كما تعلمون، فقد كان الفتى يركض وينزلق على الأرض.

الادعاء: هل أنت متأكد من أنه لم يذكر صوت اللطم أو أي شيء له طبيعة جنسية إطلاقاً؟

كورتني: أنا متأكد تماماً من أنه لم يذكر أمامي حصول أي صوت لطم أو شيء له طبيعة جنسية في منطقة الحمامات.

قال كورتني إنه فكر في الأمر وافترض السيناريو الأسوأ. في النهاية، كان الأمر يشمل رجلاً وولداً في الحمام في ساعات ما بعد الدوام. ولكنه أيضاً فكر في ما يعرفه عن ساندوسكي «شخص كان يعبث مع أولاد جمعية سيكوند مايل طوال الوقت في الأماكن العامة». ولجأ لهذا الافتراض[1]

بعدها ذهب شولز وزميله تيم كورلي لرؤية رئيس الجامعة سبانير.

---

(1) راودت الشكوك كورتني حول براءة ساندوسكي. ولكن كانت ذريعة قصة ساندوسكي مقنعة للغاية. كان ساندوسكي شخصاً يعبث مع أولاد جمعية سيكوند مايل في الأماكن العامة طوال الوقت. بعدها اتصل كورلي بالمدير التنفيذي لجمعية سيكوند مايل، جون رويكوفيتز. وعد رويكوفيتز أنه سيتكلم مع ساندوسكي، ويطلب إليه عدم جلب المزيد من الأولاد إلى حرم الجامعة. «يمكنني فقط أن أتحدث عن نفسي، ولكني ظننت أن جيري كان يملك مشكلة في تحديد الحدود، ومشكلة في الحكم، كان عليه معالجتهما». فسّر كورلي شعرت أنه يجب على ساندوسكي أن يكون حذراً، وإلا سيعتقد الناس أنه متحرش بالأولاد. يقول رويكوفيتز: «أخبرته أنه سيكون من المناسب أكثر – إن كان عليه الاستحمام مع أحد بعد التمرين – أن يرتدي ملابس السباحة. وقلت ذلك لأنه وقتها كان هناك كثير من الأخبار حول كشافة الصبية والكنيسة وتلك الأمور».

الادعاء: هل أخبرت غراهام سبانير أنه كان هنالك «أمرٌ غريب» يحصل؟

شولز: نعم.

الادعاء: متى قلت له ذلك؟

شولز: حسناً، في التقرير الأول الذي سمعناه كانت هنالك جملة «العبث في الأرجاء» وأن أحداً رأى جيري ساندوسكي يعبث في الحمامات مع ولد. وأظن أن الجملة تكررت أمام الرئيس سبانير، وأنه كما تعلمون كان يعبث في الأرجاء.

أصغى سبانير لكورلي وشولز وطرح سؤالين: «هل أنتما متأكدان من أن ذلك وصف أمامكما بجملة «العبث في الأرجاء؟» قالا نعم». ثم سأل سبانير من جديد: «هل أنتما متأكدان من أن ذلك ما سمعتماه؟»

قالا نعم. لم يكن سبانير يعرف ساندوسكي جيداً. كان في جامعة ولاية بنسلفانيا آلاف الموظفين. وقد رأى أحد الموظفين موظفاً آخر -متقاعد الآن – في الحمام؟

لاحقاً قال سبانير: «أتذكر، للحظة، أننا كنا نحك رأسينا مرتبكين حول الطريقة المناسبة لنحقق في أمر «العبث في الأرجاء». لم يسبق لي أن حصلت على مثل هذا التقرير».

لو كان هاري ماركوبولس رئيس جامعة ولاية بنسلفانيا خلال قضية ساندوسكي، بالطبع، لم يكن ليفترض أكثر التفسيرات براءة. كان من الأشخاص الذين أدركوا خداع مادوف قبل عقد من تفسير أي أحد لذلك بالطريقة الأشنع. كم كان عمر الفتى؟ ما الذي كانا

يفعلانه هنالك في الليل؟ ألم تكن هنالك قضية غريبة مع ساندوسكي قبل بضع سنوات؟

لكن غراهام سبانير ليس هاري ماركوبولوس. اختار التفسير الأكثر ترجيحاً؛ ساندوسكي يفعل ما يفعله دوماً. هل ندم لأنه لم يسأل مزيداً من الأسئلة المتابعة، ولم يسأل في الأرجاء بهدوء؟ بالطبع. ولكن افتراض البراءة ليس جريمة. هذا الافتراض ميل بشري شائع. لم يتصرف سبانير بشكل مختلف عن متسلق الجبال، وسكوت كارمايكل، ونات سيمونز، وترينيا غونزار وافتراضياً كل واحد من أهالي لاعبات الجمباز اللواتي عالجهن لاري نصار. ألم يكن هؤلاء الأهالي في الغرفة نفسها حين كان نصار يتحرش ببناتهم؟ ألم تقل بناتهم إن شيئاً غريباً يحصل؟ لماذا استمروا بإرسال بناتهم إلى نصار مراراً وتكراراً؟ مع ذلك، في حالة نصار، لم يفترض أحد أنه يجب أن يُسجن أحد من أهالي الفتيات لفشله في حماية ابنته من متحرش. إننا نتقبل حقيقة أن أي والد يجب أن يكون لديه مستوى من الثقة في المجتمع الذي يحيط بولده.

إذا افترض الناس أن كل مدرب متحرش جنسي، عندها لن يترك الأهل أولادهم يغادرون منازلهم، ولن يتطوع أي شخص عاقل ليكون مدرباً. إننا نفترض البراءة – حتى حين يشمل هذا القرار مخاطر هائلة – لأننا لا نملك خياراً. لا يمكن للمجتمع أن يعمل سوى بهذه الطريقة، وفي تلك الحالات النادرة التي تنتهي فيها الثقة بإثبات خيانة، يستحق ضحايا افتراض البراءة أولئك تعاطفنا، وليس لومنا.

7

في البدء، اتُّهم تيم كورلي وغاري شولز. لقد قُبض على اثنين من أهم المسؤولين في واحدة من أرقى الجامعات في الولايات المتحدة الأميركية. جمع سبانير كبار موظفيه في اجتماع أثار العواطف. كان يعتبر جامعة بنسلفانيا عائلة كبيرة، وكان هذان صديقيه، حين أخبراه أن حادثة الحمام كانت على الأغلب «عبث في الأرجاء» صدقهما.

قال: «ستجدون أن الجميع سيبعدون أنفسهم عن غاري وتيم». ولكنه لم يفعل ذلك.

لقد عمل الجميع مع تيم وغاري لسنوات. بعضهم عمل معهما لخمسة وثلاثين عاماً أو أربعين عاماً، لأن غاري وتيم عملا في الجامعة طيلة هذه الفترة... لقد عملتم معهم كل يوم من حياتكم، وعملت أنا معهم لستة عشر عاماً... إن كان أي منكم يعمل وفقاً للطريقة التي وافقنا دوماً على العمل من خلالها – بانفتاح وصدق وبنزاهة، نفعل دوماً ما هو لمصلحة الجامعة – إن اتهمتم زوراً بشيء ما، فسأفعل الشيء نفسه لأي واحد من الموجودين هنا. أريدكم أن تعرفوا أن... يجب ألا يخاف أي واحد منكم من القيام بالأمر الصحيح، أو يخاف أن يُتهم بالقيام بشيءٍ خاطئ حين تعلمون أنكم تفعلون الشيء الصحيح... لأن هذه الجامعة ستدعمكم[1]

لهذا السبب أحب الناس غراهام سبانير، ولهذا السبب كانت مسيرته المهنية في جامعة ولاية بنسلفانيا رائعة، ولهذا أنت وأنا

---

(1) هذا ليس اقتباساً حرفياً لما قاله سبانير، بل إعادة صياغة لذلك، استناداً على ما يتذكره.

نرغب في العمل معه. نريد أن يكون غراهام سبانير رئيسنا – وليس هاري ماركوبولوس، القاسي، منتظراً فريقاً من بيروقراطيي الحكومة ليقتحموا المكان.

هذه أولى الأفكار التي يجب أن تبقى في الدماغ حين نفكر في موت ساندرا بلاند. نفكر في أننا نريد من الأوصياء علينا أن يكونوا منتبهين لأي اشتباه، إننا نلومهم حين يفترضون الحقيقة. حين نحاول إرسال أناس مثل غراهام سبانير إلى السجن، فإننا نرسل رسالة لكل أولئك الموجودين في مراكز سلطة عن الطريقة التي نريد منهم أن يتعاملوا من خلالها مع الغرباء؛ من دون التوقف للحظة والتفكير في عواقب إرسال رسالة كهذه.

ولكننا نستبق الأمور.

القسم الثالث

الشفافية

الفصل السادس

مغالطة الأصدقاء

1

بحلول موسمه الخامس، كان مسلسل فريندز في طريقه لأن يصبح البرنامج التلفزيوني الأكثر نجاحاً في تاريخ التلفزيون. كان أحد أروع المسلسلات الكوميدية التي تتحدث عن «التسكع»، ستة أصدقاء - مونيكا وريتشل وفيبي وجوي وتشاندلر وروس - يعيشون في فوضى وسط مانهاتن وضوضائها، يتواعدون ويكفون عن التواعد، يتغازلون ويتقاتلون، ولكنهم معظم الوقت يجرون محادثات طويلة ومضحكة.

يبدأ الموسم مع زواج روس من إحدى الشخصيات الجديدة على مسلسل فريندز، وبحلول منتصف الموسم، تنتهي العلاقة بأكملها، ومع اقتراب الموسم من نهايته يعود إلى أحضان ريتشل. تلد فيبي توأماً ثلاثياً وتدخل في علاقة مع شرطي. والأهم من ذلك، يقع كل من مونيكا وتشاندلر في الحب؛ وهو تطور تترتب عليه مشكلة محورية، لأن مونيكا شقيقة روس وتشاندلر صديق روس المقرب، ولم يمتلك أي منهما الشجاعة لإخبار روس بما يحصل.

في بداية الحلقة الخامسة عشرة - والتي تحمل عنوان «ذاك

مع الفتاة الذي يضرب جوي» - ينكشف أمر تشاندلر ومو
ينظر روس خارج النافذة إلى الشقة المقابلة، ويرى شقيقته مو
في عناق حميمي مع تشاندلر. يُصدم. يركض إلى شقة مون
ويحاول اقتحامها، ولكن بابها مقفل بالسلسلة. لذا يقحم رأ
داخل الفتحة.

«تشاندلر! تشاندلر! رأيت ما تفعله من النافذة، رأيت ما تف
مع شقيقتي، اخرج الآن!»

يحاول تشاندلر المذعور الهرب من النافذة، وتحاول مون
إيقافه. تقول له: «لا يمكنني التعامل مع روس». تفتح الباب لشقيق
«مرحباً روس، ما الأخبار يا أخي؟».

يهرع روس إلى الداخل، ويلاحق تشاندلر حول طاولة المط
وهو يصرخ: «ما الذي تفعله بحق السماء؟».

يختبئ تشاندلر خلف مونيكا، ويدخل كل من جوي وريتشل

ريتشل: مرحباً، ما الأمر؟

تشاندلر: حسناً، أعتقد أن روس علم بخصوصي أنا ومونيكا.

جوي: يا رجل، إنه هنا.

روس: ظننت أنك صديقي المقرب! هذه شقيقتي! صديق
المقرب وشقيقتي! لا أستطيع تصديق هذا.

هل تابعت كل هذا؟ كان في موسم فريندز العادي كثير م
التقلبات في الأحداث ونقاط التحول - وأشكال مختلفة عن السيا
والعاطفة - لدرجة أن الأمر بدا وكأن المشاهدين سيحتاجون إل
مخطط بياني للتأكد من أنهم لم يفقدوا السياق الصحيح. لكن في

الواقع، إن شاهدت مسبقاً أية حلقة من مسلسل فريندز، فستعلم أنه من المستحيل تقريباً أن تشعر بالارتباك. المسلسل واضح دوماً. كيف له أن يكون واضحاً؟ أعتقد أنه يمكنك أن تفهم حتى الحبكة لو كتمت الصوت.

كانت الأحجية الثانية التي بدأت هذا الكتاب هي مشكلة إطلاق السراح بكفالة. كيف يعقل أن يُقيم القضاةُ المتهمين بشكل أسوأ من برنامج حاسوبي، بالرغم من أن القضاة يعرفون عن المتهمين أكثر مما يعرف الحاسوب؟ هذا القسم من (التحدث إلى الغرباء) عبارة عن محاولة للإجابة عن هذه الأحجية، بدءاً بالحقيقة الغريبة التي تفيد أن المسلسلات مثل فريندز شفافة إلى هذه الدرجة.

2

لاختبار هذه الفكرة حول شفافية مسلسل فريندز، تواصلت مع طبيبة نفسية اسمها جنيفر فوغات، تدرس في جامعة ماساشوستس في دارتماوث. فوغات خبيرة في FACS، والذي يعني نظام تشفير حركة الوجه* في FACS، تُعطى كل واحدة من الحركات العضلية الثلاثة والأربعين المميزة في الوجه رقماً محدداً، يدعى «وحدة الحركة». بعد إعطاء الأرقام، يمكن لأشخاص مثل فوغات، الحاصلة على تدريب في FACS، النظر إلى تعابير وجه أحدهم وتسجيل علامات، مثلما يأخذ مؤلف موسيقي معزوفة ويترجمها إلى سلسلة من العلامات الموسيقية على صفحة.

لذلك، على سبيل المثال، انظروا إلى هذه الصورة:

تدعى هذه بابتسامة Pan-Am وهي من الابتسامات التي قد تبتسمها لك مضيفة الطيران لكي تبدو مهذبة. حين تبتسم لأحدهم مثل هذه الابتسامة، ترفع زاويتي شفتيك، باستخدام ما تدعى بعضلة الوجنة الكبرى، وتُبقي سائر وجهك ثابتاً. لذلك تبدو الابتسامة مزيفة: إنها ابتسامة من دون أي نوع من التعاون الوجهي. في FACS، تعطى لابتسامة Pan-Am التي تستخدم عضلة الوجنة الكبرى درجة AU 12.

والآن لننظر إلى التالي:

تُسمى هذه بابتسامة دوشين، تبدو صادقة. في المصطلحات التقنية، إنها AU 12 زائد AH 6 – وهذا يعني أنها حركة وجهية تشمل القسم الخارجي من عضلات الزاوية العينية، ترفع الخدين، وتخلق تلك التجاعيد الشهيرة حول العينين.

FACS أداة معقدة واستثنائية. إنها تتمحور حول تصنيف –

بالتفصيل الدقيق- آلاف الحركات العضلية، التي لا تظهر على الوجه لأكثر من جزء من الثانية. يزيد عدد صفحات دليل FACS عن خمسمئة صفحة. لو حللت فوغات كل حلقة «الفتاة التي تضرب روي» بأكملها، لاحتاجت أياماً، لذا طلبتُ إليها التركيز على المشهد الافتتاحي فقط: روس يرى تشاندلر ومونيكا يتعانقان، ويسرع إليهما غاضباً.

هنا نذكر ما اكتشفت.

حين ينظر روس من خلال الباب المفتوح ويرى شقيقته تعانق صديقه المفضل، يُظهر وجهه وحدات الحركة 10 + 16 + 25 + 26: هذا رفع الشفة العلوية (عضلتي زاوية الفم وزاوية العين)، عضلة الشفة السفلية الخافضة (خافضة الشفة السفلية)، الشفتان المتباعدتان (خافضة الشفة السفلية، الذقن المسترخي أو الدويرية الفموية)، وانخفاض الذقن (الجناحية الخارجية والداخلية المسترخية).

في نظام FACS، يُعطى أيضاً للحركات العضلية قياس شدة من A إلى E، مع كون A الأضعف وE الأقوى. كل حركات روس العضلية في تلك اللحظة هي E. إن عدت وشاهدت حلقة فرينذز، وأوقفت الشاشة عند اللحظة التي ينظر فيها روس من خلال الباب، فسترى تماماً ما تصفه مشفرات FACS. يملك نظرة لا يمكن تجاهلها تعبّر عن الغضب والقرف.

ثم يقتحم روس شقة مونيكا. يزداد التوتر في المشهد، وكذلك مشاعر روس. أصبح وجهه الآن يعّبر عن 4C + 5D + 7C + 10E + 16E + 25E + 26E. من جديد، كثير من الحرف E!

هـذا مـا يحصـل حيـن تقطـب حاجبيك. السـبعة هـي إغما
العينيـن. يدعـى ذلـك «بتضييق الجفنين»، إنـه متجهم الوجه ويغم
عينيـه قليـلاً فـي الوقـت نفسـه، هذا يُعبّر عـن الغضـب التقليدي.
العشـرة فـي هـذه الحالة هي شـعور القـرف الكلاسـيكي. أنت تر
شـفتك العلوية، ولا تحرك الأنف، ولكن يبدو أن الأنف مرفوع إل
الأعلى. تحصل الـ 16 أحياناً مع ذلك. هذا خافض الشـفة السـفلي
وهنـا حيـن تدفـع شـفتك السـفلية إلى الأسـفل على نحـو يصبح
الممكن أن ترى أسنانك السفلية.

مونيـكا، عنـد البـاب تحاول أن تتظاهر بأن ما من شـيء غريب
تبتسم لشقيقها. ولكنها ابتسامة Pam-Am، وليست ابتسامة Duchenne
بعض الـ 12 وأقل وأدنى ظهوراً للـ 6.

يطارد روس تشاندلر حول طاولة المطبخ، يختبئ تشاندلر خلف
مونيكا، ويقترب روس، يقول: «انظر، نحن لا نعبث. أنا أحبها. حسنا
أنا مغرم بها».

عندها تمسـك مونيكا بيد روس. «أنا آسـفة جداً لأنك اكتشـفت
الأمر بهذه الطريقة. ولكن الأمر حقيقي. أنا مغرمة به أيضاً».

يسـود صمت طويل، في الوقت الذي يحدق فيه روس إليهما
وهو يعالج عاصفة من المشاعر المتنافسة. ثم يبتسم، ويضم الاثنين
ويكـرر مـا قالـه، ولكن بسـعادة: «صديقي المفضل وشـقيقتي! أنا في
غاية السرور!»

بينما تتحدث مونيكا إلى شـقيقها، تسـجل فوغات نقاطها بأنها
1C + 2D + 12D. الـ 1 و2 مجتمعتيـن تعنيـان الحـزن: رفعت كلاً من

الجزء الداخلي والخارجي لحاجبيها. 12D بالطبع، هي ابتسامة Pan-Am غير مكتملة عاطفياً.

تقول فوغات: «إنها تعبر، بشكلٍ غريب - عن شيء من الحزن، ولكن بعدها السعادة. أعتقد أن هذا منطقي نوعاً ما، لأنها تعتذر، ولكنها في الواقع تعلم روس أنها لا تمانع ما يحصل».

ينظر روس إلى شقيقته مطولاً. يسجل وجهه الحزن الكلاسيكي. ثم يتحول وجهه بشكلٍ طفيف إلى 12D + 1E. إنه يعيد لشقيقته الخليط ذاته من المشاعر التي أظهرتها له: الحزن الممزوج ببدايات السعادة. إنه يفقد شقيقته، ولكن في الوقت ذاته، يريدها أن تعرف أنه يهتم لسعادتها.

يخبرنا تحليل FACS الذي أجرته فوغات، أن الممثلين في فريندز يضمنون التعبير عن كل عاطفة يجب أن تشعر بها شخصياتهم وأن تظهر بوضوح على وجوههم. لهذا يمكنك أن تشاهد المشهد ذاته من دون صوت، وتفهم ما يحصل. الكلمات هي ما تجعلنا نضحك أو هي ما يفسر بعض حالات السياق. ولكن التعابير على وجوه الممثلين هي ما يحقق الحبكة. أداء الممثلين في مسلسل فريندز يعتبر شفافاً.

الشفافية هي حقيقة أن سلوك الناس وما يفعلونه - الطريقة التي يمثلون بها أنفسهم من الخارج - يوفر نافذة حقيقية ومضمونة لما يشعرون به في الداخل. إنها ثاني أهم الأدوات التي نستخدمها للتعرف إلى الغرباء. حين لا نعرف أحداً ما، أو لا نستطيع التواصل معه، أو لا نملك الوقت لفهمه بشكلٍ مناسب، نعتقد أنه يمكننا فهمه من خلال سلوكه وتصرفه.

3

فكرة الشفافية لها تاريخ طويل. في عام 1872، بعد ثلاثة أعـ ا من تقديم عمله الشهير حول التطور، نشر تشارلز داروين كتاب (تعـ العواطف لدى الإنسان والحيوان). ناقش فيه الابتسام، والعبو، وتجعيد الأنف عند الشعور بالقرف، وذكر أنها أشياء قام بها كل إنسـا بوصفها جزءاً من تكيفنا التطوري. لقد كان لإيصال عواطفنا بشـ ا دقيق وسريع إلى من يحيطون بنا أهمية بالغة في نجاة البشر لدرجة ا الوجه، برأيه، تطور إلى نوع من لوحات الإعلان عن عواطف القلـ

فكرة داروين حدسية إلى حدّ كبير. يبتسم الأولاد في كل مكا، حين يكونون سعداء، ويعبسون حين يكونون حزينين، ويضحكـ حين يحصلون على الترفيه، أليس كذلك؟ ليس فقط الناس الذ، يتابعون مسلسل فريندز في غرف جلوسهم في كليفلاند يفهمون ا الذي يشعر به روس وريتشل بل الجميع.

إن جلسات الاستماع الخاصة بالكفالة التي تحدثنا عنها في الفصل الثاني تشبه ذلك، مع ممارسة الشفافية لا يتجاوب القاضـ مع الأطراف الموجودين عبر البريد الإلكتروني أو يتصل بهم هاتفـا يعتقد القضاة أنه من الضروري النظر إلى الناس الذين يحكمو، عليهم.

قبل سنوات ادعت امرأة مسلمة في ميشيغان، وأتـ إلى المحكمة مرتدية النقاب التقليدي؛ وهو غطاء يغطي كامل الوجه عدا عينيها. طلب إليها القاضي أن ترفع الغطاء. لكنهـا رفضت. لذا ردّ دعواها. لأنه ظن أنه لا يستطيع أن يحكـ

يعدل في خلاف بين طرفين حين لا يستطيع أن يرى أحدهما. وقال لها:

أحد الأشياء التي يجب عليّ فعلها حين أصغي إلى اعتراف هو ان ارى وجهك لأرى ما يحصل، وإن لم ترفعي الغطاء، لا يمكنني ان ارى وجهك، ولا يمكنني أن أعرف إن كنت تخبرينني الحقيقة أم لا، ولا يمكنني أن أرى بعض الأشياء في سلوكك وطبعك التي احتاج إلى رؤيتها في محكمة القانون[1]

هل تعتقدون أن القاضي كان محقاً؟ أعتقد أن كثيراً منكم يظنون ذلك. لم نكن لنمضي كثيراً من الوقت ونحن ننظر إلى أوجه الآخرين لو لم نعتقد أن هناك أمراً مهماً في ذلك. في الروايات، نقرأ مثلاً: «توسعت عيناها من الصدمة» أو «ارتسمت تعابير خيبة الأمل على وجهه». ونتقبل الحقيقة ببساطة بأن الأوجه تعبّر عن الخيبة أو تتسع الأعين استجابة لمشاعر الصدمة. يمكننا أن نرى وجه روس 4C + 5D + 7C + 10E + 16E + 25E + 26E ونعلم ما يعنيه – من دون سماع ما يقوله – لأن آلاف السنوات من التطور حوّلت4C + 5D + 7C + 10E + 16E + 25E + 26E إلى التعبير الذي يظهر على وجه المرء حين يكون مصدوماً أو غاضباً. إننا نعتقد أن سلوك أحد ما هو نافذة الى روحه، ولكن ذلك يجعلنا نعود إلى الأحجية رقم اثنين. يملك

(1) المدعية جنة محمد. وكان ردها: «حسناً، أولًا، أنا مسلمة ملتزمة بديني، هذه هي طريقة حياتي، وأنا أؤمن بالقرآن الكريم، والله هو الأول في حياتي. لن أمانع رفع نقابي لو كان القاضي امرأة، لذا أريد أن أعرف، هل لديك أنثى يمكنني المثول أمامها؟ لا مشكلة لدي بالكشف عن وجهي أمام أنثى، وبخلاف ذلك لن أكشف وجهي».

القضاة في جلسات الاستماع نافذة إلى روح المدعى عليه. ومع ذا يكونون سيئين في توقع من سيحكمون عليه على عكس حاسو سيندهيل مولايناثان، الذي لا يعتبر نافذة لروح أي كائن.

لو كانت الحياة الحقيقية مثل مسلسل فريندز، لكان القض سيضربون الحواسيب. ولكنهم لا يفعلون ذلك. الحياة الحقي ليست مثل مسلسل فريندز.

4

هناك تجمع من الجزر المعروفة باسم تروبرياند تقع على بع مئة ميل شرق بابوا غينيا الجديدة في وسط بحر سولومون. الأرخبي صغير، وهو موطن لأربعين ألف شخص. إنه معزول واستوائي. يعي الناس هناك على صيد السمك والزراعة كما فعل أسلافهم قبل آلا السنوات، وأثبتت تقاليدهم أنها مستمرة بشكلٍ رائع، حتى في و الانتهاكات التي لا مفر منها التي فرضها القرن الواحد والعشرين بالطريقة نفسها التي يأخذ فيها صناع السيارات نماذجهم الجدي من السيارات إلى القطب الشمالي ليختبروها في ظل الظروف الأ قساوة، يحب علماء الاجتماع أحياناً أن «يختبروا فرضيات التوتر» ف أماكن مثل جزر تروبرياند. إن كان أمر ما فعال في لندن أو نيويور وكان فعالاً في جزر تروبرياند، يمكنك أن تتأكد من أنك على وش اكتشاف شيء عالمي، وهذا ما أرسل عالمَي اجتماع إسبانيين إل جزر تروبرياند في عام 2013.

سيرجيو جاريلو هو عالم في علم الإنسان. سبق له أن عمل في جزر تروبرياند، وكان يعرف اللغة والثقافة. أما كارلوس كريفيلي فهو عالم نفس، أمضى الجزء المبكر من مسيرته المهنية عبر حدود الشفافية. ذات مرة حلل عشرات الفيديوهات التي يظهر فيها مقاتلو الجيدو الذين فازوا لتوهم بالقتال ليكتشف متى ابتسموا تماماً. هل كان ذلك في لحظة النصر؟ أم أنهم ابتسموا بعد أن انتصروا؟ ذات مرة، شاهد فيديوهات لأناس يمارسون العادة السرية لكي يكتشف تعابير وجوههم عند النشوة. يفترض أن النشوة هي لحظة السعادة الحقيقية، هل تلك السعادة واضحة ويمكن رؤيتها في تلك اللحظة؟ في الحالتين، لم يكن ذلك ممكناً، ولم يكن منطقياً أن تكون عواطفنا هي حقاً شاشة عرض للقلب. جعلت هذه الدراسات كريفيلي متشككاً، لذا قرر هو وجاريلو أن يختبرا فرضية داروين.

بدأ جاريلو وكريفيلي بست صور شخصية لأشخاص يبدون سعداء، وحزينين، وغاضبين، وخائفين، ومشمئزين- مع صورة أخيرة لشخص ذي تعابير محايدة. قبل أن يغادرا إلى جزر تروبرياند، أخذ الرجلان صورهما إلى مدرسة ابتدائية في مدريد وجرّبوها على مجموعة من الأولاد. وضعوا كل الصور الست أمام أول ولد وسألاه: «أي من هذه الصور تُعبّر عن وجه حزين؟». ثم ذهبا إلى ولد آخر وسألاه: «أي من هذه الصور تُعبّر عن وجه غاضب؟» وهكذا بدلا بين الصور الستة مرة تلو الأخرى. وها هي ذي النتائج. لم يواجه الأولاد أية صعوبة مع التمرين.

العاطفة	سعيد: يبتسم	حزين: تعابير حزينة	غاضب: يعبس	خائف: تعابير الخوف	مشمئز: تجعيد الأنف	محايـ
السعادة	1.00	.00	.00	.00	.00	.00
الحزن	.00	.98	.00	.00	.00	.02
الغضب	.00	.00	.91	.00	.09	.00
الخوف	.00	.07	.00	.93	.00	.00
الاشمئزاز	.00	.02	.00	..15	.83	.00

عدد الإسبان: 113

ثم سافر جاريلو وكريفيلي إلى جزر تروبرياند وكررا العملية. كان سكان الجزر لطيفين ومتعاونين. لقد تحدثوا لغة غـ ودقيقة، الأمر الذي جعلهم مثاليين لدراسة العواطف، كما فـ جاريلو.

لكي يقولوا إن شيئاً فاجأهم بطريقة إيجابية، يقولون «أبهـ عقلي» أو «سلب انتباهي». إذا كررت عبارتهم وسألتهم: «هل سـا هذا الشيء عقلك؟» يجيبون: «لا، بل سلب معدتي».

بكلمات أخرى، لم يكن هؤلاء الناس محتارين حين يُسألون ـ الحقيقة العاطفية لشيء ما. لو كان داروين محقاً،ف يجب أن يـ سكان الجزر هذه جيدين مثل أولاد المدرسة في مدريد في التعـ إلى أوجه الناس. فالعواطف مرتبطة بشكل وثيق بالتطور، وهذا يـ أن الناس في وسط بحر سولومون يملكون من دون شك الفكر ذا الذي يملكه مَن في مدريد. صحيح؟

خطأ.

ألقِ نظرة على الجدول التالي، الذي يقارن بين نسب نجاح
أهالي جزيرة تروبرياند ونسب نجاح الأولاد في مدرسة مدريد. كا
أهالي الجزيرة حائرين.

العاطفة	سعيد: يبتسم	حزين: تعابير حزينة	غاضب: يعبس	خائف: تعابير الخوف	مشمئز: تجعيد الأنف	محايد
السعادة	58.	08.	04.	08.	00.	23.
الحزن	04.	46.	04.	23.	19.	02.
الغضب	20.	17.	07.	30.	20.	07.
الخوف	08.	27.	04.	31.	27.	04.
الاشمئزاز	18.	11.	08.	29.	25.	11.

عدد سكان الجزيرة: 68

العاطفة	سعيد: يبتسم	حزين: تعابير حزينة	غاضب: يعبس	خائف: تعابير الخوف	مشمئز: تجعيد الأنف	محايد
السعادة	1.00	00.	00.	00.	00.	00.
الحزن	00.	98.	00.	00.	00.	02.
الغضب	00.	00.	91.	00.	09.	00.
الخوف	00.	07.	00.	93.	00.	00.
الاشمئزاز	00.	02.	00.	15..	83.	00.

عدد الإسبان: 113

«الإشارات العاطفية» المذكورة في الجانب الأيمن من الجد
هي عبارة عن صور أشخاص بتعابير وجه مختلفة أراها جار
وكريفيلي للخاضعين للتجربة. أما الكلمات في الأعلى فهي التي
من خلالها الخاضعون للتجربة على تلك الصور. لذا عرف مئة بال
من أولاد المدرسة الإسبانية وجه السعادة على أنه وجه سعادة. ول
58 بالمئة فقط من سكان جزر التروبرياندر استطاعوا ذلك، في ح
نظرت نسبة 23 بالمئة إلى وجه مبتسم وقالوا إنه «محايد». السع
هي العاطفة التي ظهرت فيها أكبر نسبة من التوافق بين سكان الجز
والأولاد الإسبان. عدا ذلك، يبدو أن فكرة سكان التروبرياندر ع
تعابير العاطفة الخارجية مختلفة كلياً عن فكرتنا.

يقول كريفيلي: «أعتقد أن ما فاجأنا أكثر من أي شيء هو حقي
أن ما نفكر فيه في المجتمعات الغربية حول وجه الخوف- وجه أ
خائف- يبدو أنه يظهر بالنسبة إلى سكان جزر تروبرياند كوجه مهدد»
ولكي يعطينا كريفيلي مثالاً، قلّد ما يعرف بأنه وجه خائف: عينا
مفتوحتان، الوجه من لوحة إدوارد مونك الصرخة.

يتابع كريفيلي: «في ثقافتنا، يعني وجهي أنني خائف، خائف
منك. في ثقافتهم... هذا وجه أحد يحاول إخافة أحد ما... وهذا
العكس [عكس ما يعنيه لنا]».

إن شعور الخوف لدى أحد سكان جزيرة تروبرياند ليس مختلفا
عما أشعر به أو ما تشعر به. إنهم يشعرون بالألم نفسه في المعدة الذي
نشعر به. ولكن لسبب ما، لا يظهرون ذلك كما نفعل نحن.

الغضب حالة سيئة أخرى. قد تعتقد أنك وأي شخص في العالم

نعلمان ما يبدو عليه الوجه الغاضب، إنه شعور وجداني.

هذا هو الغضب، صحيح؟

العينان القاسيتان والفم المزموم. ولكن الغضب حيّر سكان الجزيرة. نظروا فقط إلى درجات الوجه الغاضب. لقد قال عشرون بالمئة منهم إنه وجه سعيد، أما سبعة بالمئة فقالوا إنه وجه حزين، في حين قال ثلاثون بالمئة إنه وجه خائف، وظن عشرون بالمئة أنه علامة على القرف، إلا أن سبعة بالمئة منهم كانت إجابتهم متطابقة مع إجابة أولاد المدرسة في مدريد. يقول كريفيلي:

لقد أعطونا كثيراً من المواصفات المختلفة.... قالوا مثلاً: «إنهم يعبسون» وقد استخدموا أحد تلك الأقوال المأثورة التي تعني أن حاجبيه مقطبان. مما يعني تماماً أنه يعبس، لم يشيروا إلى أن ذلك يعني أن الشخص غاضب.

لكي يتأكدا من أن سكان الجزيرة لم يكونوا حالة استثنائية، سافر جاريلو وكريفيلي بعدها إلى الموزمبيق لدراسة مجموعة من

الصيادين المنعزلين المعروفين باسم المواني. مرة أخرى، كان النتائج مثيرة للكآبة. كان أداء المواني أفضل بقليل مع الأوجه المبتسمة، ولكنهم بدوا محتارين مع الأوجه الغاضبة والحزينة. سافرت مجموعة أخرى، تترأسها ماريا جيندرسون إلى جبال شمال غرب ناميبيا لرؤية إذا ما كان الناس هنالك قادرين على ترتيب الصور إلى مجموعات بحسب التعبير العاطفي للشخص الذي في الصورة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك.

حتى المؤرخين بدؤوا الآن بالتدخل. إن كنت تستطيع العودة بالزمن وأريت الرومان والإغريق صوراً يظهر فيها أناس معاصرون يتسمون ابتسامة عريضة، هل سيفسرون التعبير بنفس طريقتنا؟ على الأغلب لا. كما تكتب المتخصصة في الكلاسيكية ماري بيرد في كتابها الضحك في روما القديمة:

نحن لا نقصد أن الرومان لم يقوموا يوماً برفع جانبي أفواههم بالتشكيل الذي يبدو بالنسبة إلينا أشبه بابتسامة، بالطبع رفعوهما ولكن لم يعنِ ذلك كثيراً من ناحية الإيحاءات الاجتماعية والثقافية المحددة في روما. والعكس صحيح، الإيماءات الأخرى، التي قد لا تعني الكثير بالنسبة إلينا، كانت ذات أهمية أكبر.

لو عرضت حلقة فريندز تلك أمام سكان جزر التروبرياند، كانوا سيقولون إن روس يواجه تشاندلر وكانوا سيعتقدون أن تشاندلر غاضب وروس خائف. كانوا سيفهمون المشهد بشكلٍ خاطئ تماماً. ولو عرضت مسلسل فريندز في روما القديمة أمام شيشرون

والإمبراطور ورفاقهما، لكانوا نظروا إلى التجهم والتعابير على أوجه الممثلين وسألوا: ما الذي يحصل؟

5

حسناً. ماذا بشأن ما هو داخل ثقافة؟ لو حددنا أنفسنا بحدود العالم المتطور - ونسينا أمر سكان الجزر وروما القديمة - هل ستعمل قوانين الشفافية الآن؟ لا. لن تعمل.

تخيل السيناريو التالي. تُقاد في رواق طويل وضيق إلى غرفة مظلمة، حيث تجلس وتستمع إلى تسجيل لقصة قصيرة من تأليف كافكا، يلي ذلك اختبار ذاكرة في ما سمعته للتو. تنهي الاختبار وتعود إلى الرواق، ولكن بينما كنت تصغي إلى كافكا، كان هنالك فريق يعمل بجد. في الواقع، كان الرواق عبارة عن حواجز مؤقتة. عملوا الآن على صنع مساحة كبيرة ومفتوحة. للغرفة جدران خضراء زاهية، وقد أنيرت كرسي حمراء بواسطة مصباح يتدلى من السقف، ترى صديقك المقرب يجلس في الكرسي ويبدو جليلاً. تخرج، معتقداً أنك ذاهب للسير في الرواق الضيق نفسه، وفجأة، ترى غرفة مكان الرواق، حيث يجلس صديقك ويحدق إليك كإحدى شخصيات أفلام الرعب.

هل ستتفاجأ؟ بالطبع. وكيف سيبدو وجهك؟ حسناً، لن تبدو مثل أحد سكان جزر تروبرياند أو أحد الرومان الذي عاش في روما القديمة وواجه الوضع نفسه. ولكن في ثقافتنا، في هذا الوقت والمكان، تبدو تلك المفاجأة وكأنها واضحة التعبير. هنالك مثال

ممتاز على ذلك في حلقة فريندز ذاتها. يقتحم جوي، زميل روس في السكن، شقة مونيكا ويكتشف أن اثنين من أفضل أصدقائه يحاولان قتل بعضهما، يعبّر وجهه عن كل شيء عليك معرفته: 2 + 1 AU (حاجبان مرتفعان) إضافة إلى AU 5 (عينان متسعتان) و+ 25 AU 26، (فم مفتوح). كنت ستعبّر عن ذلك بالطريقة التي عبّر فيها و... جوي، صحيح؟ خطأ.

صنع اثنان من علماء النفس الألمان، أخيم شوتزول وريـ... رايزنزاين، السيناريو هذا وأخضعا ستين شخصاً له. على مقياس ... واحد إلى عشرة، سجّل هؤلاء الأشخاص الستون مستوى شعوره... بالمفاجأة، حين فتحوا الباب بعد جلوسهم واستماعهم لكافكا 14... منهم كانوا مصعوقين! وحين سئلوا، أجمعوا تقريباً أن المفاجـ... بدت على وجوههم. ولكنها لم تبدُ. لقد وضع شوتزول ورايزنزاين كاميرا في الزاوية استخدماها لتسجيل تعابير الجميع بالطريقة نفسها التي سجلت بها فوغات التعابير في حلقة فريندز، فوجدا أن... لدى خمس بالمئة من الحالات فقط كانت فيها العينان متسعتين... والحاجبان مرتفعين والفم مفتوحاً. بالمقابل وجدا لدى سبع عشر... بالمئة من الحالات اثنين من هذه التعابير، ووجدا لدى الباقين بعض الاختلاطات أو لا شيء، أو أشياء طفيفة – مثل الحاجبين المقطبين – التي ليس لها بالضرورة علاقة بالمفاجأة.[1]

---

(1) يشير الرقم سبع عشرة بالمئة إلى أن خمسة أشخاص أظهروا التعابير الثلاثة كلها... علاوة على ذلك، بالرغم من أن معظم الناس اعتقدوا أنهم عبّروا عن مفاجأتهم، إلا أن شخصاً واعياً وحيداً قال إنه لا يعتقد أن مفاجأته كانت واضحة إطلاقاً.

كتب شوتزول: «بالغ المشاركون في جميع الحالات بتقدير تعبيرهم عن المفاجأة. لماذا؟ لأنهم ربطوا تعابيرهم الوجهية التي ظنوا أنها حصلت بالأحداث المفاجئة من المعتقدات الخاصة بعلم النفس الشعبي حول روابط العواطف والوجه». علم النفس الشعبي هو نوع من علم النفس الخام الذي نستمده من المصادر الثقافية مثل المسلسلات الكوميدية. لكن ليست تلك الطريقة التي تحدث بها الأمور في الحياة الواقعية. الشفافية خرافة - فكرة استمددناها من مشاهدة كثير من التلفاز وقراءة كثير من الروايات التي تقول إن البطل فتح فمه مندهشاً أو إن عينيه اتسعتا من المفاجأة. يتابع شوتزول: «يبدو أن المشاركين اعتقدوا أنهم، بسبب مفاجأتهم، وبما أن المفاجأة مرتبطة بتعبير وجهي محدد، فلا بد أنهم أظهروا ذاك التعبير. في معظم الحالات، كان هذا الاعتقاد غير صحيح».

لا أعتقد أن هذا الخطأ - توقعُ أن ما يحصل في الخارج يطابق تماماً ما يحصل في الداخل - هو أمر مهم مع أصدقائنا. يتمثل جزء من معرفتك بأحدهم بفهم مدى تميز تعبيره العاطفي.

ذات مرة، كان أبي يستحم في كوخ للعطل حين سمع أمي تصرخ، وعندما هرع إليها، رأى رجلاً شاباً ضخماً يحمل سكين مطبخ بالقرب من عنقها. ما الذي فعله؟ أبق في ذهنك أنه رجل في السبعين من عمره عار ومبلل. أشار إلى المهاجم وقال بصوت عال وواضح: «اخرج الآن». وبالفعل خرج الرجل.

لقد شعر أبي بالخوف في داخله. لقد كانت زوجته الحبيبة، وهي أهم شخص في حياته طيلة نصف قرن، تحت تهديد السكين، ولكن

أشك كثيراً بأن الخوف ظهر على وجهه. لم تتسع عيناه مظهر الخوف، ولم يرتفع صوته. لو كنت تعرف أبي، لكنت رأيته في حالا موترة أخرى، ولكنت فهمت أن الوجه «الخائف»، لسبب ما، لم ي جزءاً من شخصيته. في الأزمات، يصبح في غاية الهدوء. ولكنك لم تكن تعرفه، فكيف ستفكر؟ هل ستستنتج أنه بارد؟ عديم المشا حين نواجه غريباً علينا أن نبدّل فكرة - صورة نمطية - إلى تج مباشرة. وفي معظم الأحيان تكون تلك الصورة النمطية خاطئة.

بالمناسبة، هل تعلمون كيف يعبّر سكان جزيرة تروبرياند المفاجأة؟ حين أتى كريفيلي، كان يملك جهاز آيبود صغيراً، فاجت سكان الجزيرة يتأملونه. «اقتربوا مني. وأريتهم إياه... كانوا مذعورين ولكن ليس بالطريقة المعتادة». قلد تعبير 5 + 2 + 1 AU مثالي. «لا كانوا يفعلون هذا» أصدروا أصواتاً بألسنتهم على أسقف حلوقهم «أصواتاً مثل تسق تسق تسق».

هذا هو التفسير للأحجية الثانية في الفصل الثاني، التي تتحدث عن السبب الذي يجعل من أداء القضاة أفضل بكثير من أداء الحواسيب فيما يتعلق بقرارات الخروج بكفالة، فالحاسوب بخلاف القضا لا يرى المتهم، ومن المنطقي الافتراض أن هذه الناحية الإضافية تجعل منهم صناع قرار أفضل. يمكن لسولومون، أن يبحث في وجه الشخص الواقف أمامه بحثاً عن دليل عن مرض عقلي؛ نظرة حقد أو تأثير مضطرب أو انحراف العينين. يقف المتهم على بُعد لا يزيد على عشرة أقدام من الشخص الذي يقيّمه، ولكن ليست كل المعلومات الإضافية مفيدة حقاً، فالأشخاص المتفاجئون قد لا يُظهرون ذلك،

والأشخاص الذين يملكون مشاكل عاطفية لا يظهر ذلك عليهم أيضاً.

قبل عدة سنوات، وفي دعوى شهيرة في تكساس حدث فيها أن شاباً يدعى باتريك ديل ووكر صوّب مسدسه إلى رأس حبيبته السابقة. حدد القاضي الكفالة بمليون دولار أميركي، ثم خفضها إلى 25000 دولار بعد أن أمضى ووكر أربعة أيام في السجن، معتبراً أن المدة التي أمضاها في السجن كافية كي يهدأ. لاحقاً فسّر القاضي أن ووكر لم تكن لديه أية سوابق في سجله العدلي، ولا حتى مخالفة مرورية. «كان شاباً هادئاً ومتزن الطبع. بحسب ما فهمت، فإن الشاب ذكي حقاً، ومتفوق في صفه، وتخرج من الجامعة. وكانت الفتاة أول فتاة أغرم بها». الأهم من كل شيء وفقاً للقاضي هو أن ووكر أظهر الندم.

اعتقد القاضي أن ووكر كان شفافاً. ولكن ما الذي يعنيه أنه «أظهر الندم»؟ هل كان وجهه حزيناً، وأخفض رأسه وعينيه، بالطريقة التي رأى بها الناس يظهرون الندم في ألف برنامج تلفزيوني؟ ولماذا نعتقد أن قيام أحدهم بما سبق يعني أن هنالك تغييراً كبيراً قد حصل في قلبه؟ الحياة ليست مثل مسلسل فريندز. رؤية ووكر لم تساعد القاضي بل أذته. سمحت له بأن يفسر حقيقة أنه وجّه مسدس إلى رأس حبيبته وفشل في قتلها لأن المسدس لم يطلق الرصاص. بعد أربعة أشهر، من خروجه بكفالة، أطلق النار على حبيبته وقتلها.

كتب تيم مولايناثان:

مهما تكن تلك الاختلافات التي تتسبب بانحراف القضاة عن التوقعات غير الملحوظة- سواء الحالات الداخلية، مثل المزاج أم مزايا محددة من القضية ملحوظة ومقدرة أكثر من اللازم، مثل مظهر

المتهـم – فهـي ليسـت مصـدر معلومـات خاصاً بقدر مـا هي مص
للتوقعات الخاطئة.

تولّد الأمور الملحوظة ضجيجاً وليس إشارة واضحة.

الترجمـة: الميـزة التـي يملكهـا القاضي ولا يملكها الحاسو
ليست في الحقيقة ميزة.

هل علينا أن نأخذ بالاستنتاج المنطقي لدراسـة مولايناثان؟ ه
علينا أن نخفي المتهم عن القاضي؟ ربما حين تظهر امرأة في محك
تضع نقاباً، لا يكون الرد المناسب هو رفض سماع دعواها، بل الط
إلى الجميع أن يرتدوا نقاباً. في هذه الناحية، السؤال الذي يطرح نف
هنـا، إذا كان عليـك الالتقـاء بمربيـة الأولاد قبل أن توظّفها، أو إذا
كان موظِّفـك قـد فعـل الأمر الصحيح في إعادة تحديد موعد لمقاب
وجهاً لوجه قبل تقديم عرض العمل لك.

بالطبـع، نحـن لـم ننبذ اللقاء الشـخصي، هـل يمكننا ذلك؟ ل
يعمـل العالـم بشـكلٍ صحيـح لـو كان كل تفاعـل ذي معنى مجهو
الأطـراف. طرحـت علـى القاضـي سـولومون السـؤال ذاتـه، وعل
التفكير في إجابته.

م غ: ماذا لو لم ترَ المتهم؟ هل لذلك أي أثر؟

سولومون: هل سأفضّل ذلك؟

م غ: هل ستفضل ذلك؟

سولومون: هنالك جزء من دماغي يشير إلى أنني سأفضّل ذلك
لأن اتخاذ القرار الصعب في أن تضع أحداً ما في السـجن سيصب
أسهل. ولكن هذا ليس صحيحاً... هناك إنسان قبضت عليه سلطات

الولاية، والولاية عليها أن تفسر السبب وراء سلبها حرية أحد ما، صحيح؟ ولكن سأعتبرها الآن أداة.

تنتهي مشكلة الشفافية في المكان ذاته الذي انتهت فيه مشكلة افتراض البراءة. إن استراتيجياتنا في التعامل مع الغرباء مشوشة للغاية، ولكنها أيضاً ضرورية اجتماعياً. إننا بحاجة إلى نظام العدالة الجنائية، وعلمية التوظيف، وانتقاء المربيات لكي نكون بشراً. يعني متطلب البشرية أن علينا تحمل كمية هائلة من الخطأ، وهذا هو تناقض التحدث إلى الغرباء. إننا بحاجة إلى التحدث إليهم. ولكننا لا نجيد ذلك - وكما سنرى في الفصلين التاليين، لسنا دوماً صادقين مع بعضنا بعضاً بشأن المدى الذي بلغناه في عدم فهمنا للأمر.

سولومون: لذا بينما أعتقد أن هنالك جزءاً من دماغي يقول: «نعم، سيكون من الأسهل ألا أرى» إلا أن الشخص أمامي ينظر إليّ وأنظر إليه. أفراد عائلته يجلسون بين الحاضرين يلوحون لي بأيديهم خلال نقاش الدفاع، كما تعلم، لديه ثلاثة أفراد من عائلته هنا... عليك أن تعرف أنك تؤثر على شخص ما. ولا يجب الاستخفاف بذلك.

الفصل السابع

شرح (موجز) لقضية أماندا نوكس

1

في ليلة الأول من تشرين الثاني 2007، قام رودي غويدي بقتل ميريديث كيرتشر، وبعد كمّ هائل من الجدال والتوقعات والمناقشات، ثبتت إدانته بما لا يدع مجالاً للشك. لقد كان غويدي شخصية غامضة تتسكع حول المنزل الكائن في مدينة بيروجيا الإيطالية، حيث عاشت الطالبة الجامعية كيرتشر إحدى سنواتها في الخارج. لغويدي سجل إجرامي فقد اعترف بوجوده في منزل كيرتشر ليلة مقتلها، وقدّم أسباباً واهية للغاية لتفسير وجوده هناك، كما أنه وُجد كثير من الـ(دي أن أيه) العائد له في مسرح الجريمة. بعد اكتشاف جثتها غادر فوراً إيطاليا متوجهاً إلى ألمانيا.

لكن لم تكن تحقيقات الشرطة محصورة بغويدي فحسب، بل انصبّت أيضاً على أماندا نوكس شريكة كيرتشر في السكن. فعندما أتت صباحاً إلى المنزل ووجدت الدماء في الحمام، فاتصلت وصديقها رافاييل سوليسيتو بالشرطة. وصلت الشرطة لتجد كيرتشر ميتة في غرفة نومها، خلال ساعات أضافت الشرطة نوكس وسوليسيتو إلى لائحة المشتبه بهم. اعتقدت الشرطة أنّ الجريمة هي بفعل إحدى

الألعاب الجنسية المليئة بالكحول والمخدرات التي انحرفت ..
مسارها، التي شارك فيها كل من غويدي وسوليسيتو ونوكس. ا..
أُلقي القبض على الثلاثة، ووُجهت التهم إليهم وأُدينوا، وأُرسلوا إ
السجن. لقد كانت الصحف الصفراء مهووسة بنشر أحداث ..
الجريمة والتحقيقات المتعلقة بها.

يقول الصحفي البريطاني نيك بيسا: «غالباً ما تثير جرائم الق ا
الناس، فهي مليئة بالغموض والدسائس مثل رواية بوليسية». لقد و..
في الفيلم الوثائقي بعنوان أماندا نوكس؛ وهو واحد من مجمو..
كبيرة من الكتب والمواضيع والمقالات الصحفية والأفلام والبرا..
الإخبارية التي أفرزتها القضية «لقد ارتُكبت جريمة نكراء في ها..
البلدة الجميلة الجبلية ذات المناظر الخلابة التي تقع وسط إيطاليا
رقبة مقطوعة، وجسد شبه عارٍ، والدماء تلطخ كل مكان، أقصد ا
أقول؛ ماذا تريد أكثر من ذلك في قصة ما؟».

تبدو بعض قصص الجرائم المميزة مثل قضية أو جي سيمبسو..
وجونبينيت رامزي، مدهشة عندما تكتشفها حتى بعد خمس أو عش..
سنوات. لكنّ قضية أماندا نوكس ليست كذلك، فهي مبهمة تما..
عند إعادة التفكير فيها ا. لم يكن هناك أي دليل مادي يربط نوكس
أو صديقها بالجريمة، ولم يكن هناك أي تفسير منطقي لسبب انخرا..
نوكس -فتاة من الطبقة المتوسطة في سياتل غير ناضجة ولم تخت..
مصاعب الحياة -في ألعاب جنسية إجرامية مع متشرد مضطرب
بالكاد تعرفه. لقد أظهرت تحقيقات الشرطة أنها لم تكن محترفة
فتحليل الـ(دي أن أيه) الذي ربطها مع سوليسيتو بالجريمة كان إجرا..

فاشلا للغاية. كما كان المدعي العام عديم المسؤولية ومهووساً إلى حد بعيد بأوهام تتعلق بالجرائم الجنسية. مع ذلك تطلب الأمر من المحكمة الإيطالية العليا ثماني سنوات بعد الجريمة كي تُعلن في نهاية المطاف براءة نوكس. وحتى في ذلك الوقت، لم يوافق كثير من المفكرين الأذكياء على ذلك. عندما أُطلِق سراح نوكس من السجن، تجمعت حشود كبيرة غاضبة في ساحة بلدة بيروجيا للاحتجاج على إطلاق سراحها. لم يكن هناك أي معنى لقضية أماندا نوكس.

يمكنني أن أقدّم لكم تحليلاً دقيقاً حول أخطاء التحقيقات بجريمة قتل كيرتشر، ويمكن بسهولة لذلك أن يكون بحجم هذا الكتاب، كما يمكنني أيضاً أن أُحيلكم إلى بعض أكثر التحليلات العلمية الشاملة المتعلقة بأوجه القصور القانونية للتحقيقات، مثل تحقيقات بيتر غيل الدقيقة «تحليل الأخطاء القضائية في قضية أماندا نوكس ورافاييل سوليسيتو وتداعياتها» في عدد تموز 2016 لمجلة الجريمة وعلوم الأدلة الجنائية الدولية، الذي تضمن فقرات مثل:

إنّ ناتج الـ(دي أن أيه) المفصّل للعينة ب تعرض لفصل كهربائي هلامي محدود. وقد أظهر رسم الفصل الكهربائي البياني مستويات ذروة كانت تحت عتبة التقرير إضافة إلى خلل في الجينات المتنحية في معظم المواقع الوراثية. لقد أحصيتُ فقط ستة جينات متنحية كانت فوق عتبة التقرير. وأظهر رسم الفصل الكهربائي البياني تحليلاً جزئياً للـ(دي أن أيه) تمّ الادعاء أنه مطابق لميريديث كيرتشر، وبالنتيجة، كانت العينة ب هي الحد الفاصل بالنسبة إلى التأويلات.

لكن بالمقابل، دعوني أقدم لكم أبسط نظريات أماندا نوكس

الممكنة وأقصرها. إن قضيتها تتمحور حول مفهوم الشفافية. إذا تعتقدون أنّ الطريقة التي يبدو من خلالها أحد الغرباء ويتصرف و دليلٌ موثوقٌ على الطريقة التي يشعر بها -إذا كنتم تقبلون بمغالا مسلسل فرانذز - فستقترفون الأخطاء. لقد كانت أماندا فوكس وا من تلك الأخطاء.

2

دعونا نعود قليلاً إلى نظريات تيم ليفين التي تحدثت عنها الفصل الثالث. فقد وضع ليفين خطة سرية لطلاب الجامعة، و لهم اختباراً مسلياً ليقوموا به. في أثناء الاختبار، غادرت الم الغرفة تاركةً الأجوبة على الطاولة. فيما بعد، أجرى ليفين مقابلا مع الطلاب وسألهم بصراحة إن أقدموا على الغش. بعضهم ك وبعضهم قال الحقيقة. ومن ثم، أظهر للناس فيديوهات عن تا المقابلات، وطلب إليهم تحديد الطلاب الكاذبين.

طيلة سنوات، أجرى علماء الاجتماع صيغاً معدلة من التجربة. لديكم شخص «مُرسِل» - موضوع البحث - و«قاض» وأنتم تقيسون مدى دقة القاضي في تحديد كذب الشخص المُرس ما اكتشفه ليفين هو ما يجده دائماً علماء النفس في هذه القض وهو أنّ معظمنا لا يجيد اكتشاف الكذب. بمعدل وسطي، ين القضاة بمعرفة الكذابين بنسبة 54 بالمئة ؛ وهذا يعني أن معدل أفضل بقليل مما يحصل مصادفة. وهذا صحيح بغض النظر ع يقوم بالحُكم. الطلاب، أم عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي،

ضباط المخابرات المركزية، أم المحامون، الجميع فظيعون. ربما هناك حفنة من المحققين الخارقين الذين يخالفون التوقعات. لكن إذا كانوا موجودين، فهم نادرون. فما هو السبب؟

الجواب الأول هو ما تحدثنا عنه في الفصل الثالث. نحن منحيزون للحقيقة. بالنسبة إلى ما يتبين أنها أسباب مقنعة، فنحن نمنح من الفائدة من قرينة الشك ونفترض أنّ الناس الذين نتحدث معهم نزيهون. لكن هذا التفسير لم يرضِ ليفين. من الواضح أنّ المشكلة أعمق من افتراض الحقيقة. وبشكل خاص، فقد صُعِق لمعرفة أنّ الكذب في أغلب الأحيان يُكتشف بعد الحقيقة، بأسابيع وشهور، وأحياناً بعد سنوات.

على سبيل المثال، عندما قال سكوت كارمايكل لآنا مونتيس في أثناء لقائهما الأول: «اسمعي يا آنا، لديّ أسباب لأشكّ بأنك ربما تكونين متورطة بعملية استخبارات مضادة». ما كان منها إلا أن جلست ونظرت إليه مثل غزال يقف أمام أضواء السيارة الأمامية. عند التفكير في ما حدث في السابق، اعتقد كارمايكل أن ذلك كان إنذاراً، فلو كانت بريئة، لقالت شيئاً ما؛ صرختْ أو احتجتْ. لكنّ مونتيس لم تقم بأي شيء سوى الجلوس».

في تلك اللحظة، لم يتمكن كارمايكل من فهم الأمر على حقيقته، ولم يُفتضح أمر مونتيس إلا بعد أربع سنوات، ومصادفةً. ما وجده ليفين هو أننا غالباً لا نستطيع معرفة الحقيقة الدامغة في لحظتها وهذا ما جعله محتاراً، لماذا؟ ما الذي يحدث عندما يطلق أحدهم كذبة، ويحرفنا عن المسار الصحيح؟ من أجل معرفة الجواب، عاد

ليفين إلى فيديوهاته.

ها هنا مقتطفات من فيديوهات أخرى أراني إياها ليفين. إ
تخص إحدى الفتيات؛ دعونا نسميها سالي. وجّه لها ليفين أس
مباشرة من دون أية مشاكل وعندئذٍ أتت اللحظة الحاسمة:

المحاور: الآن، هل حصل غش عندما غادرت رايتشل الغر

سالي: لا.

المحاور: هل تخبرينني الحقيقة؟

سالي: نعم.

المحاور: عندما أقوم باستجواب شريكك سأطرح عليه الس
ذاته. ما الذي سيقوله؟

تصمتُ سالي وتبدو محتارة.

سالي: ربما... الجواب نفسه.

المحاور: حسناً.

في اللحظة التي طرح فيها ليفين السؤال: «هل حصل أي ن
من الغش؟» بدأ وجه سالي وذراعاها يتحولان إلى اللون الأ
الزاهي. لن يكون من المنصف أن نطلق على هذه الحمرة ح
الخجل الناتجة عن الشعور بالإحراج. لقد أعطت سالي معنى جد
بالكامل لعبارة «قُبِض عليه متلبساً بالجرم». عندئذٍ آن أوان السؤ
الحاسم: «ماذا سيقول شريكك؟» لم تستطع سالي محمرة الوجه ق
عبارة مقنعة مثل «سوف يتفق كلامه مع ما أقوله». لقد ناورت قا
بصوت منخفض: «ربما... الجواب نفسه». ربما؟ سالي المح

الوجه تكذب، وكل من تم استدعاؤه للحكم على شريط الفيديو أدرك أنها تكذب.

هاهنا شريط الفيديو التالي الذي أراني إياه ليفين. إنه لامرأة أمضت المقابلة بأكملها وهي تداعب شعرها بهوَس. فلنسمها نيللي العصبية.

المحاور: الآن، عندما غادرت راتشيل الغرفة، هل حصل أي نوع من الغش؟

نيللي العصبية: في الحقيقة لم يُرد شريكي النظر إلى النتائج، وقلت له، دعنا نرى ما هي أخطاؤنا، لم يكن غشاً. أظن أنّ هذا خطأ، ولذا لم أنظر. قلتُ له لا، وكأني قلتُ: «لا أريد أن أفعل ذلك». لكنه قال: «حسناً، سوف ننظر فقط إلى واحدة» وكأني قلت: «لا، لا أريد أن أفعل ذلك». لستُ أدري إذا كان ذلك جزءاً منه أم لا، لكن لا، لم نفعل ذلك.

المحاور: «حسناً، إذن أنتِ تقولين لي الحقيقة بشأن الغش؟».

نيللي العصبية: «نعم، لم نفعل، لقد أراد... قال شريكي بصراحة: «سوف ننظر إلى واحدة فقط». وكأني قلتُ: «لا، هذا ليس جيداً، لا أريد أن أفعل ذلك». الشيء الوحيد الذي قلته كان: «أنا مندهشة لأنهم تركوا كل المال هنا». أنا بصراحة لا أسرق أو أغش، أنا شخص صالح. كنتُ مندهشة نوعاً ما فحسب، لأنه عادة عندما يغادر الناس ويتركون المال وراءهم، سوف تأخذه؛ هذا ما يفعله الجميع. لكن لا، لم نغش. لم نسرق أي شيء.

لم تتوقف أبداً عن مداعبة شعرها وكذلك لم تتوقف التفسيرات

المتكررة الدفاعية للغاية، ولا الانفعال المتململ قليل الحدة.

المحاور: «حسناً، عندما أستدعي شريكك للمقابلة، بم
سيجيب عن هذا السؤال؟».

نيللي العصبية: «ربما سيقول إنه كان يريد أن ينظر».

المحاور: «حسناً».

نيللي العصبية: «إذا قال خلاف ذلك، فهذا غير جيد على الإط
لأني قلت: «لا، لا أريد أن أغش أبداً». وقالت: «لِمَ لا ننظر إلى وا
فحسب؟». قالت: «حسناً، الأجوبة موجودة هناك تماماً»، وكأني قا
«لا، لن أفعل ذلك، ليس هذا ما أنا عليه، وليس هذا ما أفعله».

كنتُ مقتنعاً بأنّ نيللي العصبية تكذب وكنتم ستستنتجون الا
نفسه لو رأيتموها في أثناء حدوث ذلك. لقد اعتقد الجميع أنّ نيا
العصبية كانت تكذب لكنها لم تكن كذلك! عندما استُدعي شريكه
أكد كل ما قالته نيللي العصبية.

لطالما وجد ليفين هذا النمط مرة بعد أخرى. على سبيل الم
في إحدى التجارب، كانت هناك مجموعة من الأشخاص الذين
اللقاء بهم وقد أخطأ 80 بالمئة من القضاة بحقّهم. ومجموعة أخر
كان 80 بالمئة من القضاة محقين بشأنهم.

حسناً، ماذا يفسر هذا؟ يقول ليفين إنّ هذا هو افتراض الشفا
في العمل. فنحن نميل للحكم على نزاهة الناس بناءً على سلوك
وتصرفاتهم، إذ يُنظر إلى الناس الودودين والجذابين والمتحد
الواثقين من أنفسهم ذوي المصافحة القوية باليد، على أنهم صادقو
أما الناس العصبيون والمراوغون والمتلعثمون والمتضايق

الذين يقدمون تفسيرات ملتوية فهم كاذبون. في إحدى الدراسات الاستقصائية حول الموقف من الاحتيال التي أُجرِيت قبل بضع سنوات، وشملت آلافاً من الناس في ثمانية وخمسين بلداً حول العالم، قال 63 بالمئة من الذين سُئِلوا إنّ الإشارة التي استخدمها أغلبهم لكشف الكاذب كانت «نظرة الاشمئزاز».

نحن نعتقد أنّ الكاذبين في الحياة الواقعية يتصرفون كما يتصرف الكاذبون في مسلسل فراندز، يرسلون إشارات عن حالتهم الداخلية بعيون مرتبكة ذات حركة سريعة.

هذا هراء، إن أردنا أن نستعمل لفظاً لطيفاً، فالكاذبون لا يشيحون بنظرهم. لكنّ وجهة نظر ليفين هي أنّ اعتقادنا المتعنت بمجموعة من بعض التصرفات غير اللفظية المترافقة مع الاحتيال، يفسّر النمط الذي وجده ضمن فيديوهاته. إنّ الأشخاص الذين نفهمهم بشكل صحيح هم أولئك الذين يتطابقون؛ الذين يُصادف أنّ مستوى صدقهم يتماشى مع الشكل الذي يبدون عليه. تتطابق شخصية سالي المحمرة الوجه مع ذلك. فهي تتصرف طبقاً للصورة النمطية التي يتصرف بها الشخص الكاذب. ويصدف أيضاً أنها تكذب. لهذا السبب جميعنا نفهمها بشكل صحيح. في مسلسل فراندز، عندما تخبر مونيكا أخاها روس بشأن علاقتها، فهي تُمسِك بيد روس وتقول: «أنا آسفة جداً لأنك اضطررت أن تكتشف ذلك بهذه الطريقة. أنا آسفة. لكن هذا صحيح، أنا مغرمة به أيضاً». لقد صدقنا لحظتها أنها آسفة وأنها مغرمة، لأنها تتطابق بشكل تام. فقد كانت صادقة وبدت كذلك.

لكن عندما يتصرف أحد الكاذبين كشخص صادق، أو عندما

يتصرف شخص صادق كأنه كاذب، فنحن نصاب بالذهول والار... لا تتطابق نيللي العصبية مع ذلك، فهي تبدو كاذبة، لكنها ليـ... كذلك، إنها عصبية فحسب. بكلمات أخرى؛ البشر ليسوا أ... كشف كذب سيئة. نحن أجهزة كشف كذب سيئة في تلك الحال... عندما يكون الشخص الذي نقيمه غير متطابق.

في مرحلة ما من مراحل ملاحقته لبيرني مادوف، اقترب ها... ماركوبولوس من أحد الصحافيين المخضرمين المختصين بالشـ... المالية ويدعى مايكل أوكرانت. لقد أقنع ماركوبولوس أوكرانت ... ينظر بجدية إلى مادوف باعتباره محتالاً محتملاً، لدرجة أنّ أوكرا... أخذ موعداً ليقابل مادوف شخصياً. لكن ماذا حدث؟

بعد مُضيّ سنوات، قال أوكرانت: «لم تكن أجوبته أكثر ما أثا... إعجابي، بل كان سلوكه العام».

كان من المستحيل أن تجلس معه وتصدق أنه محتال كبي... أتذكر وأنا أفكر، إذا كان (فريق ماركوبولوس) على حق وهو يد... عملية احتيال، فهو إما أفضل ممثل رأيته في حياتي وإما أنه مخـ... عقلياً بشكل كامل. لم يكن هناك أي دليل على الذنب أو الخجـ... أو الندم. لقد كان متواضعاً جداً، حتى إنه بدا وكأنه يشعر بأنّ اللقا... مسلٍ. كان سلوكه نوعاً من «من ذا سليم العقل الذي يمكنه أن يشا... بي؟ لا أستطيع أن أصدّق أنّ الناس يهتمون بشأن ذلك».

لم يكن مادوف متطابقاً، بل كان كاذباً يتصرف تصرفات رجل صادق. وأوكرانت -الذي كان يعلم بأنّ هناك خطباً ما- كان متأثراً جداً بلقاء مادوف الذي توقف عن الحديث بالقصة. هل يمكنكم...

لومه؟ أولاً هناك غياب للحقيقة الأمر الذي يعطي الأفضلية لمحترف فن الاحتيال. لكن عندما تضيف عدم التطابق إلى ذلك، فليس من الصعب فهم سبب خداع مادوف لكثيرين ولمدة طويلة.

لماذا أساء كثير من السياسيين البريطانيين الذين التقوا هتلر فهمه إلى ذلك الحد؟ لأنّ هتلر لم يكن متطابقاً أيضاً. تذكروا ملاحظة تشامبرلين حول الطريقة التي صافحه بها هتلر بكلتا اليدين، وهذا ما جعل تشامبرلين يعتقد أنّ هتلر يفعل ذلك مع الناس الذين يحبهم ويثق بهم بالنسبة إلى كثيرين منا، المصافحة الدافئة والحماسية تعني أننا نشعر بالدفء والحماسة بشأن الشخص الذي نقابله. لكن هتلر لم يكن كذلك، فهو شخص غير نزيه يتصرف على أنه نزيه[1]

(1) إليكم مثال آخر: دزوخار تسارناييف، أحد أخوين شيشانيين خططا لسلسلة من التفجيرات في ماراثون بوسطن عام 2013. كان الموضوع الرئيسي في محاكمة تسارناييف هو هل سينجو من عقوبة إعدام؟ لقد جادلت المدعية العامة نادين بيلليغريني بشدة كي لا ينجو منها، لأنه لم يشعر بأي ندم على أفعاله. أظهرت بيلليغريني لهيئة المحلفين في إحدى المراحل، صورة لتسارناييف في زنزانته، وهو يرفع إصبعه الوسطى أمام الكاميرا الكائنة في الزاوية. قالت: «كانت لديه رسالة واحدة أخيرة ليرسلها» ووصفت تسارناييف بأنه «غير مبال وغير نادم ولم يتغير». كتب سيث ستيفنسون في مجلة سلايت، مساء يوم النطق بالحكم قائلاً:

«بالرغم من أنه من الخطير تأويل التراخي والتشنجات اللاإرادية، فمن المؤكد أنّ تسارنايف لم يبذل جهداً كبيراً كي يظهر مُعذّباً أو نادماً أمام هيئة المحلفين. لم تكن دقة كاميرات الدارة المغلقة التي تبث من قاعة المحكمة إلى وسائل الإعلام يوم الثلاثاء، عالية بما يكفي لدرجة أن أقسم مئة بالمئة على هذا الأمر، لكنني متأكد تماماً من أنه بعد أن أظهرت بيلليغريني تلك الصورة له وهو يرفع إصبعه الوسطى، كان تسارناييف يبتسم ابتسامة متكلفة.

من المؤكد أنّ تسارناييف قد أُدين وحُكِم عليه بالإعدام. فيما بعد، قال عشرة من أصل اثني عشر شخصاً يؤلفون هيئة المحلفين إنهم يعتقدون بأنه لم يشعر بالندم.

3

حسناً، ما هي مشكلة أماندا نوكس؟ لم تكن متطابقة
الشخص البريء الذي يتصرف وكأنه مذنب. إنها نيللي العصبية
لقد كانت نوكس - بالنسبة إلى من لا يعرفونها - مثيرة لل
ففي وقت الجريمة كانت جميلة وفي العشرين من عمرها،
وجنتيها ا بارزة وعيناها زرقاوان أخاذتان. كان اسمها المس
«فوكسي نوكسي» وقد حصلت الصحف الصفراء على لائحة بأس
كتبتها لكل الرجال الذين عاشرتهم. كانت المرأة الفاتنة الطا
الجمال؛ الشهوانية والوقحة. في اليوم الذي أعقب جريمة
شريكتها في السكن، شوهدت وهي تشتري ملابس داخلية حـ
اللون من المتجر مع صديقها.

لكن كما تشير عالمة النفس ليزا فيلدمان باريت، كل ذلك النقاش فيما إذا
تسارنايف قد ندم أم لم يندم على أفعاله، هو مثال رائع عن أوجه قصور الشدا
لقد افترضت هيئة المحلفين أنه مهما كان ما يشعر به تسارنايف في قلبه فـ
يظهر تلقائياً على وجهه، بطريقة تتطابق مع الأفكار الأميركية بشأن كيف يُفتر
بالعواطف أن تظهر. لكنّ تسارنايف لم يكن أميركياً. تكتب باريت في كتابها (
يتم تشكيل العواطف):

في قضية تفجير ماراثون بوسطن، في حال شعر تسارنايف بالندم على أفعا
كيف كان سيعبّر عن ندمه؟ هل كان سيبكي علناً؟ يرجو الغفران من ضحاياه؟ يـ
أخطاء وسائله؟ ربما، لو كان يتبع النمطية الأميركية في التعبير عن الندم، أو
كانت هذه محاكمة في فيلم هوليوودي. لكنّ تسارنايف شاب شيشاني مسلم.
والثقافة الشيشانية تتوقع من الرجال أن يكونوا صبورين في وجه المحن.
خسروا معركة، فيجب عليهم تقبّل الهزيمة بشجاعة، إنها عقلية تُعرف باسم «ال
الشيشاني». لذا في حال شعر تسارنايف بالندم، فلربما يبقى محتفظاً بوجه
حجر.

في الحقيقة، ليس للاسم المستعار «فوكسي نوكسي» أية علاقة بالجنس. فقد أطلقه عليها أعضاء فريق كرة القدم عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها بسبب طريقتها البارعة في تناقل الكرة. كانت تشتري ملابس داخلية حمراء اللون بعد يوم من مقتل شريكتها في السكن لأنّ منزلها كان مسرحاً للجريمة ولم تتمكن من الوصول إلى ملابسها. لم تكن امرأة طاغية الجمال[1] بل مجرد شابة غير ناضجة كانت انتهت من مرحلة المراهقة ذات بثور الوجه المربكة. شهوانية ووقحة؟ في الحقيقة كانت أماندا فوكس شخصية مضطربة نوعاً ما.

تكتب في مذكراتها التي نشرتها في العام 2011 بعد أن أُطلِق سراحها من أحد السجون الإيطالية: «كنت الفتاة غريبة الأطوار التي تتسكع مع قارئي مجلات الرسوم الكرتونية اليابانية المتجهمين، والمنبوذين، والمهووسين بالمسرح».

في المدرسة الثانوية، كانت فتاة من الطبقة المتوسطة تتابع تعليمها عبر معونات مالية وهي محاطة برفاق صف أثرياء. «أمسكتُ بيدي إحدى المجلات اليابانية، وأخذت أغني بصوت مرتفع في الممرات، في حين أنني كنت أتنقل من صف إلى آخر. وبما أني حقاً لم أكن مندمجة في الجو فقد تصرفت على طبيعتي بطريقة لم

---

(1) لم تكن لائحة عشاق نوكس ما بدت عليه أيضاً. ففي مسعى لتخويفها، كذبت الشرطة الإيطالية على نوكس وأخبرتها أنها مصابة بالإيدز. نوكس التي تشعر بالخوف والوحدة في زنزانتها، كتبة قائمة بشركائها الجنسيين السابقين لتعرف كيف يمكن أن يكون هذا الأمر صحيحاً.

أفعلها من قبل أبداً».

ينسجم الناس المتطابقون مع توقعاتنا فنواياهم متسقة مع تصرفاتهم، أما غير المتطابقين فهم مربِكون ولا يمكن توقع تصرفاتهم: «قد أفعل أشياء يمكن أن تسبب الإحراج لمعظم البالغين والمراهقين -التجول في الشارع كامرأة فرعونية أو المشي مثل الـ... -لكنّ الأولاد يجدون ذلك أمراً مثيراً للضحك لدرجة أنهم يسقطون أرضاً».

لقد غيّرت جريمة قتل كيرتشر من طريقة تصرّف دائرة أصدقائها، فقد كانوا يبكون بهدوء، ويتكلمون همساً، ويتمتمون بعبارات التعاطف، أما نوكس فلم تكن كذلك.

استمعوا فقط إلى حفنة من الاقتباسات التي أخذتها -بشكل عشوائي- من مقالة الصحافي البريطاني جون فولين، (موت في بيروجيا). صدقوني هناك المزيد من ذلك. هنا يصف فولين ما حدث عندما التقى أصدقاء كيرتشر مع نوكس وسوليسيتو في مركز الشرطة بعد يوم من الجريمة.

تنهدت صوفي وهي تعانقها بذراعيها كعناق الدببة بشكل عفوي، قائلةً: «أماندا، أنا آسفة جداً».

لم تبادلها أماندا العناق بل تجمدت في مكانها، وأرخت ذراعيها إلى الأسفل، ولم تنبس ببنت شفة.

بعد ثوانٍ، أبعدت صوفي المذهولة ذراعيها عنها، وتراجعت إلى الخلف. لم يكن هناك أي أثر للمشاعر على وجه أماندا. بالمقابل تقدم رافاييل نحو أماندا، وأمسك بيدها. بقي الثنائي واقفاً هناك فحسب،

..جاهلين صوفي وهما يحملقان إلى بعضهما.

ثم:

جلست أماندا، ووضعت قدميها على حضن رافاييل... بدأ الاثنان بمداعبة بعضهما وتبادل القبل، وكانا يضحكان في بعض الأحيان.

سألت صوفي نفسها، كيف أمكن لأماندا أن تتصرف بهذا الشكل؟ ألا تهتم؟

ثم:

كان معظم أصدقاء ميريديث يبكون وبدوا منهارين، لكنّ أماندا ورافاييل كانا يصدران أصواتاً وهما يتبادلان القبلات أو يرسلان القبلات إلى بعضهما.

بعد ذلك:

قالت ناتالي: «لنأمل أنها لم تتعذب».

ردّت أماندا بحدة: «ماذا تعتقدين؟ لقد حزوا عنقها يا ناتالي ونزفت حتى الموت!».

أصابت كلمات أماندا ناتالي بالرعشة، وأذهلتها كلماتها عن عدة قتلة، وبسبب برودة نبرة صوتها، اعتقدت ناتالي أن موت ميريديث لم يكن أمراً مهماً بالنسبة إلى أماندا.

في لقاء لدايان سوير من محطة إي بي سي نيوز مع نو
ذكرت آخر محادثة في مخفر الشرطة حين انتفضت نوكس
أصدقاء كيرتشر قائلةً: «لقد نزفت حتى الموت».

نوكس: نعم، كنتُ غاضبة، وأنا أفكّر في ما عانته ميريديث
أثناء احتضارها.

سوير: هل تشعرين بالأسف الآن؟

نوكس: بالتأكيد، آمل لو أني كنتُ أكثر نضجاً بشأن ذلك.

في مواقف كانت تستدعي رد فعل متعاطف، كانت نو
غاضبة وعصبية. تستمر المقابلة:

سوير: تعرفين أنّ هذا لا يبدو حزناً. ولا يمكن فهمه على
حزن.

لقد أُجريت المقابلة بعد وقت طويل من تبيان وقوع الخ
القضائي في قضية كيرتشر. وقد أُطلِق سراح نوكس بعد أن أمض
أربع سنوات في أحد السجون الإيطالية جراء جريمة عدم التصر
بالشكل الذي نعتقد أنه يُفترض بالناس القيام به بعد مقتل شركائ
في السكن. لكن، ما الذي تقوله لها دايان سوير؟ إنها توبخها لعد
تصرفها بالشكل الذي يُفترض بالناس أن يتصرفوا وفقه بعد مقت
شركائهم في السكن.

يقول مذيع الأخبار توطئةً للمقابلة، إنّ قضية نوكس تبقى مثي
للجدل لأنه في الماضي: «بدا التماسها للبراءة بالنسبة إلى كثير م
الناس محسوباً وبارداً أكثر مما هو معبّر عن الندم» من الغريب قبو

ذلك أليس كذلك؟ لمَ يجب علينا أن نتوقع من نوكس أن تكون نادمة؟ نحن نتوقع الندم من المذنب، ونوكس لم تكن مذنبة. لكنها لا تزال تُنتَقد لكونها «باردة وكلامها محسوب». لا يمكن لنوكس أن تفر من الانتقاد في أي مكان بسبب غرابة طباعها.

نوكس: أظن أنّ الناس يعبرون بطرق مختلفة لدى وقوع شيء فظيع ما.

إنها محقة! لمَ لا يُصاب شخص ما بالغضب بدلاً من الحزن بكونه رد فعل على جريمة قتل؟ لو كنتَ صديقاً لأماندا نوكس، لم يكن لشيء من ذلك أن يصيبك بالدهشة. كنتَ سترى نوكس تمشي في الشارع مشية الفيلة. لكن بالنسبة إلى الغرباء، لا يمكننا تحمّل ردود الفعل العاطفية التي تخرج عن نطاق توقعاتنا.

بينما كانت تنتظر استجواب الشرطة لها بعد أربعة أيام من اكتشاف جثة كيرتشر، قررت نوكس أن تتمطّى قليلاً، بعد أن جلست مسترخية لساعات طويلة. لمست أطراف أصابع قدميها، ثم رمت بذراعيها فوق رأسها. قال لها ضابط الشرطة المناوب: «تبدين مرنة حقاً».

أجبتُ: «لقد اعتدتُ أن أقوم بكثير من تمارين اليوغا». قال: «هل يمكنكِ أن تُريني؟ ماذا يمكنكِ أن تفعلي أيضاً؟». مشيتُ عدة خطوات نحو المصعد، وفسختُ ساقيّ. شعرتُ بالارتياح لأنني لا أزال أستطيع القيام بذلك. وبينما كنتُ على الأرض مباعدة بين ساقيّ، فُتِح باب المصعد، وخرجت ريتا فيكارا، الشرطية التي وبختني

أنـا ورافاييـل بسـبب تبادل القبـلات بالأمس، ثم قالـت بصوت ... الاحتقار: «ماذا تفعلين؟».[1]

يقول المحقق الرئيسي في القضية، إدغاردو جيوبي إن الش... انتابتـه بشـأن نوكـس منـذ اللحظة التي مشـت فيها معه داخل مس... الجريمـة. بينمـا كانـت تتنعل حـذاء الحمايـة، أدارت ردفيها وقا... «تا-دا».

قـال جيوبـي: «كنـا قادرين على إثبات الجرم عبـر مراقبة لـ... لردود الفعل السـلوكية والنفسـية للمتهم في أثناء الاسـتجواب. لـ... بحاجة إلى الاعتماد على أي نوع آخر من التحقيقات».

تجاهـل المدعـي العام في القضية جيوليانو ميغنيني، الانتقاد... المتزايدة لطريقة تعامل مكتبه مع الجريمة. لماذا يركز الناس كثيراً عا... تحليـل ال(دي أن أيـه) الفاشـل؟ قال: «لكل جـزء من الدليل جوا... مـن عـدم اليقين». كان الموضوع الأساسـي هو أماندا غير المتطابقـ... «يجـب علـيّ أن أذكّركـم بأنّ تصرفاتها كانت غير قابلة للتفسير كليـ...

---

(1) هناك كمية لا تحصى من هذا النوع من الأشياء. بالنسبة إلى المدعي العام ... القضية، كانت اللحظة المؤثرة عندما أخذ نوكس إلى المطبخ لينظر إلى د... السكاكين، وليرى في حال كان هناك أي شيء مفقود. «بدأت تضرب راحتي يد... بأذنيها. وكأنّ هناك ذكرى لضجيج ما، لصوت، لصرخة. صرخة ميريديث. من دو... شك، بدأت أشك بأماندا».

أو هذه: عند العشاء مع أصدقاء ميريديث في أحد المطاعم، قامت أماندا بالغنا... على حين غرة. تكتبُ قائلةً: «لكن ما يدعو للضحك في سياتل يجلب نظرات تسبب... الحرج في بيروجيا، لم يتضح لي أنّ الأشياء الغريبة نفسها التي يجدها أصدقائي... محببة يمكن في الحقيقة أن يهينها الناس الذين كانوا أقل تقبلاً للاختلافات».

«لم تكن منطقية. لم يكن هناك شك في ذلك».[1]

من بيرنارد مادوف وصولاً إلى أماندا نوكس، نحن لا نحسن التعامل مع غير المتطابقين.

4

إنّ أكثر ما يدعو للقلق بين اكتشافات تيم ليفين، أنه عندما أظهر فيديوهاته الخاصة بالكذب لمجموعة مخضرمة من مسؤولي تطبيق القانون؛ أشخاص لديهم خبرة بالاستجواب تعود لخمسة عشر عاماً أو أكثر. لم يحسنوا التعامل معها، لكن ربما هذا مُتوَقَّع. إذا كنتَ وكيل عقارات أو متخصصاً بالفلسفة، فإنّ تحديد الخداع في أي استجواب ليس أمراً تقوم به كل يوم. لكن ربما، كما كان يعتقد، سيكون من الأفضل بالنسبة إلى الأشخاص الذين يقتضي عملهم أن يفعلوا ذلك أن يجيدوا القيام بالشيء الذي كان يقيسه.

كانوا كذلك في جانب من الجوانب. كانوا المحققين المخضرمين الرائعين بالنسبة إلى المُرسلين «المتطابقين». ربما نتفق أنا وأنت على ما نسبته 70 أو 75 بالمئة من تلك الفيديوهات. لكنّ الجميع في مجموعة ليفين من ذوي الخبرات العالية حددوا كل واحد من المرسلين المتطابقين بشكل صحيح. لكن بالنسبة إلى المرسلين

(1) «المثير للدهشة بالنسبة إليّ بشأن أماندا نوكس هو أنّ حماقتها البسيطة كانت السبب في تدميرها، الحماقة اليومية الموجودة في كل باحة مدرسة وفي كل مكان عمل». كتب الناقد توم ديبلي في مقالات متبصرة عن القضية: «هذا نموذج بسيط من الحماقة التي تثير الشكوك والشائعات، النموذج البسيط من الحماقة الذي يحدث في حياتنا اليومية ويحدد من نختار أن نتبعه ومن نختار أن نُبعد أنفسنا عنه».

غير المتطابقين، كان أداؤهم مزرياً: استطاعوا معرفة 20 بالمئة منهم بشكل صحيح. وبالنسبة إلى الفئة الفرعية التي تضم الكذابين الذ يدّعون الصدق، فقد استطاعوا تحديد 14 بالمئة منهم وهي نتي منخفضة للغاية يُفترض بها أن تصيب بالقشعريرة كل عميل منخر باستجواب مع أحد عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي. عندما تم مواجهتهم مع سالي المحمرة الوجه -القضية السهلة -لم يرتكبوا أ خطأ. لكن عندما يتعلق الأمر بقضية أماندا نوكس وبيرني مادوف أصبحوا عاجزين.

هذا أمر مقلق لأننا لسنا بحاجة إلى خبراء تطبيق القانون لمساعد بشأن الغرباء المتطابقين. فكلنا جيدون في معرفة متى يضللنا ذل النوع من الأشخاص أو متى يقولون لنا الحقيقة. نحن بحاجة إل المساعدة عندما نتعامل مع الغرباء غير المتطابقين -القضايا الصعب يجب على أي محقق مدرب أن يكون متمرساً في الوصول إل ما وراء الإشارات المربكة للسلوك، ومدركاً أنه عندما تقدّم نيلل العصبية تفاسيرها بشكل مفرط وتصبح دفاعية في تصرفاتها، فه تتصرف وفق ما هي عليه؛ شخص يُفرط بالتفسير ويصبح دفاعيا يتعين على ضابط الشرطة أن يكون الشخص الذي يرى الفتاة الغري ذات التصرفات غير اللائقة بالنسبة إلى ثقافة ما بشكل مختلف تما عندما تقول «تا-دا» ويدرك أنها مجرد فتاة غريبة التصرفات في ثقاف مختلفة تماماً عن ثقافتها. لكن هذا ليس ما نراه. بدلاً من ذلك، يبد الأشخاص المسؤولون عن اتخاذ قرارات البراءة والإدانة سيئين أو حتى أكثر سوءاً منا عندما يتعلق الأمر بالقضايا الأكثر صعوبة.

هل هذا جزء من أسباب الإدانات الخاطئة؟ هل النظام القضائي غير قادر وفقاً للدستور على تحقيق العدالة لغير المتطابقين؟ عندما يصدر أحد القضاة قرار إفراج بكفالة ولا يحسن استخدام حاسوب، هل هذا هو السبب؟ هل نرسل أناساً مسالمين إلى السجن وينتظرون المحاكمة لمجرد أنهم لا يبدون على ما يُرام؟ جميعنا يقبل بأخطاء الأحكام الصادرة عن المؤسسات ومغالطاتها عندما نعتقد أنّ تلك الأخطاء عشوائية. لكنّ أبحاث تيم ليفين تشير إلى أنها ليست عشوائية ذلك أننا بنينا عالماً يميز بشكل منهجي ضد فئة من الناس الذين- من دون أي خطأ منهم- ينتهكون أفكارنا السخيفة عن الشفافية. تستحق قصة أماندا نوكس أن يُعاد سردها ليست لأنها ملحمة فريدة؛ امرأة جميلة ومدينة إيطالية ذات مناظر خلابة، وجريمة قتل شنيعة. إنها تستحق أن يُعاد سردها لأنها تحدث دائماً.

قال أحد أصدقاء ميريديث كيرتشر: «لم يبدُ أنّ عينيها أظهرتا أي نوع من الحزن، وأتذكر أني تساءلتُ فيما إذا كانت متورطة».

سمعت أماندا نوكس بهذا بعد مرور سنوات من الحادثة -غرباء تماماً، يدّعون معرفة ما كانت عليه بناءً على تعابير وجهها.

تقول نوكس في نهاية الفيلم الوثائقي ماندا نوكس: «لم يكن هناك أي أثر لي في الغرفة حيث قُتلت ميريديث. لكنكم تحاولون إيجاد الجواب في عينيّ.... أنتم تنظرون إليّ. لماذا؟ هاتان عيناي. وهما ليستا دليلاً موضوعياً».

الفصل الثامن

دراسة تحليلية: حفلة الأخوية

1

الادعاء: في وقت ما وأنت في طريقك إلى مقر كابا ألفا، هل لاحظت شيئاً غير عادي؟

جونسون: نعم.

الادعاء: ما الذي لاحظته؟

جونسون: لاحظنا وجود رجل -أو شخص، فوق شخص آخر.

الادعاء: وأين كان هذا؟

جونسون: في مكان قريب جداً من مقر كابا ألفا.

باولو ألتو، كاليفورنيا. 18 كانون الثاني 2015. قرابة منتصف الليل. ثمة طالبا دراسات عليا سويديان يقودان دراجتيهما داخل حرم جامعة ستانفورد في طريقهما إلى إحدى حفلات الأخوية. شاهدا ما يبدو أنه شخصان مستلقيان على الأرض خارج أحد مقرات الأخوية حيث هناك حفلة في أوج ذروتها. أبطأا من حركتيهما كي لا يزعجا الثنائي. يقول أحد الطالبين واسمه بيتر جونسون عندما أدلى بشهادته أمام المحكمة: «ظننا أنهما يقضيان لحظة خاصة بهما». وبينما كانا

يقتربان منهما، شاهدا رجلاً في الأعلى وتحته امرأة.

الادعاء: ماذا بشأن الشخص الذي في الأعلى؟ هل رأيت ا... حركة أو التفاتة من ذلك الشخص؟

جونسون: نعم، في البداية كان يتحرك قليلاً ثم بدأ يندفع بش... أكثر حدة....

الادعاء: وماذا كان يفعل الشخص الذي في الأسفل؟

جونسون: لا شيء.

ترجّل جونسون وصديقه كارل فريدريك آرندت من دراجتيه... واقتربا منهما. صرخ جونسون قائلاً: «مرحباً، هل كل شيء على ... يرام؟». رفع الرجل الذي في الأعلى جسده ونظر إلى الأعلى. اقتر... جونسون أكثر، فوقف الرجل وبدأ يتراجع إلى الخلف.

سأل جونسون: «مهلاً، ماذا تفعل بحق الجحيم؟ إنها فاقد... للوعي». قال جونسون ذلك مرة أخرى: «مهلاً، ما الذي تفعله بح... الجحيم؟». بدأ الرجل بالركض. لاحق جونسون وصديقه الرج... وتصديا له.

كان الرجل الذي واجهه جونسون هو بروك تيرنر. طالب سن... أولى في جامعة ستانفورد في التاسعة عشرة من العمر وعضو في فريق الجامعة للسباحة. قبل أقل من ساعة، كان قد التقى بإحدى الشابات في حفلة كابا ألفا. في وقت لاحق أخبر تيرنر الشرطة أنهما رقصا معاً، وتحدثا ثم ذهبا للخارج، واستلقيا على الأرض. كانت المرأة متخرجة سابقة من الجامعة وتُدعى إيميلي دو عُرِفت فيما بعد أنها

تقع تحت حماية قانون الاعتداء الجنسي. والآن تستلقي بلا حراك تحت إحدى شجيرات الصنوبر بجانب مكب للنفايات. كانت تنورتها مرفوعة حول خصرها ولباسها الداخلي على الأرض بجانبها، كما كان الجزء العلوي من ثوبها مسحوباً إلى الأسفل مُظهراً أحد.... عندما وصلت إلى المستشفى بعد ساعات، أخبرها أحد ضباط الشرطة بأنها ربما تعرضت لاعتداء جنسي. كانت مرتبكة. نهضت، وتوجهت إلى الحمام لتجد أن سروالها الداخلي غير موجود. لقد تم أخذه دليلاً.

الادعاء: ماذا حصل بعد أن دخلتِ الحمام؟

دو: شعرت بحكة في عنقي، وأدركت أنها ناتجة عن إبر الصنوبر. وظننتُ أنني ربما سقطتُ من إحدى الأشجار لأني لم أعرف سبب وجودي هناك.

الادعاء: هل كان هناك مرآة في الحمام؟

دو: نعم.

الادعاء: هل تمكنت من رؤية شعرك في المرآة؟

دو: نعم.

الادعاء: هل يمكنك أن تصفي لنا كيف بدا؟

دو: كان أشعث فحسب مع وجود أشياء صغيرة واخزة.

الادعاء: هل لديك أية فكرة لمَ كان شعرك أشعث؟

دو: ليست لديّ أية فكرة.

الادعاء: ماذا فعلتِ بعد انتهائك من استخدام الحمام؟

دو: عدتُ إلى الفراش، وأعطوني بطانية ثم لففتُ نفسي بها وعدتُ للنوم.

2

في كل سنة وفي شتى أنحاء العالم، يحصل عدد لا يُحصى … اللقاءات مثل الذي انتهى بشكل فظيع على المرج العشبي خا… أخوية كابا ألفا في جامعة ستانفورد. ثمة شاب وشابة لا يعر… بعضهما بشكل جيد، يلتقيان، ويتبادلان الحديث. ربما يكون حا… موجزاً أو قد يستمر لساعات. وربما يذهبان إلى المنزل معاً أو … الأمور قد تنتهي بعد فترة قصيرة من ذلك. لكن في لحظة ما … الأمسية، تنحرف الأمور عن مسارها بشكل سيئ. تقول واحدة … كل خمس طالبات أميركيات إنها كانت ضحية لاعتداء جنسي. هذا… نسبة معقولة من تلك الحالات تتبع ذلك النمط.

يكمن التحدي في ذلك النوع من القضايا في إعادة تشكيل … اللقاء. هل حصل اللقاء بموافقة الطرفين؟ هل اعترض أحد الطرف… في حين تجاهل الطرف الآخر ذلك الاعتراض؟ أم أنه أساء فهمه… في حال أن افتراض الشفافية يشكّل مشكلة بالنسبة إلى ضباط الشر… في فهم المشتبه بهم، أو القضاة الذين يحاولون فهم المتهمين، فم… الواضح أن ذلك سيكون ذا شأن بالنسبة إلى المراهقين والشبا… البالغين الذين يجوبون واحداً من أكثر المجالات الإنسانية تعقيدا.

ألقِ نظرة على نتائج استطلاع جريدة واشنطن بوست/ مؤسسة … عائلة قيصر في العام 2015 الذي شمل ألف طالب جامعي. سُئل … الطلاب إن كانوا يعتقدون أن أياً من التصرفات التالية «يشكّل موافقة … على مزيد من النشاط الجنسي».

1 خلْع كل الملابس

	نعم	كلا	الأمر يتوقف على	لا رأي
الجميع	47	49	3	1
الرجال	50	45	3	2
النساء	44	52	3	1

2 الحصول على واقٍ ذكري

	نعم	لا	الأمر يتوقف على	لا رأي
الجميع	40	54	4	1
الرجال	43	51	4	2
النساء	38	58	4	1

3 الإيماء بالرأس بمثابة موافقة

	نعم	لا	الأمر يتوقف على	لا رأي
الجميع	54	40	3	3
الرجال	58	36	3	3
النساء	51	44	3	3

4 الانخراط في المداعبة مثل اللمس والتقبيل

	نعم	لا	الأمر يعتمد على	لا رأي
الجميع	22	74	3	*
الرجال	30	66	3	*
النساء	15	82	3	*

5 لم يقل لا

	نعم	لا	الأمر يعتمد على	لا رأي
الجميع	18	77	3	1
الرجال	20	75	4	1
النساء	16	80	2	1

ستكون الموافقة أمراً واضحاً في حال وافق كل طلاب الجا... على أن الحصول على واقٍ ذكري يعني موافقة ضمنية على ممار... الجنس، أو في حال وافق الجميع على أن المداعبة كاللمس والقبلا... لا تُعتبر دعوة لشيء أكثر جدية. عندما تكون القواعد واضحة يم... لكل طرف أن يستنتج بسهولة ودقة ماذا يريد الآخر من الطريقة ال... يتصرف أو تتصرف بها. لكن ما يُظهره الاستطلاع أنه ليست هناك ا... قواعد. ففي كل قضية هناك نساء يفكرن بطريقة ما وأخريات يفكر... بطريقة أخرى، ورجال يفكرون كبعض النساء ولكن ليس الآخري...

وعدد مُحيّر من الأشخاص من كلا الجنسين، ليس لديهم أي رأي على الإطلاق.

(29). لكل مما يلي، أخبرني رجاءً فيما إذا كان الوضع يُعتبر اعتداءً جنسيا أو لا يُعتبر اعتداءً جنسياً أو أنه غير واضح.

النشاط الجنسي عندما لم يبدِ كلا الشخصين موافقة واضحة

	يُعتبر	لا يُعتبر	غير واضح	لا رأي
الجميع	47	6	46	*
الرجال	42	7	50	1
النساء	52	6	42	-

ماذا يعني أن الأمر بالنسبة إلى نصف الشباب والشابات «غير واضح» بشأن كون الموافقة الصريحة ضرورية للنشاط الجنسي؟ هل يعني هذا أنهم لم يفكروا في ذلك من قبل؟ هل يعني هذا أنهم يفضلون الاستمرار على أساس كل حالة بمفردها؟ هل يعني هذا أنهم يحتفظون أحياناً بحق المتابعة في الأمر من دون موافقة واضحة، وفي مرات أخرى يصرون عليها؟ لقد أربكت أماندا نوكس النظام القضائي لأنه كان هناك انفصال بين الطريقة التي تصرفت بها والطريقة التي شعرت بها. لكنّ هذا قصور في الشفافية ناتج عن تعاطي المنشطات. عندما يلتقي طالب جامعة بآخر –حتى في الحالات التي تكون لدى كليهما أفضل النوايا– فإن مهمة استنتاج النية الجنسية من التصرّف

هـي بمثابـة عمليـة رمي قطعـة نقدية. وكما يتسـاءل الباحث القا...
لوري شو: «كيف يمكننا أن نتوقع من طلاب الجامعة احترام الـ...
عندما لا يوجد توافق على ماهيتها؟».

لكن هناك عامل معقد ثانٍ في كثير من تلك اللقاءات، فعندما ...
تفاصيل قضايا الاعتداءات الجنسية في الحرم الجامعي التي أصبـ...
شائعة بشكل يدعو للأسف، فإن الحقيقة البارزة هي أن السيناريو...
متشـابهة تقريباً. يلتقي شـاب وشابة في إحدى الحفلات، ثم يمضـ...
قدُماً إلى أن يسيئا فهم نوايا بعضهما بشكل مأساوي -وهما مخمو...

3

الدفاع: ماذا شربت؟

تيرنر: شربتُ خمس علب بيرة رولينغ روك تقريباً.

بـدأ بـروك تيرنـر بتناول الشـراب قبل فترة طويلـة من ذهابه إ...
حفلة كابا ألفا. لقد كان في شقة صديقه بيتر في وقت مبكر من المسـ...

الدفـاع: عـدا علب البيرة الخمسـة التي ذكرتها، هل شـربت أ...
مشروب كحولي آخر في شقة بيتر؟

تيرنر: نعم، تناولت بعضاً من ويسكي فايربول.

الدفاع: وكيف شربته؟

تيرنر: من الزجاجة مباشرةً.

عندما وصل تيرنر إلى الحفلة، استمر في الشرب. إن حد الثـ...
القانوني في كاليفورنيا بالنسـبة إلى السـائقين هو نسـبة تركيز الكحـ...
في الدم بمقدار 0.8، فأي شيء فوق هذا الحد يجعلك ثملاً. بحلـ...

نهاية الليلة كان مستوى الكحول في دم تيرنر يساوي ضعف ذلك.

وصلت إيميلي دو إلى الحفلة مع مجموعة من الأشخاص —مع شقيقتها وصديقتيها كولين وتري. في وقت مبكر من تلك الأمسية، كانت تري قد شربت زجاجة كاملة من الشمبانيا من بين مشروبات أخرى. وهناك انضمت إليهن صديقتهن جوليا التي كانت تشرب أيضاً.

الادعاء: هل شربتِ أي مشروب على العشاء؟

جوليا: نعم.

الادعاء: ماذا شربتِ؟

جوليا: زجاجة كاملة من النبيذ.

وبعد ذلك:

الادعاء: ماذا فعلتِ بعد العشاء؟

جوليا: بعد تناول العشاء، ذهبتُ إلى مكان يدعى غريفين سويت....

الادعاء: وماذا كان يحدث هناك في غريفين سويت؟

جوليا: احتفال.

الادعاء: ماذا يعني هذا؟

جوليا: أوه، آسفة، إنه مصطلح يعبّر عن حفلة شرب.

بعد انتهاء الحفلة، انطلقت جوليا إلى حفلة كابا ألفا حيث اكتشفت وجود زجاجة مختومة من الفودكا في القبو.

جوليا: فتحت الزجاجة ثم سكبناها في الكؤوس وشربناها.

تبقى إيميلي دو.

الادعاء: وهكذا بدأت الشرب بكأس من الويسكي، وعندها
عدد الكؤوس التي تناولتِها قبل أن تغادري منزلكِ؟

دو: أربع.

الادعاء: وهل كانت من نوع المشروب نفسه –كأس
الويسكي –الذي شربته في المرة الأولى؟

دو: شربتُ أربع كؤوس من الويسكي وكأساً من الشمبانيا.

الادعاء: حسناً، إذن هل تعرفين بشكل تقريبي الإطار الز
الذي تناولتِ فيه أربع كؤوس من الويسكي وكأساً من الشمبانيا؟

دو: ربما بين الساعة 10:00 و10:45.

ثم ذهبت هي وأصدقاؤها إلى الحفلة.

الادعاء: حسناً. بعد أن لهوتم مع بعضكم، بصفتكم لج
الترحيب، ماذا فعلتم؟

دو: اكتشفت جوليا وجود زجاجة فودكا.

الادعاء: حسناً، كيف تصفين زجاجة الفودكا تلك؟

دو: ربما بهذا الحجم، بحجم كوستكو...

الادعاء: وماذا حدث عندما أحضرت الفودكا؟

دو: سكبت بعضها في كأس سولو أحمر.

الادعاء: حسناً، هل احتسبت - بأية طريقة كانت- كمية الفو
التي كانت في كأسكِ؟

دو: ظننتُ أني فعلت، لكني لم أكن أحسبها بشكل صحيح. لقد سكبتُ حتى أسفل العلامة الثانية في الكأس، والتي اعتقدتُ أنها بقدر قدحين أو ثلاثة. تبيّن أنها ربما ثلاثة أو أربعة أقداح لأن هذه العلامة تساوي خمس أونصات.

الادعاء: وأنت تتكلمين عن كأس سولو أحمر.

دو: نعم.

الادعاء: وهو شيء ترينه بشكل طبيعي في الحفلات؟

دو: نعم....

الادعاء: حسناً، الآن، بعد أن سكبتِ الفودكا، ماذا فعلتِ؟

دو: شربتها.

الادعاء: كيف شربتها؟

دو: حتى آخر نقطة.

الادعاء: كلها دفعة واحدة؟

دو: دفعة واحدة تقريباً. ولذا كنت أشعر أني ثملت لأني كنت قادرة على فعل ذلك.

وبعد ذلك:

الادعاء: صفي لنا مستوى ثمالتكِ في تلك اللحظة.

دو: أمممم، خالية الذهن تقريباً. أصبحتُ مجرد عديمة الفائدة وأنا جوفاء لا أتكلم كثيراً. أقف هناك فحسب[1].

---

(1) في وقت الحادثة، كانت نسبة تركيز الكحول في دمها 249. وهو 171. كانت النسبة عندها تساوي ثلاثة أضعاف الحد القانوني، أما هو فكانت ضعفين. وهذه الأرقام جاءت بحسب شهادة أحد الخبراء.

الادعاء: هل لديكِ أية فكرة عن وقت حدوث ذلك تلك الليا

دو: ربما قرابة منتصف الليل.

كان ذلك في الوقت الذي اقترب فيه بروك تيرنر من إيميلي د قال إنها كانت ترقص وحدَها، وقال إنه اقترب منها، وأخبرها أنه أ طريقة رقصها. قال إنها ضحكت. وقال إنهما تبادلا أطراف الحدي وطلب إليها أن ترقص معه، فوافقت على ذلك. ثم قال إنهما رق لمدة عشر دقائق وبدأا بتبادل القبلات بعدها.

الدفاع: حسناً، هل بدا أنها متجاوبة في ردّ القبلات لك؟

تيرنر: نعم.

الدفاع: هل تحدثت إليها بأي حديث آخر يمكن أن تتذكره؟

تيرنر: نعم، سألتها إن كانت تريد أن تعود معي إلى مهجعي.

الدفاع: حسناً، وهل استجابت لك؟

تيرنر: نعم.

الدفاع: ماذا قالت؟

تيرنر: قالت: «بالتأكيد».

الدفاع: كان هذا بعد الساعة 12:30 تقريباً، صحيح؟

تيرنر: نعم.

الدفاع: هل عرفت اسمها في تلك الليلة؟

تيرنر: نعم، سألتها عن اسمها عندما كنا نرقص لكني لم أتذكر

يقول إنه وضع ذراعه حولها ثم غادرا الحفلة. وبينما كانا يمشيا عبر المرج العشبي الخلفي، يقول إنهما تزحلقا.

تيرنـر: لقـد زلّت قدمها، ثم سـقطت، تمسّـكت بـي كي تتجنب السقوط وهذا تسبب بسقوطي أيضاً....

الدفاع: ماذا حدث بعد ذلك؟

تيرنر: ضحكنا، ثم سألتها إذا كانت بخير.

الدفاع: هل استجابت لك؟

تيرنر: نعم، قالت إنها تعتقد ذلك.

الدفاع: ماذا حدث بعد ذلك؟

تيرنر: بدأنا بتبادل القبلات.

عـادةً فـي حالـة الاعتداء الجنسـي، يقدم الادعاء الشـهود لطرح أسئلة تخص إفـادة المتهـم. لكنّ هـذا لم يحصل في قضية الشعب ضـد بـروك تيرنـر. بحلـول ذلـك الوقـت، أصبحـت تري ثملـة جداً لدرجـة أن شـقيقة إيميلـي وصديقتها كوليـن أخذتاها إلى غرفة جوليا في المهجـع. لم يستطع بيتر صديق تيرنـر الوصول إلى الحفلة على الإطـلاق: لقـد كان ثمـلاً للغايـة فأخـذه اثنـان من أصدقـاء تيرنر إلى مهجعـه. مـن المفتـرض وجود أناس آخرين فـي الحفلة بإمكانهم أن يؤكـدوا قصـة تيرنـر أو يدحضوها. لكن في هذه المرحلة كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وتمّ تخفيض الأضواء وكان الناس يرقصون على الطاولات.

لذا لدينا إفادة تيرنر فقط:

الدفاع: ماذا حدث بعد ذلك؟

تيرنـر: تبادلنـا القبـلات لبعض الوقت، ثم سـألتها فيما إذا كانت تريد مني أن أداعبها....

الدفاع: هل ردّت عليك؟

تيرنر: نعم.

الدفاع: ماذا قالت؟

تيرنر: قالت بالتأكيد...

الدفاع: بعد أن حصلت على موافقتها من أجل مداعبتها.... حصل بعدئذٍ؟

تيرنر: داعبتها... لدقيقة وظننتُ أنها وصلت إلى.... وعند —حسناً، في أثناء ذلك الوقت، سألتها فيما إذا أحبت ذلك، فقا «أه ها».

وبعد ذلك:

الدفاع: ثم بعد ذلك، ماذا فعلت؟

تيرنر: بدأتُ بتبادل القبلات معها مرة أخرى ثم بدأنا....

بموجب قانون كاليفورنيا، ليس بمقدور الشخص الموافقة النشاط الجنسي في حال كان فاقداً للوعي أو ثملاً للغاية ب «يُمنع من المقاومة». وفي ذلك يقول الباحث القانوني لوري

ليس كافياً أن الضحية كانت ثملة إلى حدّ ما، أو أن الثما خفّضت من المحظورات الجنسية للضحية.... بل مستوى ال والقصور الذهني الناتج عنها لابدّ وأنه كان كبيراً جداً إلى در الضحية لم تعد تستطيع استخدام الأحكام المنطقية المتعلقة الشأن. وكما يوضح أحد المدعين العامين في كاليفورنيا: «ي للضحية الواقعة تحت تأثير الثمالة أن تكون (فاقدة للإدراك

إذ إنها لا تدرك ماذا تفعل أو ماذا يجري حولها. ليس الأمر كحالة تكون فيها الضحية قد (تناولت كماً كبيراً من المشروب) فحسب».

إذن، هل كانت دو مشاركة بإرادتها ساعة النشاط الجنسي -ثم فقدت الوعي فيما بعد؟ أم أنها لم تكن قادرة أصلاً على الموافقة في الوقت الذي وضع فيه تيرنر... داخلها؟ إن قضية الشعب ضد بروك تيرنر تتعلق بمسألة الكحول. فالقضية برمّتها تدور حول مقدار ثمالة دو.

في النهاية، أدانت هيئة المحلفين تيرنر. لقد كانت روايته للأحداث مقنعة تماماً. في حال كان لقاؤهما رضائياً وحميمياً-كما أوحى تيرنر -فلماذا هرب عندما واجهه طالبا الدراسات العليا؟ لماذا كان «يعاشرها» بعد أن فقدت وعيها؟ بعد منتصف الليل تماماً، تركت دو رسالة صوتية على بريد صديقها الحميم، وقد تم استعراض تسجيل تلك المحادثة أمام هيئة المحلفين. بالكاد كانت متماسكة. إذا كان الأمر بحسب المعايير القانونية هو أن تكون (فاقدة للإدراك) تماماً لدرجة أنها لا تدرك ما تفعله، فقد بدت إذن قريبة جداً من تلك الحالة.

في أثناء المرافعات الختامية، أظهر المدعي العام لهيئة المحلفين صورة لدو التُقِطت وهي مستلقية على الأرض، وكانت ملابسها نصف منزوعة وشعرها أشعث وهي مستلقية على مهد من إبر الصنوبر، وهناك مكب نفايات في خلفية الصورة. قال المدعي العام: «ليس هناك من امرأة تحترم نفسها وتعرف ماذا يجري حولها ترغب في أن تُعاشر في ذلك المكان. ويمكن لهذه الصورة وحدها أن تخبركم أنه استغل شخصاً لم يكن يعرف ماذا يجري من حوله». تمت إدانة تيرنر

بثلاث تهم جنائية مرتبطة بالاستخدام غير القانوني لإصبعه: ا
بنية ارتكاب اغتصاب بحق شخص ثمل أو غير واعٍ، وإيلاج جنـ
مع شخص ثمل، وإيلاج جنسي مع شخص فاقد للوعي. لقد
عليه بالسجن لستة أشهر وبأن يُسجّل بوصفه أحد المعتدين الجنـ
طيلة حياته.

لم يكن هناك شك أبداً بهوية الشخص في قضية بروك تير
وقد حددت هيئة المحلفين أيضاً ماذا حدث بالضبط، لكن
هناك السبب وراء كل هذا. كيف انتهى لقاء مسالم ظاهرياً في إحـ
ساحات الرقص بجريمة؟ نحن نعلم أن اعتقادنا الخاطئ بأن النا
شفافون يؤدي إلى كل أنواع المشاكل بين الأشخاص الغرباء، و
يؤدي بنا إلى الخلط بين البريء والمذنب وبين المذنب والبر
وفي ظل أفضل الظروف فإن نقص الشفافية يجعل اللقاء بين ر
وامرأة في حفلة ما حدثاً إشكالياً. إذن ماذا يحدث عندما يُضا
الكحول إلى الخليط؟

4

كان دوايت هيث طالب دراسات عليا في مجال الأنثروبولو
(علم الإنسان) في جامعة يال في منتصف خمسينيات القرن العشر
عندما قرر القيام بالعمل الميداني لأطروحته في بوليفيا. استـ
وزوجته آنا هيث الطائرة إلى ليما مع طفلهما الرضيع ثم انتظرا خمـ
ساعات ريثما ملأ الميكانيكيون الوقود المعزز لمحركات الطائر
يتذكر هيث قائلاً: «كانت تلك طائرات تخلصت منها الولايا

المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ولم يكن من المفترض بها أن تطير فوق مستوى 10,000 قدم، لكنّ منطقة لاباز حيث كنا متوجهين كانت بارتفاع 12,000 قدم». وبينما كانا يحلقان فوق جبال الأنديز، تقول آنا هيث إنهما نظرا إلى الأسفل وشاهدا بقايا «كل الطائرات التي لم يُجدِ معها الوقود المعزز نفعاً».

من منطقة لابازا، سافرا مسافة 500 ميل إلى بلدة حدودية صغيرة تدعى مونتيرو ضمن المناطق الداخلية لشرق بوليفيا. كانت المنطقة جزءاً من بوليفيا حيث يلتقي حوض الأمازون بمنطقة شاكو وهي امتدادات واسعة من الأدغال والبراري العشبية. يسكن المنطقة شعب الكامبا وهم شعب هجين ينحدر من السكان الهنود الأصليين والمستوطنين الإسبان. يتكلم شعب الكامبا لغة كانت مزيجاً من اللغات الهندية المحلية والإسبانية الأندلسية التي تعود للقرن السابع عشر. يقول هيث: «كانت بقعة فارغة على الخريطة. حيث يفترض أن تبنى سكة قطار ويُشق طريق عام، وهناك حكومة.... سوف تتأسس».

لقد عاشا في منزل صغير خارج البلدة. تتذكر آنا هيث قائلةً: «لم تكن هناك أرصفة ولا شوارع معبدة».

إذا كانت هناك لحوم في البلدة فسيرمون الجلود في الواجهة لكي تعرف أنها موجودة، وستجلب أوراق الموز بيديك فهي طبق الطعام. كانت هناك منازل طينية ذات سقوف جصية وقرميدية، وثلاث أشجار نخيل في ساحة البلدة، وكانت أصوات العربات التي تجرها الثيران تُسمع في الأرجاء، أما القساوسة فامتلكوا سيارة جيب، وقدّمت بعض النساء فيما يسمى مطعماً طبقاً من الأرز وبعض

الصلصة، أما الرجل الذي يحضر القهوة فكان ألمانياً، وفي السنة ا
قدمنا فيها إلى بوليفيا، وصل ما مجموعه خمسة وثمانون أجنبيا ا
البلاد. لم تكن واحدة من البقاع الساخنة تماماً.

في مونتيرو، انخرطت عائلة هيث بعلم الأعراق البشرية القا
-يقول دوايت: «تكنيس كل شيء، وتعلّم كل شيء». لقد دخنا الس
لكي يقنعا شعب الكامبا أنهما ليسا بعثة تبشيرية، والتقطا آلاف الص
وتجولا في أرجاء البلدة، وتحدثا إلى كل من استطاعا التحدث ا
أياً يكن، بعد ذلك كان دوايت يعود إلى المنزل ويمضي الليل
تدوين ملاحظاته على الآلة الكاتبة. بعد سنة ونصف، حزمت عا
هيث صورها وملحوظاتها ثم عادت إلى نيوهيفين. وهناك، جا
دوايت هيث ليكتب أطروحته -ليكتشف أنه فوّت عليه ما كان أ
حقيقة مذهلة عن المجتمع الذي كان يدرسه. قال لزوجته في -
كان ينظر إلى ملحوظاته: «هل تدركين أنه في كل عطلة نهاية أسـ
كنا فيها في بوليفيا، كنا نخرج لنشرب؟».

في كل ليلة سبت، وطوال المدة التي أمضياها هناك، كانت عا
هيث تُدعى لحفلات شراب. يشتري المضيف أول زجاجة، ويو
الدعوات، فيحضر اثنا عشر شخصاً أو نحوه، وغالباً ما تستمر الحف
حتى يعود الجميع إلى أعمالهم صباح يوم الإثنين. لم تكن تشك
المجموعة رسمية: فأحياناً قد يُدعى أشخاص عابرون، لكنّ
الحفلة كانت مثقلة بالشعائر. فالمجموعة تجلس على شكل دائر
وربما يعزف أحدهم على الطبل أو الغيتار، كما توضع زجاجة
الروم وكؤوس شراب صغيرة على الطاولة. يقف المضيف ويم

الكأس بالروم، ثم يمشي نحو أحدهم ضمن الدائرة ويقف أمام «صاحب النخب» ويومئ برأسه ثم يرفع الكأس، فيبتسم صاحب النخب، ويومئ برأسه بالمقابل. عندئذٍ، يشرب المضيف نصف الكأس، ثم يعطيه لصاحب النخب الذي يشربه كله بدوره. في نهاية المطاف، يقف صاحب النخب، ويعيد ملء الكأس، ويكرر الطقس مع شخص آخر ضمن الدائرة، وعندما ينهك الناس أو يثملون بشدة، يتكورون أرضاً حول أنفسهم، ويفقدون وعيهم، ثم يعيدون الانضمام للحفلة عندما يصحون.

تتذكر آنا فتقول: «كان الشراب الذي يشربونه مريعاً، فهو يجعلك تبكي بكل ما للكلمة من معنى. أعتقد أني تساءلتُ في أول مرة شربته، ماذا سيحدث إن تقيأت وسط الحفلة، فحتى شعب الكامبا لم يقولوا إنهم يحبونه، بل قالوا إن طعمه سيئ، ويسبب الحرقة. في اليوم التالي، يقومون بتعرّق هذه المادة، إذ يمكنك أن تشمّ رائحتها». لكنّ عائلة هيث واظبت على الأمر بشجاعة.

قال دوايت: «شعر طالب الدراسات العليا في مجال الأنثروبولوجيا في خمسينيات القرن العشرين أن عليه التكيف، فأنت لا تريد أن تهين أي شخص، ولا تريد أن ترفض أي شيء، لقد كززتُ على أسناني وتقبلتُ تلك المشروبات».

بدورها تقول آنا: «لم نثمل إلى حدّ كبير لأننا لم نشرب الأنخاب كبقية الناس من حولنا، لقد كنا غرباء. لكن في إحدى الليالي، كان هناك حفلة كبيرة جداً؛ قرابة ستين إلى ثمانين شخصاً، يشربون ثم يفقدون وعيهم، وبعد ذلك يصحون ويحتفلون لفترة من الزمن. وقد

وجدتُ في نمط شربهم أن بإمكاني تحويل كأسي إلى دوايت، فالر
ملزم بالشرب نيابةً عن زوجته.

عندما عادت عائلة هيث إلى نيوهيفين، حللا زجاجة من
الكامبا، وعلما أن نسبة الكحول فيها 180. لقد كانت من الكح
الذي يُستخدم في المختبرات -ذلك التركيز الذي يستخدمه العا
في حفظ الأنسجة الحية. لا أحد يشرب كحول المختبرات. كان
أول الاكتشافات المذهلة لأبحاث عائلة هيث -وكما هو مُتوقَّع، ا
يصدق أحد ذلك في البداية.

يتذكّر هيث قائلاً: «كان هناك واحد من أهم علماء الفيزيولو
في العالم المختصين بالكحول في مركز جامعة يال اسمه لي
غرينبرغ. قال لي: (مهلاً، أنت تروي حكاية جميلة، لكن
المستحيل عملياً شرب هذه المادة). وقد استفزني بما يكفي، و
يعرف أن استفزازه هذا سيوصله إلى شيء. ولذا قلتُ له: (تريا
أن أشربها؟ لديّ زجاجة منها). وهكذا في أحد أيام السبت، تناو
بعض الشراب، وكان يأخذ عينة من الدم كل عشرين دقيقة، وبالتا
شربتها بالطريقة التي قلتُ إني كنتُ أشربها».

استدعى غرينبرغ سيارة إسعاف كي يأخذ هيث إلى المنزل، لك
هيث قرر الذهاب إلى المنزل مشياً، وكانت آنا بانتظاره في شقة
الطابق الثالث، ولم يكن المبنى مجهزاً بمصعد، فقد استأجرا الش
في بناء قديم تابع للأخوية. «كنتُ أنتظره عند النافذة، ورأيت سيا
إسعاف تسير في الشارع ببطء شديد، وبجانبها دوايت، لوّح لي بيد
وبدا بحال جيدة. ثم صعد حتى بلغ الطابق الثالث وهو يقول: (ا

أنا ثمل) ثم سقط على وجهه. لقد غاب عن الوعي لثلاث ساعات».

هنا لدينا مجتمع من الناس في جزء فقير ومتخلف من العالم، يقيم حفلات شرب في نهاية كل أسبوع، من ليلة السبت إلى صباح الإثنين، وتبلغ نسبة الكحول في المشروب 180. لابدّ وأن شعب الكامبا قد دفع ثمناً باهظاً لقاء تجاوزاته، صحيح؟ خطأ.

قال دوايت هيث: «ليس هناك أي مرض اجتماعي، وليست هناك أية جدالات أو نزاعات، ولا اعتداءات جنسية أو لفظية. لم تكن هناك سوى أحاديث ممتعة أو صمت». تابع قائلاً: «لم يتعارض الشرب مع العمل... ولم يستدعِ تدخّل الشرطة، ولم يكن هناك أي إدمان على الكحول أيضاً».

كتب هيث الاستنتاجات التي توصل إليها في مقالة أصبحت شهيرة الآن، في مجلة (دراسات حول الكحول). في السنوات التالية، انضم عدد كبير من الأنثروبولوجيين ليكتبوا الشيء نفسه. أحياناً يجعل الكحول الناس يرفعون أصواتهم ويتقاتلون ويقولون أشياء قد يندمون عليها لاحقاً، لكن في أحيان كثيرة أخرى، لا يكون الأمر كذلك. كان شعب الأزتيك يسمي شراب البولك -المشروب الكحولي التقليدي لوسط المكسيك -»أربعمئة أرنب» بسبب التنوع الكبير ظاهرياً للتصرفات التي يمكن أن يخلقها. لقد سافر الأنثروبولوجي مارك مارشال إلى جزيرة تورك جنوب المحيط الهادئ ووجد أنه، بالنسبة إلى الشباب هناك، كانت الثمالة تسبّب العداوة والفوضى، لكن عندما يصل سكان الجزيرة إلى منتصف الثلاثينيات من عمرهم، يصبح للثمالة تأثير معاكس.

في مدينة أوكساكا المكسيكية، كان شعب الميكسيه مش
بالانخراط في العراك عند الثمالة، لكن عندما بدأ عالم الأنثروبول
رالف بيلز بمراقبة العراك، لم يظهر أنهم خارج السيطرة على الإطلا
بل بدا وكأنهم جميعاً يتبعون السيناريو ذاته:

رغم أنني شاهدت عدة مئات من المعارك، إلا أنني لم ا
استخداماً لأي سلاح، مع أن كل الرجال تقريباً يحملون سوا
وكثيراً منهم يحملون بنادق. تبدأ معظم المعارك بشجار لأ
السكارى، وعندما تصل حدة الأصوات إلى مستوى معين، يتو
الجميع حصول عراك، فيسلم الرجال أسلحتهم للمتفرجين.
يبدؤون العراك بأيديهم، ويتبادلون اللكمات بعنف إلى أن يس
أحدهم، (وفي تلك اللحظة) يساعد المنتصر خصمه كي يقف
قدميه، وعادةً ما يعانقان بعضهما بعضاً.

لا معنى لأي شيء من هذا. فالكحول مخدر قوي، إنه يحر
المحظورات. ويكسر مجموعة القيود التي تجعل تصرفاتنا مضبو
ولهذا السبب ليس من المستغرب أن ترتبط الثمالة إلى حدّ
بالعنف، وحوادث السيارات، والاعتداء الجنسي.

لكن، إذا كانت لنوبات تناول الشراب عند شعب الكامبا تأثيرا
جانبية محدودة جداً من الناحية الاجتماعية، وإذا بدا أن هنود الميك
في المكسيك يتبعون سيناريو معيناً حتى في أثناء شجارهم الناتج
الثمالة، عندئذٍ لا يمكن لمفهومنا عن الكحول بصفته عاملاً مُحر
من المحظورات أن يكون صحيحاً. لابدّ أن يكون شيئاً آخر. إن

دوايت وآنا هيث في بوليفيا جعلتنا نفكر مجدداً وبشكل شامل في فهمنا للثمالة. فكثير من أولئك الذين بحثوا في الكحول لم يعتبروه عاملاً من عوامل التحرر من المحظورات، بل اعتبروه عاملاً من عوامل قِصر النظر.

5

كان عالما النفس كلود ستيل وروبرت جوزيفز أول من أشارا إلى نظرية قِصر النظر، وما قصداه بقِصر النظر هو أن التأثير الأساسي للكحول يكمن في تضييق مجالات رؤيتنا العاطفية والذهنية. فهو يخلق، حسب تعبيرهما: «حالة من قصر النظر تُفهَم ظاهرياً بأن للجوانب المباشرة من الخبرات المكتسبة تأثيراً غير متكافئ على السلوك والعاطفة». فالكحول يجعل الشيء الموجود في المقدمة أكثر بروزاً والشيء الموجود في المؤخرة أقل أهمية. إنه يجعل الاعتبارات قصيرة الأجل ماثلة بقوة، في حين تتلاشى الاعتبارات طويلة الأجل والأكثر صعوبة من الناحية المعرفية.

إليكم أحد الأمثلة. كثير من الناس يشربون عندما يشعرون بالإحباط، لأنهم يعتقدون أن ذلك سيبعد المشاكل عنهم. هذا تفكير كبت: فالكحول سيطلق العنان للمزاج الجيد. لكن ببساطة، ما يحدث هو خلاف ذلك. أحياناً يجعلنا الكحول نشعر بالبهجة، لكن في أحيان أخرى، عندما يشرب شخص قلق، يصبح أكثر قلقاً. لنظرية قِصر النظر حل لهذا اللغز: إنه يعتمد على ما يفعله الشخص

القلق والشمل، فإذا كان يحضر مباراة كرة قدم وهو محاط بمشج
شرسين، فالإثارة والدراما اللتان تحدثان حوله ستزيحان هـ
الدنيوية الضاغطة بشكل مؤقت، فالمباراة هي الواجهة والمرك
همومه فليست كذلك. لكن إذا كان الشخص نفسه موجوداً في
هادئ لإحدى الحانات يشرب بمفرده، فسيصبح أكثر كآبةً. لا ش
يلهيه الآن، فالشراب يضعه تحت رحمة البيئة، إنه يزيح كل شي
عدا التجارب الأكثر مباشرة.(1)

إليكم مثال آخر. إحدى أهم الملاحظات الأساسية لنظ
قِصر النظر هي أن للثمالة تأثير أكبر في حالات «الصراع الحا
-إذ هناك مجموعتان من الاعتبارات واحدة قريبة والأخرى بعيا

---

(1) مؤخراً، ذهبت مجموعة من علماء النفس الكنديين بقيادة تارا مكدونالد إ
سلسلة من الحانات، وطلبت إلى الزبائن قراءة مقالة صغيرة. كان عليهم تخيل
أحدهم التقى بشخص جذاب في حانة ما، ثم مشى معه أو معها إلى المنزل وان
المطاف بهما في الفراش -ليكتشفا أن أياً منهما لا يملك واقياً ذكرياً. عندئذٍ طا
إليهم الإجابة عن المقترحات بمقياس من 1 (مستبعد جداً) إلى 9 (مرجح جدا
«إذا كنتُ في هذه الحالة، هل ستمارس الجنس؟». قد تظن أن الأشخاص الـ
أفرطوا في الشرب سيقولون إنهم سيمارسون الجنس -وهذا بالضبط ما حد
لقد حقق السكارى نتيجة 5.36 في المتوسط من المقياس ذي النقاط التسعة.
حين حقق غير الثملين نتيجة مقدارها 3.91. لم يستطع الثملون الخوض بعيدا
العواقب طويلة الأجل الناتجة عن الجنس دون حماية. لكنّ مكدونالد عاد إ
الحانات، وختم على أيادي بعض الزبائن عبارة «الإيدز يقتل». كان السكارى
ذوي اليد المختومة أقل ميلاً بقليل من الأشخاص غير الثملين الذين يرغبون
ممارسة الجنس في ذلك الظرف: لم يكن بإمكانهم الخوض عميقاً في المسوغا
الضرورية كي يضعوا جانباً مخاطر الإيدز. حيث تكون المعايير والقواعد واضـ
وصريحة، يمكن للسكير أن يصبح أكثر التزاماً بالقواعد من نظيره غير الثمل.

وهما متعارضتان. حسناً، لنفترض أنك كوميدي محترف ناجح، يعتقد العالم أنك مُضحك جداً وأنت تعتقد أنك مضحك جداً. في حال ثملت، لن تعتقد نفسك أكثر إضحاكاً، فليس هناك نزاع بشأن حسك الفكاهي يمكن للكحول أن يحلّه. لكن افترض أنك تعتقد أنك مضحك جداً والعالم لا يعتقد ذلك بشكل عام. في الحقيقة، كلما حاولت تسلية مجموعة ما بقصة مضحكة، أخذك أحد الأصدقاء في الصباح التالي جانباً وطلب إليك بلطف ألا تفعل ذلك مرة أخرى. في الظروف العادية، إن التفكير في تلك المحادثة المُحرِجة مع صديقك يكبح جماحك. لكن عندما تكون ثملًا؟ يحل الكحول هذا النزاع. لن تفكر مرة أخرى في ردود الفعل المستقبلية بشأن نكاتك السخيفة. فمن المرجح الآن أنك تظن نفسك مضحكاً حقاً. عندما تكون ثملاً، يتغير فهمك لحقيقة نفسك.

هذا هو الأثر الجوهري للثمالة باعتبارها قِصر نظر. لقد افترضت الفكرة القديمة عن التحرر من المحظورات أن ما يُكشف عند وقوع أحدهم في الثمالة كان نوعاً من صيغة مجردة ومستخلصة من ذاته الواعية –من دون أي من التأثيرات المشوِّشة للَياقة وقواعد المجاملات الاجتماعية. تصبح على حقيقتك. وكما يقول المثل القديم «تكمن الحقيقة في النبيذ».

لكن هذا الأمر مقلوب. فالصراعات التي تضبط دوافعنا في العادة، هي جزء مهم من الكيفية التي تتشكل منها شخصيتنا. فكلنا نبني شخصيتنا من خلال إدارة الصراع بين الاعتبارات القريبة والمباشرة والاعتبارات طويلة الأمد الأكثر تعقيداً. وهذا ما يُقصد بأن

تكـون أخلاقيـاً أو مُنتجاً أو مسـؤولاً. إن الآبـاء الصالحين هم أ... المستعدون للتخفيف من حاجاتهم الأنانية المباشرة (بأن تُترك ... ويُتاح لها أن تخمد) من أجل أهدافهم طويلة الأمد (لتربية طفل ... عندمـا يقـوم الكحـول بنـزع تلك القيود طويلة الأمد من سـلوكنا ... بذلك يطمس ذاتنا الحقيقية.

حسـناً، مـن كان شـعب الكامبـا فـي الحقيقـة؟ يقـول هيـ... مجتمعهم تميّز بنقص فردي في «التعبير المشترك». فقد كانوا متنـ... في أعمالهم، وكانت روابطهم العائلية واهنة، أضف إلى ذلك أن عـ... اليومـي يميـل لأن يكون انفراديـاً معظم الوقت. لقد جعلت متطا... حياتهم اليومية من التواصل الاجتماعي صعباً. لذا كانوا يسـتخد... قـوة الكحـول التغييريـة خلال عطلات نهاية الأسـبوع من أجل إيـ... «تعبيـر مشـترك» مفقـود إلـى حـدّ بعيد من الإثنين حتـى الجمعة. ... استخدموا قِصر النظر الكحولي لكي يوجِدوا عالماً مختلفاً لأنفسـ... بشـكل مؤقت، وحددوا لأنفسـهم قواعد صارمة: زجاجة واحدة ... كل مرة، وسلسلة منظمة من الأنخاب إذ إن جميعهم يجلسون حـ... الدائـرة فـي عطـلات نهايـة الأسـبوع، لا يتناول أي منهم المشـر... بمفرده؛ لقد شـربوا بهيكلية معينة وكانت بنية دوائر الشـراب تلك ... الداخـل البوليفـي عالمـاً من الموسـيقا الناعمـة والطقوس. كان ذلـ... مجتمعاً جديداً لشـعب الكامبا أُوجد بمسـاعدة أحد أكثر المخدر... قوة على الأرض.

ليـس الكحـول عامـلاً مـن عوامـل الإلهام، بل هـو أحد عوامـ... التغيير.

6

في عام 2006، أصبحت لدى إنكلترا نسختها الخاصة من محاكمة بروك تيرنر، إنها قضية مهمة عن مُبرمج عمره خمسة وعشرون عاماً يدعى بينجامين بري، وامرأة أشارت إليها المحكمة بالرمز «م». إنها مثال نموذجي عن التعقيدات التي يخلقها قِصر النظر الكحولي.

لقد التقيا للمرة الأولى في شقة شقيق بري، ثم خرجا معاً تلك الليلة. وخلال الأمسية، تناولت «م» كأسين من النبيذ وما بين أربع إلى ست كؤوس من الفودكا المخلوطة مع الرد بول. أما بري الذي تجرع الشراب في وقت مبكر من ذلك اليوم، فقد شاركها الشراب كأساً بكأس. أظهرتهما صور كاميرات الدائرة المغلقة عائدَين إلى شقتها يمشيان يداً بيد قرابة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. مارسا الجنس، وظنّ بري أن الأمر كان برضى الطرفين، لكنّ «م» قالت إنه لم يكن كذلك. لقد أُدين بجرم الاغتصاب، وحُكِم عليه بالسجن لخمس سنوات، وأوقف التنفيذ بذريعة الاستئناف. لو أنك قرأت أية إفادات أخرى من هذا النوع من القضايا فستكون التفاصيل مألوفةً بطريقة تثير الكآبة: ألم، وندم، وسوء فهم، وغضب.

يروي بري القصة من وجهة نظره على النحو الآتي.

كنتُ آمل تجنّب النوم على الأرض، وظننتُ أني ربما أستطيع مشاركتها السرير، وقد بدا أن الأمر برمّته عملٌ غبيّ ، ولكن بعد فوات الأوان.

لم أكن أسعى وراء الجنس، مجرد فراش وبعض الرفقة الإنسانية.

استيقظتْ، وتمددتُ بجانبها، ثم بدأنا نتعانق في نهاية المطاف.. تبادلنا القُبل.

لم يكن الأمر مُتوقَّعاً بعض الشيء، لكنه جميل. فقد انغمسنا في المداعبة لنصف ساعة، وبدا كأنها كانت مستمتعة بالأمر.

وإليكم هذه الفقرة من قرار المحكمة:

لقد أصرّ على أن «م» بدت مرحّبة بمحاولاته التي تطورت من مداعبة ذات طبيعة مريحة إلى ملامسات جنسية. لم تقل أو تفعل شـ لتوقفه. أخبر هيئة المحلفين أن المرء بحاجة إلى أن يتأكد من الموافـ ولهذا السبب داعبها لفترة طويلة. لم تستطع صاحبة الشكوى أن تنـ أن مداعباته استمرت لبعض الوقت. وفي نهاية المطاف وضع أطرا أصابعه داخل حزام سروال منامتها، وكان لديها الوقت لمنعه. لم تفعل ذلك. بدت متجاوبة لاسيما عندما وضع يده داخل سروا منامتها ب. وبعد الملامسات الجنسية، أومأ لها كي تخلع السروال بدأ بنزعه، ثم تابعت هي الأمر.

ظنّ بري أنه تمكن من استنتاج إحساس «م» الداخلي من خلال تصرفاتها فقد افترض أنها واضحة. لم تكن كذلك. ها هي ذي المشاعر الحقيقية لـ «م» كما هي في ملفات المحكمة:

لم تكن لديها أية فكرة عن الوقت الذي استغرقته العلاقة الجنسية. وعندما انتهت كانت تواجه الحائط. لم تكن تعلم إن كان المستأنِف قد استخدم في الحقيقة واقياً ذكرياً أم لا، ولا إن قذف السائل المنوي أم لا. بعد ذلك سألها إذا كانت تريده أن يبقى عندها. فقالت: «لا». كانت تقول في عقلها، «اخرج من غرفتي»، رغم أنها

لـم تقـل ذلـك فـي الواقـع. لم تكن تعلـم «ماذا أقول أو أفكـر، ما إذا كان سيسـتدير ويضربنـي. أتذكر أنه غـادر وأغلق الباب». نهضَت من الفراش، وأقفلت الباب، وعادت للاستلقاء على سريرها متكورةً على نفسها، لكن لم يكن بإمكانها أن تتذكر كم بقيت على هذا الحال.

عنـد السـاعة الخامسـة صباحاً، اتصلـت «م» بصديقتها المفضلة وهـي تبكـي. فـي ذلـك الوقـت، كان بـري لا يـزال غافـلاً تمامـاً عن إحساسها الداخلي لدرجة أنه طرق باب «م» بعد عدة ساعات، وسألها إذا كانت تريد الذهاب لإحضار السمك والبطاطا من أجل الغداء.

بعد مرور عدة أشهر على وجوده في السجن، أُطلق سراح بري عندما خلصت محكمة الاسـتئناف إلى أنه يسـتحيل معرفة إن كان ما جرى في غرفة نوم «م» تلك الليلة قد حصل برضاها أم لا. «كلاهما كان راشداً»، كتب القاضي:

لم يتصرف أي منهما بطريقة غير مشروعة عندما أفرطا في تجرع الشـراب. كان كل واحد منهما حراً في اختيار كمية ما يشـربه، ومع مـن. كل واحـد منهمـا كان حراً، في الدخول بالعلاقة. ليس هناك أي شـيء غير طبيعي، أو مثير للدهشـة، أو حتى غير عادي بشـأن رجل وامرأة يقومان بعلاقة برضاهما، عندما يتناول أحدهما أو كلاهما كمية كبيرة من الكحول... الحقيقة العملية هي أن هناك بعض الجوانب من السلوك الإنساني لا تتناسب مع البنى التشريعية التفصيلية.[1]

---

(1) هل موافقة الإنسان الثمل تُعتبر موافقة؟ يجب أن تكون كذلك، يبقى الحُكم سارياً. وإلا فإن الأغلبية العظمى من الناس الذين يمارسون الجنس بسعادة وهم سكارى، مكانهم السجن إلى جانب العدد القليل من الناس الذين بالنسبة إليهم تشكّل

ربما نتفق مع الحُكم النهائي أو لا نتفق معه، لكن من الص
عدم الاتفاق مع شكوى القاضي الأساسية -بأن إضافة الكحول إ
عملية فهم نوايا الآخر يجعل من الأمر في غاية الصعوبة، إن لم
مستحيلاً. الكحول مخدر يعيد تشكيل الثمِل تبعاً للخطوط العر
لبيئته المباشرة. في حالة شعب الكامبا، كانت إعادة التشكيل والسا
ذاك أمراً حميداً. لقد كانت بيئتهم المباشرة مبنية بشكل متعمد ودق
أرادوا استخدام الكحول لخلق صيغة مؤقتة -أفضل في أذهانهم
أنفسهم. لكن عندما يقوم الشباب اليوم بالشرب حتى الثمالة، فه
لا يفعلون ذلك في بيئة طقوسية مبنيّة بحرص من أجل خلق صي
أفضل لأنفسهم. إنهم يفعلون ذلك في الفوضى ذات الطابع الجنس
المفرط ضمن حفلات الأخوية والحانات.

الدفاع: ماذا كانت انطباعاتك عن طبيعة الأجواء الموجودة في

ممارسة الجنس وهم سُكارى عملاً إجرامياً. إضافة إلى ذلك، إذا كان باستطا
«م» القول إنها لم تكن مسؤولة عن قراراتها لأنها ثملة، فلمَ ليس بمقدور بينجا
بري قول الشيء ذاته؟ إن مبدأ «موافقة الإنسان الثمل تُعتبر موافقة» الذي يشير إ
الحُكم، «يُعدّ أيضاً تذكيراً بأن الرجل الثمل الذي ينوي ارتكاب جريمة الاغتصا
ويفعل ذلك، ليس معذوراً بحقيقة أن نيته هي نية رجل ثمل». حسناً، الحكم الصاد
بحق بري يصل إلى السؤال الذي تطرقت إليه محكمة كاليفورنيا. ماذا لو كان أ
الأطراف ثملاً حقاً؟ حسناً، كيف بحق السماء عسانا تحديد معنى عبارة «ثمل حقاً»؟
نحن في الحقيقة لا نريد من مشرّعينا إيجاد خوارزمية دقيقة ومفصّلة تحدد لنا مت
نستطيع ممارسة الجنس بخصوصية في غرف نومنا أو لا نستطيع. يختتم القاض
قائلاً: «لا تنشأ المشاكل من المبادئ القانونية، بل تكمن في ظروف السلوكيا
الإنسانية التي لا حصر لها، وتحدث عادةً على انفراد من دون دليل مستقل، وفي
الصعوبات اللاحقة من أجل إثبات هذه الجريمة البالغة الخطورة».

حفلات كابا ألفا من قبل؟

تيرنر: كثير من الضجيج و–

الدفاع: ماذا تعني بكلمة ضجيج؟

تيرنر: فتيات يرقصن... ووجوههن بعيدة عن أحد الأشخاص، والشخص الذي خلفهن يرقص معهن.

الدفاع: حسناً. أنت تصف وضعية حيث كلاكما تتجهان في الاتجاه نفسه.

تيرنر: نعم.

الدفاع: والفتى خلف الفتاة؟

تيرنر: نعم.

الدفاع: وما مدى اقتراب جسميهما من بعضهما في أثناء الرقص؟

تيرنر: التلامس.

الدفاع: هل هذا شائع في تلك الحفلات؟

تيرنر: نعم.

الرضى شيء يتم التفاوض بشأنه بين الطرفين، بافتراض أن كل طرف في أي تفاوض هو من يقول إنه هو. لكن هل يمكنك أن تحدد الرضى عندما يكون كلا الطرفين، في لحظة التفاوض، بعيدَين عن حقيقتهما؟

7

ماذا يحدث لنا عندما نثمل؟ إليكم المسار الخاص الذي يتبعه الكحول وهو يتسرّب عبر نسيج دماغنا. تبدأ التأثيرات في الفص

الأمامي، ذلك الجزء من دماغنا خلف جبهتنا الذي يتحكم بالا
والتحفيز، والتخطيط، والتعلّم. أول كأس «يثبّط» النشاط في
المنطقة، ويجعلنا «أغبى» نوعاً ما، وأقل قدرة على التعامل
الاعتبارات المعقدة والتنافسية. إنه يضرب مراكز المكافأة في الد
والمناطق التي تتحكم بالنشوة ويسبب لها صدمة صغيرة. ثم ي
طريقه إلى داخل المخ. يعمل المخ على إخبارنا كيف نتفاعل
العالم من حولنا. هل نحن مهدَّدون؟ هل يجب أن نخاف؟ يق
الكحول بإغلاق المخ نوعاً ما.

إن قِصر النظر ينشأ من مزيج هذه التأثيرات الثلاثة. ليست لد
القوة الدماغية للتعامل مع اعتبارات معقدة طويلة الأجَل. فن
نتشتت بالمتعة غير المتوقعة للكحول، ويتوقف عمل إنذار السر
العصبي. نصبح نسخاً متغيرة عن أنفسنا وممتنين للحظة الراهن
كذلك يجد الكحول طريقه إلى المخيخ الكائن في مؤخرة الدما
والمعني بالتوازن والتناسق. ولهذا السبب نبدأ بالتعثر والترنّح عند
نصبح مخمورين. تلك هي التأثيرات المتوقعة عندما تكون ثملاً.

لكن في ظل ظروف معينة وخاصة جداً -لاسيما إذا شربت
كثيراً من الكحول بسرعة كبيرة -يحدث شيء آخر. يضرب الكحول
قرن أمون؛ مناطق صغيرة تشبه النقانق على كلا جانبَي الدماغ مسؤول
عن تشكيل ذكريات حياتنا. عند مستوى كحول في الدم بمقدار 0.08
تقريباً -المستوى القانوني للثمالة - يبدأ قرن أمون بالمقاومة. عندما
تستيقظ في الصباح بعد حفل كوكتيل، وتتذكر لقاءك بشخص ما،
لكنك لا تستطيع أن تتذكر اسمه أو القصة التي أخبرك إياها، فهذا

سببه أن كأسي الويسكي اللتين شربتهما بتعاقب سريع قد وصلا إلى قرن أمون. اشرب أكثر قليلاً، وتصبح الفجوات أكبر، لدرجة أنه ربما تتذكر أجزاء من الأمسية، لكنّ الأجزاء الأخرى يمكن فقط أن تُستدعى بصعوبة بالغة.

آرون وايت، من المعهد الوطني للصحة خارج العاصمة واشنطن، واحد من أهم الخبراء في العالم بشأن حالات الإغماء المؤقت، وهو يقول ليس هناك منطق معين لتذكّر تلك الأجزاء أو عدم تذكرها. يقول: «لا يبدو أن للبروز العاطفي تأثيراً على الإمكانية التي يسجل من خلالها قرن أمون شيئاً ما. ما يعني أنه بإمكانكِ، بكونك أنثى، الذهاب إلى حفلة ما وربما تتذكرين تناول الشراب في الأسفل، لكنكِ لا تتذكرين تعرضك للاغتصاب. لكن فيما بعد تتذكرين ركوبك سيارة الأجرة». عند المستوى التالي –بحدود مستوى كحول في الدم بمقدار 0.15 تقريباً –يتم إغلاق قرن أمون نهائياً.

يقول وايت: «في حالة الإغماء المؤقت الحقيقي البحت، ليس هناك أي شيء، لا شيء لتتذكره».

في واحدة من أوائل الدراسات عن حالات الإغماء المؤقت، قام دونالد غودوين الباحث في الكحول بجمع عشرة رجال من العاطلين عن العمل في سانت لويس، وأعطى لكل منهم جزءاً من زجاجة بوربون على مدى أربع ساعات، ثم أخضعهم لسلسلة من اختبارات الذاكرة.

يقول غودوين:

اقتضى أحد الاختبارات إظهار مقلاة للشخص وعليها غطاء،

وعلى فرض أنه جائع، سيرفع الغطاء ليجد في المقلاة ثلاثة فئران ميتة. يمكن القول بثقة إن الأشخاص غير الثملين سيتذكرون... التجربة طيلة حياتهم.

لكن ماذا بشأن شاربي البوربون؟ لا شيء. ليس بعد ثلا... دقيقة، ولا حتى في الصباح التالي، فلم يتذكر أي منهم شيئا ... الفئران.

في حالة الإغماء المؤقت -في نافذة الثمالة المطلقة تلك ... أن يعود قرن أمون للعمل -يشبه الثملون أجهزة التشفير، فهم يجوبون العالم دون أن يحتفظوا بأي شيء.

ذات مرة، بدأ غودوين مقالاً حول الإغماء المؤقت بالقد... التالية:

استيقظ أحد مندوبي المبيعات وعمره تسعة وثلاثون عاما في غرفة فندق غريبة. كان يعاني من صداع خفيف جراء شر... الكحول، لكن عدا ذلك بدا طبيعياً. كانت ثيابه معلقة في الخزا... ولحيته محلوقة. ارتدى ثيابه وعاد إلى ردهة الفندق، فعلِم من موظف الاستقبال أنه كان في لاس فيغاس، وأنه وصل إلى الفندق قبل يومين قال الموظف، من الواضح أنه كان يشرب، لكن لم يبدُ عليه أنه ثمل إلى حدٍّ كبير. كان التاريخ هو السبت الرابع عشر من الشهر، وكان آخر ما يتذكره أنه جالس في حانة من حانات سانت لويس يوم الإثنين التاسع من الشهر. لقد شرب طوال النهار وكان ثملاً، لكن بإمكانه أن يتذكر كل شيء بشكل تام حتى الساعة الثالثة بعد الظهر؛ الوقت الذي أصبحت فيه ذاكرته فارغة «مثل انسدال ستارة»، وبقيت فارغة

لمدة خمسة أيام تقريباً. لقد أفزعته تلك التجربة جداً لدرجة أنه امتنع عن تناول الشراب طيلة عامين.

لقد غادر مندوب المبيعات الحانة في سانت لويس وذهب إلى المطار، ثم اشترى تذكرة طائرة وعاد إلى لاس فيغاس، فوجد فندقاً، وسجّل وصوله إليه، وعلّق بذلته وحلق لحيته، ومن الواضح أنه كان يؤدي وظيفته بشكل رائع حول العالم كله وهو في حالة إغماء مؤقت. تلك هي الطريقة التي تعمل بها حالات الإغماء المؤقت. عند الدرجة 0.16 أو ما يقرب منها، يتوقف قرن أمون عن العمل، ويتوقف تشكيل الذكريات، لكن من الممكن جداً أن يستمر الفص الجبهي والمخ والمخيخ لشارب الكحول ذاته -في الوقت نفسه -بالعمل بشكل طبيعي تقريباً.

قال وايت: «يمكنك العمل في أثناء حالة الإغماء المؤقت والقيام بأي شيء وأنت ثمل».

أنت فقط لن تتذكره. ويمكن لذلك أن يكون طلب أشياء من موقع أمازون. يخبرني الناس بذلك طوال الوقت... يمكن للناس القيام بأشياء معقدة للغاية كشراء بطاقات سفر والسفر، كل شيء، ولا يتذكرون شيئاً.

بناء على ما تقدم، من الصعب حقاً أن تعرف، من مجرد النظر إلى شخص ما، إن كان في حالة إغماء مؤقت. الأمر يشبه محاولة أن تكتشف إذا كان شخص ما يعاني من الصداع من تعابير وجهه حصراً. قال وايت: «ربما أبدو ثملاً بعض الشيء، وربما أبدو ثملاً تماماً، لكن يمكنني التحدث إليك».

يمكنني التحدث إليك. ويمكنني الذهاب وجلب كأسَي شراب. يمكنني أيضاً القيام بأشياء تتطلب مخزون معلومات قصير الأجل. يمكنني التحدث إليك عن ترعرعنا معاً... وحتى زوجات مدمني الكحول المتعنتات يقلن إنه ليس بإمكانهن معرفة متى يكون أزواجهن في حالة إغماء مؤقت أو لا يكونون.[1]

عندما كان غودوين يقوم بعمله الريادي في ستينيات القرن العشرين، افترض أن مدمني الكحول وحدَهم من يتعرضون لحالات الإغماء المؤقت. كانت تلك الحالات نادرة، وكتب العلماء عنها في المجلات الطبية بالطريقة التي يكتبون بها عن مرض سابق غير معروف. ألقِ نظرة على نتائج أول دراسة استقصائية شاملة عن عادات

(1) بالمناسبة، من المثير للدهشة أيضاً أنه من الصعب معرفة إن كان أحد الأشخاص شديد الثمالة. ثمة حالة اختبار واضحة هي نقاط التفتيش التي تضعها الشرطة لفحص حالة الاتزان. يقوم أحد رجال الشرطة بإيقاف عدد من الناس في شارع مزدحم في وقت متأخر من ليلة الجمعة، ويتحدث مع كل سائق ويدور حول الـ سيارة—ثم يعطي منفسة فحص الكحول لأي شخص يعتقد أنه ثمل بما يكفي ليكون فوق الحد القانوني. لقد تبيّن أن معرفة من يبدو ثملاً بما يكفي ليخضع للمنفسة صعب حقاً. خير دليل هو أن أكثر بكثير من نصف السائقين الثملين يجتازون نقاط التفتيش تلك بسهولة متناهية. في دراسة ضمن مقاطعة أورانج، كاليفورنيا، تم تحويل سير أكثر من ألف سائق إلى أحد مواقف السيارات في وقت متأخر من الليل. طُلِب إليهم تعبئة استمارة استبيان عن أمسيتهم، ومن ثم قام طلاب دراسات عليا متدربون على اكتشاف الثمالة باستجوابهم. كيف كان السائق يتكلم؟ كيف يمشي؟ هل كان هناك كحول في أنفاسه؟ هل كانت هناك زجاجات أو علب بيرة في سياراتهم؟ بعد أن أجرى المحاورون تشخيصهم، تمّ إخضاع السائقين لفحص الكحول. إن نسبة السائقين المخمورين الذين نجح المحاورون في تحديدهم كانت عشرين بالمئة.

تناول المشروب في الجامعة. لقد أُجريت في نهاية أربعينيات القرن العشرين وبدايات الخمسينيات منه، في سبع وعشرين جامعة في أرجاء الولايات المتحدة. سُئِل الطلاب عن معدل كمية الشراب الذي يتناولونه بشكل وسطي «في وقت واحد». (من أجل أهداف السؤال، تمّ تقسيم الكميات إلى ثلاث فئات. «كمية صغيرة» تعني أنها ليست أكثر من كأسين من النبيذ أو زجاجتين من البيرة أو كأسين من المشروبات المختلطة. «وسط»، من ثلاث إلى خمس زجاجات بيرة أو كؤوس نبيذ، أو أربع كؤوس مشروبات مختلطة. و«كبيرة»، أي شيء فوق ذلك)

بيرة		
	ذكور(٪)	إناث(٪)
كمية صغيرة	46	73
متوسطة	45	26
كبيرة	9	1

نبيذ		
	ذكور(٪)	إناث(٪)
كمية صغيرة	79	89
متوسطة	17	11
كبيرة	4	0

مشروبات قوية		
	ذكور(٪)	إناث(٪)
كمية صغيرة	40	60
متوسطة	31	33
كبيرة	29	7

عند مستويات الاستهلاك تلك، قلة قليلة جداً من الناس تشر
حتى تصل إلى حالة الإغماء المؤقت.

لقد تغير اليوم أمران بشأن ذلك الجدول، الأول، أن المشروبا القوية في الوقت الحاضر أكثر قوة مما كانت عليه قبل خمسي سنة. أفادت الباحثة بشؤون الكحول كيم فروم: «عندما تتحدث الطلاب (في الوقت الحاضر) عن أربع أو خمس كؤوس شراب فهي مجرد بداية للشرب». وتقول إن فئة المسرفين بصورة منتظ في تناول المشروبات القوية في الوقت الحاضر تتضمن أشخاد تناولوا عشرين كأساً في فترة واحدة. لقد أصبحت حالات الإغ المؤقت، التي كانت نادرة من قبل، شائعة في الوقت الحاضر. قا آرون وايت بإجراء استبيان مؤخراً على أكثر من 700 طالب في جامعة ديوك، ومن بين الذين يشربون الكحول جماعياً، عانى أك من النصف من حالات الإغماء المؤقت في مرحلة ما من حياتهم. كما أن 40 بالمائة حصل معهم إغماء مؤقت في السنة الماضية، وما مقداره واحد من عشرة حصل معه إغماء مؤقت في الأسبوعين

الماضيين.[1]

الثاني، أن فجوة الاستهلاكِ بين الرجال والنساء التي كانت ملحوظة للغاية قبل جيل من الآن، قد ضاقت إلى حدّ كبير، لاسيما لدى النساء البيضاوات. (لم تتم ملاحظة هذا الميل بالقدر نفسه لدى النساء الأسيويات أو ذوات الأصول الإسبانية أو الأميركيات من أصل أفريقي).

«أظن أن الأمر مسألة تمكين» تقول فروم:

قمتُ بالكثير من أعمال الاستشارات في الجيش ومن الأسهل بالنسبة إليّ أن أرى ذلك هناك لأن النساء في الجيش يخضعن للمعايير ذاتها التي يخضع لها الرجال فيما يتعلق بمعسكرات التدريب البدني وما إلى ذلك. لقد عملن بجد بالغ كي يحاولن القول: «نحن مثل الرجال ولهذا بإمكاننا أن نشرب مثلهم».

---

(1) في مقال رائع في جريدة نيويورك تايمز، تصف آشتون كاثرين كاريك، وهي طالبة في جامعة نورث كارولاينا، لعبة شراب تدعى «ضع القيد واشرب». ثمة شخصان يُقيّدان معاً إلى أن يتمكنا من الوصول إلى الكأس الخامس من الشراب. تكتب قائلة: «يتم استخدام أقلام شاربي لإحصاء عدد كؤوس الشراب الموجودة بين يديك، وتحديد نسبة كؤوس الشراب إلى الوقت الذي يُستغرق في الوصول إلى حالة الإغماء المؤقت -كانت النسبة العالية مصدر فخر بين الشباب». تتابع فتقول:

إن الطريقة التي نعامل بها، بوصفنا طلاباً، حالات إغماء أقراننا المؤقت مسؤولة أيضاً بصورة جزئية عن انتشارها. فنحن في الواقع نعتقد أن الأمر مضحك، ونتبادل الدعابات في اليوم التالي عن كيف بدا أصدقاؤنا مثيرين للسخرية وهم مغمى عليهم في أرض الحمام أو نقوم بإرسال الصور ونحن نرقص ونتبادل القبل مع بعض الأشخاص العشوائيين، وبهذا نُقرّ أفعالهم ونشجّعهم على القيام بذلك مرة أخرى. لقد أصبح الإغماء المؤقت أمراً عادياً جداً لدرجة أنه بالرغم من أنك لا تقوم بذلك شخصياً إلا أنك تفهم لماذا يقوم به الآخرون. إنها طريقة اعتراف متبادل لتخفيف التوتر. وسيكون التعامل مع الأمر كأي شيء، نوعاً من إطلاق الأحكام على الناس.

لأسباب سيكولوجية فإن هذه النزعة عرّضت النساء ا...
الإغماء المؤقت بشكل متزايد إلى حد كبير. إذا قام أميركي ذو .
متوسط بشرب ثماني كؤوس خلال أربع ساعات -مما يجعله شا.
كحول معتدلاً في حفلة أخوية عادية -فسوف ينتهي به الأمر ب.
كحول في الدم قيمتها 0.107. وهذه نسبة لا تسمح له بقيادة السـ.
لكنها أقل بكثير من نسبة 0.15 التي تترافق عادةً مع حالات الإ..
المؤقت. وفي حال تناولت امرأة ذات وزن متوسط ثماني كؤ..
شراب خلال أربع ساعات، فسوف يكون مستوى الكحول في د..
0.173، وسوف تكون في حالة إغماء مؤقت.[1]

يصبح الأمر أكثر سوءاً. فالنساء أيضاً يشربن النبيذ والمشروبا
القوية بشكل متزايد، مما يزيد مستوى الكحول في الدم بشكل أسـ.
من البيرة. يقول وايت: «الأرجح بالنسبة إلى النساء أنهن يقمن بتخط.
تناول وجبات الطعام عندما يتناولن المشروب أكثر مما يفعل الرجال».

إن وجود وجبة طعام في معدتك عندما تتناول المشروب يخفـ.
الحد الأقصى لتركيز الكحول في الدم بمقدار الثلث تقريباً. بكلما.
أخرى؛ في حال تناولت المشروب على معدة فارغة سوف تصـ.
إلى تركيز كحول في الدم أعلى بكثير وبسرعة أكبر، وفي حال كـ.
تتناول مشروبات قوية ونبيذاً على معدة فارغة، سوف يرتفع أيضـ.

(1) ليس الأمر مجرد مسألة وزن، فهناك أيضاً اختلافات جوهرية في طريقة استقلا.
كلا الجنسين للكحول. فكمية الماء في دماء النساء أقل بكثير مما هي عليه ..
الرجال، مما يؤدي إلى دخول الكحول في مجرى دمائهن بسرعة أكبر بكثير. .
حال قام ذكر وأنثى لهما الوزن نفسه (195،7 باوند) بتناول المشروب مدة أر..
ساعات، سيكون مستوى الكحول في دمه 0.107 أما هي فسيكون 0.140.

تركيز الكحول في الدم بسرعة أكبر بكثير. وفي حال كنتِ امرأة، فإن مياه الجسم الأقل تؤدي إلى تركيز أعلى للكحول في الدم بسرعة أدبر بكثير.

وما هي عواقب وقوعك في حالة إغماء مؤقت؟ هذا يعني أن النساء يضعن أنفسهن في حالة ضعف. إن ذاكرتنا هي خط دفاعنا الأول في أي نوع من أنواع التفاعل مع شخص غريب. نحن نتحدث مع شخص في حفلة ما مدة نصف ساعة ثم نقيّم ما تعلمناه، ونستخدم ذاكرتنا كي نفهم ماهية الشخص الآخر ونستجمع ما قاله لنا وما فعله معنا، وهذه الأمور تشكّل استجاباتنا. هذه ليست عملية خالية من الأخطاء في أفضل الأوقات لكنها عملية ضرورية لاسيما إذا كانت المسألة المطروحة هي إذا ما كنت ستذهب إلى المنزل مع ذلك الشخص. لكن إذا لم يكن بإمكانك تذكّر أي شيء عرفته للتو فأنت بالضرورة لا تقوم باتخاذ قرار له الجودة نفسها كالذي تتخذه إذا كان قرن أمونك يعمل. لقد فقدت السيطرة على الوضع.

«لنكن واضحين تماماً: الجناة هم المسؤولون عن ارتكاب جرائمهم، ويجب أن يمثلوا أمام العدالة»، تكتب الناقدة إيميلي يوفي في جريدة سلايت:

لكننا نفشل في أن ندع النساء يعرفن أنه عندما يجعلن أنفسهن بلا حماية، يمكن أن تحدث لهن أشياء فظيعة. تحصل النساء الشابات على رسالة مشوهة بأن حقهن في منافسة الرجال في تناول المشروب هو قضية نسوية. ويتعين أن تكون الرسالة النسوية الحقيقية أنه عندما تفقد القدرة على أن تكون مسؤولاً عن نفسك، فأنت تزيد فرصَ

جذب أنواع من الناس الذين لا يكنّون لك أفضل الاهتمام في أع...
قلوبهم. هـذا ليس توجيهاً للّوم نحو الضحية، بل إنه محاولة لتفا...
المزيد من الضحايا.

ماذا بشأن حديث الشخص الغريب معك؟ ربما لا يعرف أ...
في حالة إغماء مؤقت. ربما ينحني ويحاول أن يلمسك وأنت في ...
تصلّب. ثم بعد مرور عشر دقائق، يعود بشكل أكثر دهاءً. في العا...
ستتصلّب مرة أخرى، لأنك ستتعرف إلى شكل الشخص الغري...
لكنك لا تتعرف إليه في هذه المرة الثانية لأنك لا تتذكر المرة الأو...
وحقيقة أنك لا تتصلب بالطريقة نفسها تماماً يجعل الشخص الغر...
يعتقد، تحت فرضية الشفافية، أنك ترحب بتحرشاته.

في العادة، سوف يكون حذراً في التحرك تحت تلك الفرض...
الصداقة ليست الشيء نفسه كالدعوة لعلاقة حميمية. لكنه ثمل أيضا...
إنـه تحـت تأثير قصـر النظر الكحولي، وذلك النوع مـن الاعتبار...
طويلة الأمد التي ربما تقيد سلوكه بخلاف ذلك (ماذا سيحدث ا...
غداً في حال أسأت فهمَ هذا الوضع؟) تكون قد اختفت من المشها...

هل يحوّل الكحول كل رجل إلى وحش؟ بالطبع لا. يعالج قص...
النظر الصراع الكبير: فهو يزيل القيود من الدرجة العليا عن تصرفات...
في العادة، الرجل المتحفظ، الخجول جداً كي يجاهر بمشاعره، ربما...
يفشي بشيء من الحميمية، والرجل غير المرح، الذي يعي في العاد...
أن العالـم لا يجـد دعاباتـه مضحكة، ربما يبدأ بلعب دور الكوميدي...
هـذه أمـور لا تسـبب الأذى. لكـن ماذا بشـأن المراهـق العدواني من...
الناحية الجنسـية، الذي تبقى اندفاعاته عادةً تحت السـيطرة من خلال...

إدراك مدى عدم ملاءمة تلك السلوكيات؟ ثمة صيغة من التحذير نفسه الذي قدمته إيميلي يوفي للنساء، يمكن تقديمه للرجال أيضاً:

لكننا نفشل في أن ندع الرجال يعرفون ذلك عندما يجعلون أنفسهم في حالة قِصر النظر، إذ بإمكانهم القيام بأشياء فظيعة. يحصل الرجال على رسالة مشوهة وهي أن الإفراط في تناول الشراب عملية اجتماعية غير مؤذية. يجب أن تكون الرسالة الحقيقية هي أنه عندما تفقد القدرة على أن تكون مسؤولاً عن نفسك، فإنك تزيد فرص ارتكاب جريمة جنسية إلى حدّ بعيد. إن الإقرار بدور الكحول ليس ذريعة لسلوك المرتكبين، بل هو محاولة لمنع مزيد من الشباب من أن يصبحوا مرتكبين.

ما يلفت النظر هو إلى أي مدى لا تُعطى قوة قِصر النظر حقها. ففي دراسة نُشِرت في الواشنطن بوست، طُلِب إلى الطلاب تقديم لائحة بالإجراءات التي يعتقدون أن لها تأثيراً كبيراً في تخفيف الاعتداءات الجنسية. وضعوا على رأس القائمة فرضَ أقسى العقوبات على المعتدين، وتقديم تدريب للضحايا في كيفية الدفاع عن النفس، وتعليم الرجال احترام النساء أكثر. كم منهم اعتقد أن الأمر سيكون «فعّالاً جداً» إذا ما تناولوا مقداراً أقل من الشراب؟ ثلاث وثلاثون بالمئة. وكم منهم اعتقد أن فرض قيود أقوى على تناول الكحول في الحرم الجامعي سيكون فعالاً جداً؟ خمس عشرة بالمئة.[1]

(1) يرى البالغون الأمر على نحو مختلف تماماً. يعتقد خمس وثمانون بالمئة من البالغين أن «تناول المشروب بشكل أقل» سيكون فعالاً جداً في تقليل الاعتداءات الجنسية.

هذه مواقف متناقضة. إذ يعتقد الطلاب أن التدريب على الدفاع عن النفس فكرة صائبة، وأن التضييق على تناول الشراب ليس فكرة صائبة. لكن ما الجيد في معرفة أساليب الدفاع عن النفس إذا ما كنت في حال سُكر أعمى؟ يعتقد الطلاب أنه من الصائب حقاً إذا ما احترم الرجال النساء بشكل أكبر، لكنّ الموضوع ليس كيفية تصرّف الرجال مع النساء عندما يكونون غير ثملين، بل كيف يتصرفون مع النساء عندما يكونون ثملين، وقد حوّلهم الكحول إلى أشخاص يفهمون العالم من حولهم بطريقة مختلفة جداً. يتطلب احترام الآخرين حسابات معقدة يقبل من خلالها أحد الأطراف تخفيف رغباته الخاصة، ويأخذ بعين الاعتبار النتائج طويلة الأمد لتصرفاته الخاصة، ويفكر في شيء آخر غير ذلك الموجود أمامه مباشرةً. وهذا بالضبط ما يجعل قِصر النظر الذي يترافق مع الثمالة أمراً بالغ الصعوبة.

إن الدرس المستخلص من قِصر النظر بسيط جداً. إذا أردت أن يكون الناس على طبيعتهم في لقاء اجتماعي مع شخص غريب ... أن يُظهروا رغباتهم الخاصة بصدق ووضوح –فلا يمكن أن يكونوا في حالة سُكر أعمى. وفي حال كانوا كذلك، ومنه تحت رحمة بيئتهم، فإن أسوأ مكان تكون فيه هو بيئة حيث الرجال والنساء يتحركون بصخب فوق ساحة الرقص ويقفزون على الطاولات. إن حفلة أخوية كابا ألفا ليست هي دائرة تناول الشراب عند شعب الكامبا.

يختتم كريغ مك أندرو وروبرت إدغرتون عملهما الكلاسيكي في العام 1969 المعنون (سلوكيات الثِمل) بقولهما: «يتعلم الناس عن الثمالة ما تنقله إليهم مجتمعاتهم، ويتصرفون بالتوافق مع هذا

المفاهيم، ويصبحون تأكيدات حية لتعاليم مجتمعاتهم. بما أن المجتمعات، كالأفراد، تمثل سلوكيات الشخص الثمِل التي يسمحون بها، فهم يستحقون ما يحصل لهم».

8

حسناً، في حفلة كابا ألفا في جامعة ستانفورد، في وقت ما بعد منتصف الليل، عانت إيميلي دو من حالة إغماء مؤقت. هذا ما يحصل عندما تبدأ أمسيتك بعشاء خفيف وأربع كؤوس من الويسكي مع كأس من الشمبانيا -تتبعها ثلاث أو أربع كؤوس سولو حمراء من الفودكا.

الادعاء: في مرحلة ما، هل تتذكرين شقيقتك وهي تغادر الحفلة؟

دو: لا أتذكر.

الادعاء: ماذا تتذكرين مما حصل بعد ذهابك إلى الحمام، والعودة إلى الفناء، ثم تناول البيرة ورؤية بعض الشباب وهم يشربون علب البيرة بسرعة كبيرة؟

دو: استيقظتُ في المستشفى.

ليس لإيميلي دو أية ذكرى عن اللقاء ببروك تيرنر، ولا عن رقصها أو عدم رقصها معه، ولا تقبيلها أو عدم تقبيلها له، ولا عن موافقتها أو عدم موافقتها على الذهاب إلى المهجع معه، ولا أية ذكرى لها سواء أكانت مُشاركة بإرادتها أم دون إرادتها في نشاطهما الجنسي. هل قاومت عندما غادرا الحفلة؟ هل تعاركت؟ هل غازلته؟ هل تعثّرت

وهي تمشـي وراءه بشـكل أعمى؟ لن نعرف أبداً. بعد الواقعة، ..
أصبحت واعية، أصرّت دو على أنها ما كانت لتغادر الحفلة بإر..
مع رجل آخر، فقد كانت ملتزمة بعلاقة جدية. لكنها لم تكن إ..
دو الحقيقية التي التقت ببروك تيرنر. لقد كانت إيميلي دو الثمل..
تعرضـت لحالـة إغمـاء مؤقـت، كما أن ذواتنا الثملـة والمغمى ..
بشكل مؤقت ليست هي ذواتنا الواعية نفسها.

ادعـى بـروك تيرنـر أنـه يتذكـر ما حدث تلك الليلـة وأنه في ..
خطوة على الطريق كانت إيميلي دو مُشاركة بإرادتها. لكن تلك ..
القصـة التـي رواهـا في أثناء محاكمته بعد أشـهر من التحضير وو..
الاستراتيجيات مع المحامين الخاصين به. ليلة القبض عليه بينما ..
جالسـاً فـي حالـة صدمة داخـل غرفة التحقيق التابعة لمخفر الشـ..
المحلي، لم تكن لديه تأكيدات من ذاك القبيل بشأن إيميلي دو.

سـؤال: هل كنتما تخططان لما سـيحدث لاحقاً قبل خروج..
من المكان؟

تيرنـر: أظـن ذلـك. لكني بصراحة لسـتُ واثقاً متـى بدأنا نتبا..
القبل.

بعدئذٍ، عندما سأله ضابط الشرطة عن سبب هروبه عندما اكتشـ..
طالبا الدراسات العليا وجوده مع إيميلي على الأرض.

تيرنر: لا أظن أني هربت.

سؤال: أنت لا تتذكر أنك هربت؟

تيرنر: لا.

لنتذكر أن الحدث المذكور وقع في وقت مبكر من تلك الليلة، وأنه حتى وهو يتكلم، كان تيرنر يعالج من جرح أصاب معصمه عند محاولته الفرار. لكنّ كل هذا تم نسيانه.

سؤال: هل ألقيت نظرة عليها حين كان الشابان يقتربان منك ويتحدثان معك؟

تيرنر: لا.

سؤال: هل من الممكن أنها لم تكن متجاوبة في تلك اللحظة؟

تيرنر: بصراحة، لستُ أدري، لأني - يبدو أنني لا أتذكر حقاً. ويبدو -أظن أني كنتُ في حالة إغماء مؤقت، بعد، أه، منذ لحظة ذهابي -وكأني كنتُ أبحث عنها لكي، وكأني كنتُ على الأرض مع الشخصين الآخرين. وكأني، أنا حقاً لست أذكر كيف حدث ذلك.

أظن أني كنتُ في حالة إغماء مؤقت. حسناً، كل القصة بشأن الغزل والقُبَل وموافقة إيميلي دو على الذهاب إلى مهجعه، كانت رواية خيالية: ذلك ما كان يأمل بأنه قد حدث. وما حدث حقاً سيظل لغزاً إلى الأبد. ربما وقف تيرنر وإيميلي دو هناك فوق ساحة الرقص فحسب، يكرران الشيء نفسه لبعضهما، مرة بعد أخرى، دون أن يدركا أنهما وقعا في فخ حلقة مفرغة من الإغماء المؤقت.

في نهاية المحاكمة، قرأت إيميلي دو بصوت عالٍ رسالةً أمام المحكمة، كانت موجّهة إلى بروك تيرنر. يجب على كل شاب وفتاة ممن يذهبون إلى حانة أو حفلة أخوية أن يقرؤوا رسالة إيميلي دو. إنها رسالة شجاعة وبليغة، وتذكير قوي بعواقب الاعتداء الجنسي:

ذلـك أن ما يحدث بين شـخصين غريبيـن، بغياب الموافقة الحقـ
يسبّب ألماً ومعاناةً حقيقيين.

قالت إن ما حدث تلك الليلة قد حطمها:

لقد تشـوهت اسـتقلاليتي وبهجتي الطبيعية ولطافتي وأسـا
حياتي الثابت الذي كنتُ مستمتعة به، إذ إنه من المتعذر التعرف إ
أصبحت منغلقة على نفسـي، غاضبة وتعبة ومسـتنكرة لذاتي وفا
وانفعالية. كانت العزلة في بعض الأحيان أمراً لا يُحتمل.

كانـت تحضـر إلـى العمـل متأخرة، ثم تذهـب وتبكي عند
الدرج. وكانت تبكي إلى أن تنام في الليل، وفي الصباح تضع ملا
مبرّدة على عينيها لتخفيف التورم.

لا أستطيع النوم وحدي في الليل دون الإبقاء على الضوء،
فتـاة بعمـر الخمـس سـنوات، لأني أعاني من كوابيس بأنه يتم لمسـ
وأنا لا أستطيع أن أستيقظ. كنتُ أبقى مستيقظة حتى تشرق الشمس
فأشعر بالأمان بما يكفي كي أنام. ولمدة ثلاثة أشهر، كنتُ أخلد إ
النوم عند الساعة السادسة صباحاً.

لقد اعتدتُ أن أكون فخورة بنفسي بسبب استقلاليتي، أما الا
فأنا أخاف من المشـي في المسـاء أو الذهاب إلى أمسـيات اجتما
لتناول الشراب مع الأصدقاء حيث يجب أن أكون مرتاحة بينهم. لذ
أصبحـت مثـل صدفـة بحر صغيرة بحاجة دائمـاً إلى أن أكون بجانـ
أحدهـم، وأجعـل صديقـي الحميـم يقف دائماً بجانبي وينام بجانبي

ويحميني. إنه لمن المحرج كم أنا ضعيفة، وكيف أني أواصل الحياة بتردد وخوف، دائماً حذرة ومستعدة للدفاع عن نفسي، ومستعدة لأن أكون غاضبة.

بعد ذلك تصل لمسألة الكحول. هل كان أحد العوامل فيما حدث تلك الليلة؟ بالطبع. لكن عندها تقول:

لم يكن الكحول هو من جردني من ثيابي ووضع إصبعه داخلي، وجعل رأسي يُجرّ على الأرض وأنا عارية تقريباً. كان الإفراط في تناول الشراب خطأ شخص هاوٍ أعترف به، لكنه ليس مجرماً. كل من في هذه القاعة حظي بليلة ندم فيها على الإفراط في الشرب، أو يعرف شخصاً قريباً منه حظي بليلة ندم فيها على إفراطه في الشرب. إن الندم على الإفراط في الشرب ليس الشيء نفسه كالندم على الاعتداء الجنسي. كلانا كان ثملاً، والفرق أنني لم أخلع سروالك ولباسك الداخلي عنك وألمسك بشكل غير ملائم، وألوذ بالفرار. ذلك هو الفرق.

في إفادته أمام المحكمة، قال تيرنر إنه يأمل بترتيب برنامج للطلبة «للتحدث علناً ضد ثقافة تناول الشراب في الحرم الجامعي والمجون الجنسي الذي يسير جنباً إلى جنب مع ذلك». كانت دو لاذعة في نقدها:

ثقافة تناول الشراب في الحرم الجامعي. هذا ما نتحدث علناً ضده؟ هل تظن أن هذا ما أمضيت السنة الماضية أكافح من أجله؟ لا توعية بشأن الاعتداء الجنسي ضمن الحرم الجامعي، أو الاغتصاب،

أو تعلّمِ إدراك معنى الموافقة. ثقافة تناول الشراب في الحرم الجا..
فليسقط جاك داينالز، ولتسقط سكي فودكا. إذا أردت التحدث ..
الناس بشأن تناول الشراب، فلتذهب إلى اجتماع مدمني الكـ..
هل تدرك أن معاناتك من مشكلة تناول الشراب أمر مختلف ..
تناول الشراب ثم محاولة ممارسة الجنس عنوة؟ أظهر للرجال ..
يحترمون النساء، وليس كيف يتناولون الشراب بشكل أقل.

لكنّ هذا الأمر ليس صحيحاً تماماً، أليس كذلك؟ ذلك ..
الجملة الأخيرة يجب أن تكون «أظهر للرجال كيف يحترمون الـ..
وكيف يتناولون الشراب بمقدار أقل». لأن الأمرين مرتبطان معا. ..
طُلِب إلى بروك تيرنر أن يفعل شيئاً بالغ الأهمية تلك الليلة؛ أن يـ..
رغبات شخص غريب ودوافعه، وتلك مهمة صعبة علينا جميعا ..
ظل أفضل الظروف، لأن افتراض الشفافية الذي نعتمد عليه في ..
اللقاءات خاطئ جداً. إن الطلب إلى شخص ثمل وغير ناضج بـ..
التاسعة عشرة أن يفعل ذلك، وضمن فوضى جنسية مفرطة في إ..
حفلات الأخوية، هو دعوة لكارثة.

إن نتيجة قضية الشعب ضد بروك تيرنر حققت قدراً من العـ..
لإيميلي دو. لكن طالما أننا نرفض الاعتراف بما يفعله الكحول ..
التعامل بين الغرباء، فإن تلك الأمسية في كابا ألفا ستتكرر مرة أخـ..
وأخرى.

الادعاء: لقد سمعت رسالة (إيميلي) الصوتية، أليس كذلك؟

تيرنر: نعم.

تستجوب المدعية العامة تيرنر. إنها تشير إلى المكالمة الهاتفية المتلعثمة التي أجرتها إيميلي دو مع صديقها الحميم في وقت ما بعد إصابتها بحالة الإغماء المؤقت.

الادعاء: سوف تتفق معي أنها في تلك الرسالة الصوتية، تبدو ثملة للغاية؟

تيرنر: نعم.

الادعاء: تلك هي الحالة التي كانت عليها معك في تلك الليلة، أليس كذلك؟

تيرنر: نعم.

الادعاء: كانت ثملة للغاية، أليس كذلك؟

تيرنر: لم تكن ثملة أكثر من أي شخص آخر كنتُ معه.

القسم الرابع

الدروس

الفصل التاسع

خ ش م: ماذا يحدث عندما يكون الغريب إرهابياً؟

1

يتذكر جيمس ميتشيل: «أول ما خطر في ذهني أنه يبدو مثل قزم خرافي، كان غاضباً، وشرساً، كان يُحدّق إليّ، وكنت أقوم بتحقيقٍ حيادي، لذا كنت أتحدّث إليه مثلما أتحدّث إليك، نزعت القُبَعة وسألته: «بم تود أن أدعوك؟». أجابني الرجل بإنكليزية فظة: «ادعُني مختاراً. مختار تعني الدماغ. كنت الأمير في هجمات الحادي عشر من أيلول».

إنه شهر مارس 2003، في موقع سرّي لوكالة الاستخبارات المركزية في مكان ما «من الجهة الأخرى من العالم». بحسب تعبير ميتشيل. كان مختار خالد شيخ محمد المعروف أيضاً خ ش م KSM، وهو أحد أرفع قادة القاعدة الذين قُبض عليهم عارياً، مُكبَلَ اليدين والقدمين، وبالرغم من ذلك كان مُتحدّياً.

قال ميتشيل: «حلقوا شعر رأسه ولحيته بذلك الموس، لقد كان أكثر إنسان يملك شعراً رأيته في حياتي، وكان ضئيل البنية حقاً، ولكن بطنه كانت بارزة مثل الخنزير الفيتنامي. لقد فكرت، كيف قتل هذا

الشاب كل أولئك الأميركيين؟».

ميتشيل طويل ورشيق، شعره أبيض بعض الشيء ومفرو... المنتصف ولحيته مُشذّبة بأناقة، وهو يشبه العدائين من ناحية الـ... إنه يتحدّث بلكنة جنوبية معتدلة. وهو يصف نفسه بقوله: «أبدو ... خال أحد ما» ممن قد تكون لديه غيرية على نحوٍ مبالغ فيه. إنه يـ... انطباعاً بثقة راسخة بالنفس، كما لو أنه يحظى دائماً بنومٍ هانئ... الليل، لا يُهم ما قام به لأي شخص في ذلك اليوم، أو ما فعله ذا... الشخص به.

ميتشيل مختص بعلم النفس من خلال التدريب. بعد هجـ... الحادي عشر من أيلول، استعانت به وكالة الاستخبارات المر... هو وزميله، بروس جيسين، بسبب مهارتهما في التحقيقات ذا... «المخاطر العالية». جيسين أكبر حجماً من ميتشيل، وأكثر هدو... وقد قص شعره بطريقة عسكرية. يقول ميتشيل إنه يبدو مثل «جو... كلود فاندام أكبر سناً». لا يتحدّث جيسين على الملأ. إذا بحثت ... على الإنترنت، فستجد أجزاء من إفادة مُسجّلة على شريط فيديو أدلـ... بها وميتشيل في قضية بشأن ممارساتهما في التحقيق. ميتشيل هادئ... ومنطقي، ومُتهكّم تقريباً من الإجراءات. جيسين مقتضب وحذر: «كُنا جنوداً نفعل ما أُمرنا أن نقوم به».

كانت مهمّتهما الأولى، بعد سقوط البرجين، المساعدة في التحقيق مع (أبو زبيدة)، أحد أوائل رفيعي المستوى الذين قُبض عليهم. على مدار ثماني سنوات، كانا يذهبان ليستجوبا شخصيا العديد من الإرهابيين الآخرين «ذوي الأهمية الكبيرة» المشتبه بهم

في العديد من المواقع السرية حول العالم. من بينهم جميعاً، كان خ ش م هو الجائزة الكبرى.

يقول ميتشيل: «لقد أذهلني أنه كان عبقرياً». خلال جلساتهم، كان يطرح عليه ميتشيل سؤالاً، وكان خ ش م يجيب: «ليس هذا السؤال الذي أود أن تسألني إياه. ستحصل على إجابة ستجدها مفيدة وستظن أنها هي كل ما تحتاج إليه. ولكن السؤال الذي يجب أن تطرحه حقاً هو هذا». يقول ميتشيل بعد ذلك كنت أطرح عليه السؤال الذي يريده: «وكان يعطي إجابة أكثر تفصيلاً وشمولاً بكثير». كان خ ش م يتحدث باستمرار عن تكتيكات الأعمال الإرهابية، وعن رؤيته الإستراتيجية، وعن أهداف الجهاد. لو لم يُقبض عليه، لكان خ ش م قد خطط لجميع أشكال المتابعة لأحداث الحادي عشر من أيلول. يقول ميتشيل وهو يهز رأسه: «كانت توصيفاته مروّعة عن الهجمات منخفضة التقنية، هجمات الذئاب المنفردة، في الحقيقة، كان يجلس ويفكر كما لو أنه مخطط اقتصادي كبير عندما يتعلّق الأمر بقتل الناس...».

«لقد أرعبني حقاً عندما كان يتحدث عن دانييل بيرل. كان ذلك الأكثر... لقد بكيت ولا أزال أفعل، لأنه كان رهيباً». كان دانييل بيرل المراسل الصحفي لوول ستريت جورنال الذي خُطِف – ومن ثم قُتِل- في باكستان في يناير 2002. تطرّق خ ش م إلى موضوع بيرل من دون أن أسأله، ثم نهض عن كرسيّه وأظهر – مع ما ظنه ميتشيل أنه لمسة من الاستمتاع – الطريقة التي استخدمها ليقطع رأس بيرل بسكين. «ما كان رهيباً بخصوص ذلك أنه تصرّف كما لو أن لديه

علاقــة وثيقــة مـن نـوع ما مع دانييل. لقد اسـتمر في مناداتـه «دا
بذلـك الصـوت كمـا لو أنهما أعز صديقين، أو شـيء من هذا الق
لقد كان شيئاً فظيعاً حقاً».

ولكن كلّ هذا كان لاحقاً، بعد أن قام خ ش م بالمصارحة
مارس 2003، عندما قابله ميتشيل وجيسين وجهاً لوجه للمرة الأو
بدا صغيراً ومُشعراً وسميناً، كانت الأمور مختلفة جداً.

قـال ميتشـيل: «عليـك أن تتذكـر أنه فـي ذلك الوقـت بالتح
كان لدينـا دليـل موثـوق علـى أن القاعدة تخطط لسلسـلة جديدة
الهجمات الكبيرة».

كان هنـاك كثيـر مـن الثرثـرة. كنا نعلم أن أسـامة بـن لادن قا
علمـاء باكسـتانيين كانـوا ينقلـون التكنولوجيـا النوويـة، وعرفنـا
العلماء الباكستانيين قالوا لبن لادن: «هناك مشكلة كبيرة في الحص
علـى المـادة النوويـة». فـردّ عليهم بن لادن قائلاً: «ماذا سـتقولون إ
أخبرتكم أننا حصلنا عليها؟». لقد أثار هذا بحق القشعريرة في مجت
الاستخبارات بأسره.

لقد أرسـلت وكالة الاسـتخبارات المركزية أشـخاصاً يتجول
حـول مانهاتـن مـع عـدّادات جايجـر، بحثاً عـن قنبلة قـذرة، وكان
واشـنطن فـي حالـة تأهـب قصـوى، وفور القبض علـى خ ش م، كا
هناك إحسـاس أنه إذا كان شـخص يعرف أي شـيء بشـأن الهجما
المُخطَّطة، فسـيكون هو. ولكن خ ش م لـم يتكلم، ولـم يكن ميتشـي
مُتفائلاً. كان خ ش م بمثابة الخزنة الصلبة.

حاولت أول مجموعة من المُحقّقين الذين أُرسـلوا لاسـتجواب

خ ش م أن يكونوا ودودين. جعلوه مستريحاً، وأعدوا له بعض الشاي، وببالغ الاحترام طرحوا عليه أسئلتهم، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة. كان ببساطة ينظر إليهم ويتمايل إلى الأمام والخلف.

ثم سُلم خ ش م إلى شخص يدعوه ميتشيل: مدير الشرطة الجديد، وهو مُحقّق يقول ميتشيل إنه بلغ السادية في تحقيقه، كان يثني خ ش م في العديد من الأوضاع المُجهدة، مثل تقييد يديه بالشريط اللاصق خلف ظهره، ثم رفعِهما إلى الأعلى فوق رأسه، على نحو تكاد فيه كتفاه أن تقتلعا «أخبرني هذا الشخص أنه تعلّم أساليبه في التحقيق في أميركا الجنوبية من الثوار الشيوعيين، لقد انخرط في معركة إرادة مع خ ش م. قرّر مدير الشرطة الجديد أنه يريد أن يُنادى سيدي. كان هذا جُلُّ تركيزه». لم تكن لدى خ ش م النية بمناداة أي كان بسيدي. بعد أسبوع من المحاولات، استسلم مدير الشرطة الجديد، وتم تسليم السجين إلى ميتشيل وجيسين.

ما حصل لاحقاً كان محل جدال كبير. كانت أساليب الاستجواب المُطبّقة على خ ش م موضوع محاكمات قضائية، وتحقيقات من قِبل الكونغرس، ونقاش عام لا نهاية له. يعتبر المؤيدون لهذه الإجراءات أنها «تقنيات استجواب مُعزّزة» EITs. أما أولئك الذين كانوا على النقيض فيدعونها تعذيباً. ولكن لنضع جانباً القضايا الأخلاقية الأكثر شمولاً لبعض الوقت، ودعونا نركّز في ما يمكن أن يخبرنا به استجواب خ ش م بشأن أُحجيتين.

خداع آنا مونتيس وبيرني مادوف، الغموض بشأن أماندا نوكس، محنة غراهام سبانير وإيميلي دو كلها أدلة على المشكلة الكامنة التي

لدينا في فهم الأشخاص الذين لا نعرفهم. إن القصور في تقد... الحقيقة هو استراتيجية مهمة بشكل حاسم تؤدي بشكل حتمي إ... تضليلنا بين الحين والآخر. إن ما يبدو منطقياً في افتراض الشف... لا يعدو عن كونه وهماً. أياً يكن الأمر، فإن كليهما يطرحان الس... نفسه: حالما نوافق على وجود نواحي القصور لدينا، ما الذي يج... علينا القيام به؟ قبل أن نعود إلى ساندرا بلاند - وما الذي حد... بالضبط على قارعة الطريق تلك في تكساس - أريد أن أناقش ما ... يكون الحكاية الأكثر تطرفاً في قضية التحدث إلى الغرباء: الإرها... الذي يريد أن يحتفظ بأسراره، والمُحقّق الذي سيفعل أي شيء تقر... لكي يُنقّب عنها.

تقابل ميتشيل وجيسين في سبوكين، واشنطن، حيث عمل ك... واحد منهما معالجاً نفسياً لصالح سلاح الجو سيري؛ البقاء والمراو... والمقاومة والهرب. تمتلك جميع أقسام القوات المسلحة الأميركي... صيغتها الخاصة من برنامج سيري، الذي يتضمن تعليم الأفرا... المهمين ما يجب عليهم القيام به في حال وقعوا في الأسر.

يبدأ التمرين عندما تعتقل الشرطة المحلية ضباط سلاح الج... بشكل مفاجئ، ثم تجلبهم إلى مركز توقيف أُعد ليكون نموذج... عن معسكر لأسرى الحرب لدى العدو. يقول ميتشيل: «يوقفونهم، ويعتقلونهم، ثم يسلمونهم إلى الأشخاص الذين سيجُرون اختبار الاستعداد العملياتي».

شمل أحد التمارين أطقم الطائرات القاذفة التي تحمل أسلحة نووية. كان كل شيء بخصوص مهمتهم سرّياً. في حال سقطوا في

منطقة معادية، بإمكانك أن تتخيل مدى الفضول لدى آسريهم بشأن محتويات طائراتهم. كان الهدف من البرنامج سيري إعداد أطقم الطيران لما قد يحدث.

سيكون الأشخاص موضع التجربة في مكان بارد، جائعين، ومجُبرين على البقاء مستيقظين داخل صندوق لأيام. ثم يأتي التحقيق. يتابع ميتشيل: «سنرى إن كان ممكناً استخلاص تلك المعلومات منهم». يصف ميتشيل التحقيق بأنه «واقعي جداً». كانت إحدى التقنيات الفعّالة والتي طُورت في سيري هي «الضرب بالجدار». تلف منشفة حول رقبة أحدهم لتسند رأسه، ثم تصدمه بجدار مُعد خصّيصاً.

يشرح ميتشيل: «نقوم بذلك على جدار مزيف».

هناك مِدقّة خلفه تصدر قدراً كبيراً من الضجيج وهناك الكثير منها، وعندها ستبدأ الأذنان بالتدويم. أنت لا تقوم بذلك لتسبب الأذى للشخص. أعني أنها مثل بساط المصارعة، ولكنها تصدر ضجيجاً أعلى. يقتصر تأثيرها، على بث الإرباك، وقطع سلسلة الأفكار، والإخلال بالتوازن، هنا لا يُقصد بالتوازن ذلك الفيزيائي، بل ذلك الشعور بالاختلال بكل ما تعنيه الكلمة.

كان دور ميتشيل المساعدة في تصميم برنامج سيري، وهذا يعني أن يقوم بين الحين والآخر باختبار بروتوكول التمرين بنفسه. يقول إنه وفي أحد تدريبات سيري الذي تضمّن إحدى أقدم الحيل في مهنة الاستجواب: لا يقوم المحقق بتهديد الشخص موضع التجربة بل زميله. بحسب خبرة ميتشيل، يستجيب الرجال والنساء بشكل مختلف للغاية لهذا الأسلوب. يميل الرجال لأن يضعفوا، في حين أن النساء

لا يضعفن.

يكمل ميتشيل: «إذا كنت طياراً أنثى وقالوا إنهم سيفعلون شيئا للطيّار الآخر، فسيكون موقف الكثير منهن، 'من المؤسف أنه ستن... أنت'». «'قم بعملك وسأقوم بعملي. سأقوم بحفظ الأسرار. يؤسف أن يحدث هذا لك، ولكنك كنت تعرف هذا عندما تطوّعت'». رأى ميتشيل هذا للمرة الأولى عندما استخلص المعلومات من نساء احتُجزن بوصفهن أسرى حرب خلال عاصفة الصحراء.

إنهم يسحبون النساء إلى الخارج، ويهدّدون بضربهن في كل مرة لا يتحدّث فيها الرجال. وكانت النساء غاضبات من الرجال لأنهم لم يصمدوا، وكُن يقلن: «رُبّما أتعرض للضرب وللتحرش الجنسي، ولكن هذا سيحدث لمرة واحدة. إذا أظهرنا لهم أن سحبَنا إلى الخارج هو الطريقة للحصول على مفاتيح المملكة، فسيحدث هذا كل مرة لذا دعني أقوم بعملي، وقم بعملك».

في أحد تمارين سيري كان ميتشيل برفقة امرأة من كبار الضباط في سلاح الجو. أخبرها المحقّقون أنهم سيعذّبون ميتشيل طالما أنهما لم يتكلما. وكما هو متوقع، قالت: «لن أتكلم». يشرح ميتشيل: وضعوني في برميل بسعة خمسة وخمسين غالوناً كان مدفوناً في الأرض، ووضعوا الغطاء عليه وطمروه بالتراب. في أعلى البرميل وبشكل ناتئ من الغطاء، كان هناك أنبوب يصب ماءً بارداً ببطء... كانت فتحات التصريف في أعلى البرميل على مستوى أنفي، ولكنني لم أكن أعلم ذلك بسبب الطريقة التي وضعوني بها.

امتلأ البرميل ببطء بالماء.

ميتشيل: أنا واثق من أنهم لن يقتلوا الطبيب النفسي التالي الذي سيأتي إلى الكلية، كنت متأكداً من ذلك، ولكني لم أكن مُقتنعاً. هل تدري ماذا أعني؟

م غ: بمَ شعرت عندما حدث ذلك؟

ميتشيل: لم أكن سعيداً، لأن ركبتيك تكونان بمقابل صدرك ولا يمكنك النهوض. وذراعيك إلى جانبيك في الأسفل. لا يمكنك أن تتحرك. سيضعون رباطاً أسفلك ويجعلونك تجلس القرفصاء داخل ذلك الشيء.

م غ: متى أخرجوك؟

ميتشيل: بعد ساعة أو نحو ذلك.

م غ: وإلى أي مستوى وصل الماء؟

ميتشيل: لقد ارتفع حتى وصل إلى مستوى الأنف. عندما يصل إلى الأعلى تصاب بارتباك. أعني أن الماء يرتفع محيطاً برقبتك وأذنيك.

م غ: هل كنت في الظلام؟

ميتشيل: أجل، رُبّما لم تكن ساعة، رُبّما كانت أقل من ذلك. أنا واثق من هذا، وإلّا لكنت سأُصاب بالبرد. لقد بدت كأنها ساعة. أياً يكن الأمر كنت في البرميل، سيجعلونك تجلس القرفصاء، وكنت أفكر «سيضعوني في البرميل، لنرَ إن كان لديّ رهاب الأماكن المغلقة، وبما أنني لا أعاني من رهاب الأماكن المغلقة، حسناً فما من مشكلة». لقد وضعوا أنبوباً فيه ووضعوا الغطاء المعدني الصغير في أعلى الغطاء وغطوه بالحجارة.

م غ: هل كنت على علم بما سيفعلونه؟

ميتشيل: أعلموني في أثناء القيام بالتمرين.

م غ: هـل أخضعـوك لكل الاختبـارات التي كانوا يطبقونها .. المتدربين؟

ميتشيل: أجل.

بحسب كلام ميتشيل: «لقد أمضى العديد من الأشخاص بع.. الوقت في ذلك البرميل». في ذلك الوقت، كان هذا جزءاً من الد.. التدريبية الاعتيادية.

ميتشيل: لقد خضعت أيضاً للدورة التدريبية المتقدمة، إذا ك.. تظن أن الدورة التدريبية الاعتيادية صعبة.

3

من هنا نشـأ برنامج «الاسـتجواب المُعزّز» لوكالة الاستخبارا.. المركزية. طلبت وكالة الاسـتخبارات إلى ميتشـيل وجيسـين النص.. فقد عَمِلَ كلاهما لسنوات على تصميم وتنفيذ ما اعتقدا أنه أفضل تق.. اسـتجواب فعّالة يمكن تصوّرها، وأرادت الوكالة أن تعرف ما الذ.. ستفعله. لذا أعد ميتشـيل وجيسـين قائمة، وكان على رأسها الحرما.. مـن النـوم، والضـرب بالجـدار، والإيهـام بالغـرق. يتم تنفيـذ الإيهام بالغـرق مـن خـلال وضعـك على نقّالـة على نحو يكون فيه مسـتو.. رأسك أخفض من مستوى قدميك، توضع قطعة قماش على وجهك. ثم يُصبّ الماء في فمك وأنفك ليتولد لديك إحساس الغرق. ومثلما حدث، كان الإيهام بالغرق إحدى التقنيات القليلة التي لم يستخدمها

ميتشيل وجيسين في سيري. بحسب رؤية سلاح الجو، كان الإيهام بالغرق أفضل بكثير مما هو مطلوب. كانوا يحاولون أن يُعلّموا أُناسهم أن مقاومة التعذيب أمر ممكن، لذا فإنه لن يكون للأمر أي مغزى يُذكر بأن يتم تعريضهم لتقنية ستجعل من المقاومة أمراً مستحيلاً بالنسبة إلى كثير من الأشخاص[1]. ولكن هل كان من الممكن استخدامها على إرهابيين مشتبه بهم؟ كان الأمر منطقياً لدى كثير من أفراد وكالة الاستخبارات المركزية. جربها ميتشيل وجيسين على نفسيهما أولاً بعدَها خطوة احترازية، جرّب كل واحد منهما الإيهام بالغرق على الآخر، كانتا جلستين بالإجمال لكلٍ منهما، باستخدام البروتوكول الأكثر قسوة؛ الصب المستمر للماء لمدة أربعين ثانية.

يتابع «أردنا التأكد من أنه باستطاعة الأطباء وضع أسس إجراءات السلامة وأن الحرّاس كانوا على علم بما سيقومون به، أردنا معرفة ما الذي سيختبره الموقوفون».

م غ: صِف لنا كيف كان ذلك.

ميتشيل: هل سبق لك أن كنت أعلى بناء شاهق الارتفاع، وخطر

---

(1) كان هناك الكثير من الخبرة في إجراء الإيهام بالغرق لدى مدرسة برنامج سيري في القوات البحرية. أياً يكن الأمر كانت فلسفة التدريب مختلفة قليلاً. يشرح ميتشيل: «كانت رؤية القوات البحرية أن الناس يخوضون تلك التجربة متوقعين أن باستطاعتهم الصمود والزهوّ بأنفسهم عندما يتبيّن أنك لا تستطيع أن تقاوم، وتصبح مُحطّماً ولا يعود بإمكانك أن تتعافى، لذا كان جزءاً مما كانوا يحاولون القيام به في الكلية البحرية هو التوضيح للناس أنك ستستسلم فعلاً في مرحلة ما. ولكن مهمّتك بكونك جندياً أميركياً أن تقاوم إلى أقصى حدود قدرتك». أرادت البحرية أن تُظهر لمتدربيها مدى سوء الأشياء التي يمكن أن تحدث، أما القوى الجوية فرأت أنه من الأفضل لمتدربيها ألّا يعلموا ذلك.

في بالك القفز إلى الأسفل؟ أنت تعرف أنك لن تقفز إلى الأس
ولكن أن يخطر في بالك أنك قد تقفز؟ هذا ما أحسست به. لم أ
أنني سأموت، شعرت أنني أخشى أن أموت.

عندما أرسلت وزارة العدل اثنين من كبار المحامين إلى
الاستجواب للتأكد من قانونية التقنيات قيد الاعتبار، أخضع
ميتشيل وجيسين لتجربة الإيهام بالغرق أيضاً. يتذكر ميتشيل ا
محامية منهما، جلست بعد انتهاء التمرين وجفّفت شعرها، وقا
ببساطة: «حسناً، هذا مقيت».

أسّس ميتشيل وجيسين لبروتوكول. إذا كان الموقوف ممت
عن الإجابة، فسيبدأان بأكثر «الإجراءات المُعزّزة» اعتدالاً. وإ
أصر الموقوف على رأيه، فسيصعدّان. كان الضرب بالجدار الخيا
المفضّل، كذلك كان الأمر بالنسبة إلى الحرمان من النوم. لقد نص
قوانين وزارة العدل على أن الحد الأقصى للحرمان من النوم هو سبع
وعشرون ساعة، ولكن ميتشيل وجيسين اعتبرا أن ذلك غير ضروري
لقد فضّلا ترك الموقوف ينام، ولكن بشرط ألا يحصل على القسط
الوافي من النوم، من خلال إيقاف دورة نومه بشكلٍ منتظم.

كان الإيهام بالغرق هو التقنية التي تُستخدم على أنها الملاذ
الأخير. استخدما نقّالة مستشفى، أميلت بزاوية قدرها 45 درجة.
سمحت وزارة العدل لهما أن تكون فترة صب الماء من عشرين إلى
أربعين ثانية، ويتخلّلها زمن كافٍ لأخذ ثلاثة أنفاس، على ألا تستمر
العملية برمتها أكثر من عشرين دقيقة. فضّل ميتشيل وجينسن فترة
صب واحدة لأربعين ثانية، أو فترتي صب لمدة عشرين ثانية، تفصل

بينهما ما بين ثلاث إلى عشر ثوانٍ. يقول ميتشيل إن النقطة الرئيسة، هي أنك لا تريد أن يدخل الماء إلى رئتي الموقوف، إنما إلى جيوبه الأنفية. لم نكن نريد إغراق الشخص. نحن أساساً نستخدم الماء من زجاجة سعة ليتر واحد، ولكن أرادنا الأطباء أن نستخدم محلولاً مالحاً لأنه يُحتمل أن يبتلع بعض الأشخاص الماء ولم يرد الأطباء أن تتضرر رئاتهم.

قبل صب الماء للمرة الأولى، أخذوا قميصاً أسود ووضعوه على وجه الشخص موضع التجربة، مغطّين أنفه. يشرح ميتشيل: «كانت قطعة الملابس بهذا الشكل». وقلد الطريقة التي يوضع بها القميص.

ثم يرفعون قطعة الملابس إلى الأعلى، بعدها يضعونها على وجه الموقوف، ويكرّرون ذلك عدّة مرات.

عندما ترفع قطعة الملابس عن وجه الموقوف، يتوقف الشخص الذي يقوم بصب الماء فعلياً عن ذلك. وعندها يكون هناك شخص مع ساعة توقيت يحسب الثواني كي أعرف عدد الثواني التي تمضي. لا تجري هذه العملية من دون وجود طبيب.

كانت الغرفة مزدحمة. بالإجمال كان هناك المسؤول عن القاعدة العسكرية، والمحلل المسؤول عن القضية من الاستخبارات، وطبيب نفسي، وغيرهم، وكانت هناك مجموعة أخرى في الخارج، تشاهد الإجراءات من خلال شاشة تلفزيون كبيرة: المزيد من خبراء وكالة الاستخبارات المركزية، ومحامٍ، وحرّاس، إنها مجموعة كبيرة.

لم تُطرح أية أسئلة خلال العملية، بل ترُكت لوقت لاحق.

ميتشيل: لم أكن أصرخ على الرجل. بل أصب الماء، وأقول

له بنبرة غير عدائية وبالوقت نفسه غير عادية: «يجب ألا يكون الأ... بهذه الطريقة. نحن نريد معلومات لإيقاف عمليات داخل الولايا... المتحدة. نحن نعلم أنك لا تعرفها كلها ولكن لديك جزء منها. أقول له هذا فيما يستمر صب الماء: «يجب ألا يكون الأمر بها... الطريقة. هذا خيارك».

م غ: إجمالاً ومن خلال تقنيات الاستجواب المُعزّزة، كيف تعا... أنك وصلت إلى الحدّ الأقصى لهذا الأسلوب؟

ميتشيل: إنهم يبدؤون بالتحدّث إليك.

م غ: يتكلّمون عن التفاصيل المطلوبة؛ التفاصيل، والأسما... والحقائق.

ميتشيل: تعطيه صورة وتسأله: «من هذا الرجل؟». سيقو... «حسناً، إنه فلان، ولكن أتعلم، هذا الرجل في الخلف هو فلا... وهذه الصورة حيث كان في...» وكما تعرف، سيستفيض في الإجاب... عن السؤال.

ركّز ميتشيل وجيسين على التجاوب، كانا يريدان من الأشخاص الخاضعين للاستجواب أن يتحدثوا، ويعطوا المعلومات، ويجيبوا ع... الأسئلة. ومنذ بداية استجواب خ ش م، كانا مُقتنعَين بأنهما سيحتاجا... إلى كلّ تقنية في حوزتهما لكي يجعلاه يتكلّم. لم يكن خ ش م مقاتلا... هامشياً في تنظيم القاعدة، أو شخصاً متناقضاً وجدانياً بشأن مشارك... في الأعمال الإرهابية. من السهل التعامل مع المقاتلين العاديين، فلديهم القليل لكي يقولوه، والقليل كي يخسروه، عندما يقولون ما يعرفونه، سيتعاونون مع المُحقّقين لأنهم يدركون أنها أفضل فرصة

لديهم كي يفوزوا بحريتهم.

ولكن خ ش م كان يعلم أنه لن يرى ضوء الشمس مرة ثانية. لم يكن لديه أي حافز لكي يتعاون. كان ميتشيل يعرف جميع تقنيات الاستجواب النفسية التي يستخدمها الأشخاص الذين لم يقتنعوا بمفهوم الاستجواب المُعزّز، وقد فكّر في أنها ستعمل على نحوٍ جيد على ما يطلق عليه «الإرهابيين العاديين الذين تقبض عليهم في ميدان القتال، مثل الجهاديين العاديين الذين كانوا يحاربون الأميركيين». ولكن ليس على «الرجال أمثال خ ش م».

كان خ ش م مُتشدّداً. لم تنفع معه تقنية الإيهام بالغرق فجرّب معه ميتشيل وجيسين الضرب بالجدار والحرمان من النوم. بطريقة ما كان خ ش م قادراً على أن يفتح جيوبه الأنفية، فيخرج الماء الذي دخل من أنفه ببساطة من فمه. لم يفهم أحد كيف قام بذلك. يطلق ميتشيل على هذا الحيلة السحرية. بعد بضع جلسات، أدرك خ ش م الإيقاع الزمني لفترات صب الماء. كان يهزأ من جميع الموجودين بالغرفة من خلال قيامه بالعد التنازلي للثواني المتبقية على أصابعه، ثم يقوم بإيماءة لاذعة بيده عندما ينتهي الوقت. ذات مرة وفي خضّم جلسة استجواب، غادر ميتشيل وجيسين الغرفة ليتحدّثا إلى زميل، عندما عادا إلى الغرفة كان خ ش م يشخر. يقول ميتشيل وهو يضحك على ذلك: «كان نائماً، أعرف أنني أضحك على هذه الصورة المرعبة فعلاً التي لدى الأشخاص، ولكنّ هناك شيئاً من هذا....» ويهز رأسه باندهاش. يتابع ميتشيل «لم أسمع بهذا أبداً، أنا أحيطك علماً، عندما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تدقق في المعطيات، كانوا

يتّصلون بالوكالة المشتركة لنقاهة الجنود». الوكالة المشتركة لـ... الجنود هي وكالة تابعة للبنتاغون تراقب برامج سيري المتعددة ال... تديرها فروع الخدمات، وكان لديهم ملف بخصوص الإيهام بالغ... «قال لهم الشخص الذي تحدثوا إليه إن هذه التقنية فعّالة مئة بال... على المتدربين لدينا، لم يصمد أحد أمامها».

طيلة ثلاثة أسابيع، استخدم ميتشيل وجيسين كافة تقنياتهما ... خ ش م. أخيراً، توقف عن المقاومة. ولكن تجاوُبَ خ ش م ال... أُحرز بصعوبة لم يكن يعني أن قضيته أصبحت الآن قضية مفتو... ومغلقة. في الحقيقة، كانت الصعوبات قد بدأت للتو.

4

قبل سنوات من هجمات الحادي عشر من أيلول، كان هنا... طبيب نفسي يُدعى تشارلز مورغان في مؤتمر عسكري للعلو... العصبية، يُجري بحثاً عن متلازمة الاضطراب ما بعد الصدمة، محاو... أن يفهم لماذا يعاني بعض المحاربين القدامى من متلازمة الاضطرا... ما بعد الصدمة في حين أن آخرين مرّوا بالتجارب نفسها بالضبط... وخرجوا منها سالمين. كان مورغان يتحدث إلى زملائه عن مدى... صعوبة دراسة القضية، لأن ما كان يريد القيام به حقاً هو تحديد... مجموعة من الأشخاص قبل أن تحدث لهم تجربة صادمة والقيام بتتبّع ردّات فعلهم في الوقت الحقيقي. لكن كيف بإمكانه أن يقوم بذلك؟ لم تكن تدور رحى أي حرب في ذلك الوقت. يتذكّر مورغان أن أفضل فكرة استطاع أن يأتي بها هي أن يدرس الأزواج في مناسبة

ذكرى زواجهم.

ولكن فيما بعد، جاء عقيد في الجيش إلى مورغان وقال: «أظن أن في وسعي أن أحل مشكلتك». عَمِل العقيد في مدرسة سيري في فورت براغ، نورث كارولينا. لقد دعا مورغان لزيارته. كانت نسخة الجيش عن مدرسة سلاح الجو في سبوكين حيث عَمِل جيسين وميتشيل. يتابع مورغان «كان ضرباً من السريالية». بنى الجيش نسخة طبق الأصل عن معسكر لأسرى الحرب، ذلك الذي قد تجده في كوريا الشمالية أو في زاوية قصيّة ما في الاتحاد السوفياتي السابق. «جلت في أرجاء المجمع عندما لم يكن هناك أي نشاط، لذا كان صباحاً رمادياً وضبابياً بحق. لقد ذكرني بفيلم حربي ما لا بدّ أنك رأيته، الذي تدور أحداثه في معسكر الاعتقال هذا، ولكن لم يكن هناك أحد».

يكمل مورغان:

«دائماً ما تنتهي كل دورة تدريبية بلقاء مع أسير حرب سابق يجري حديثاً مع المتدربين ويقول: هذا ما حدث لي. أنتم أمضيتم ثلاث ساعات في هذا القفص الصغير، ولكنني عشت فيه طيلة سنوات أربع. هاكم كيف حاولوا أن يتحايلوا عليّ».

كان مورغان مبهوراً، ومُرتاباً، ومهتماً باضطراب الصدمة. كانت مدرسة سيري محاكاة واقعية لما يجري عندما تقع في الأسر، وتخضع للاستجواب من قبل العدو، ولكنها لا تزال محاكاة. في نهاية اليوم، سيكون كل المشاركين في نورث كارولينا، وبإمكانهم الذهاب وشرب البيرة ومشاهدة فيلم مع أصدقائهم عندما ينهون التدريب،

يطرح مورغان سؤالاً: «إنهم يعرفون أنهم في دورة تدريبية و
خضم تمرين. كيف يمكن لهذا أن ينجح؟» اكتفى المدرّبون في
بالابتسام عندما سمعوا هذا الكلام. «بعد ذلك دعوني، وأخبرو
بإمكاني أن أراقب التدريب لمدة ستة أشهر. لذا كل شهر، ي
أن آتي لأسبوعين، كنت مثل اختصاصي في علم الإنسان
ملاحظات».

بدأ بمرحلة الاستجواب في التمرين، أخذَ عينات الدم وال
من الجنود بعد أن يُستجوبوا، وهنا نجد كيف وصف مورغان ال
في مجلة علمية تُدعى الطب النفسي البيولوجي:

نتج عن الإجهاد الواقعي للتدريب تغيرات سريعة وشدي
الكورتيزول والتستوستيرون وهرمونات الغدة الدرقية. كانت
التغييرات كبيرة على نحو أمكن مقارنتها بالبيانات المُسجّلة
الأفراد الذين يكابدون عوامل بدنية مجهدة مثل جراحة خطر
قتال حقيقي.

كان هذا استجواباً مدبراً، وامتدت جلساته لنصف ساعة، و
هناك أفراد من القبعات الخضراء والقوات الخاصة من بين الأ
الذين خضعوا للتجربة، وهم من قوات النخبة، وكانوا يتصرفون
لو أنهم في قتال حقيقي. مصدوماً شاهد مورغان كيف كان ال
ينهارون واحداً تلو الآخر ويجهشون بالبكاء. يصف مورغان ذا
قائلاً: «لقد أدهشني ما رأيت، وصعّب عليّ الفهم».

حسناً، كنت أفكر أن هؤلاء جميعهم أُناسٌ أشداء، وسي
الأمر أشبه بلعبة. لم أتوقع أن أراهم مكتئبين بذلك القدر أو يبكو

ولم يكن هذا بسبب ضغط جسدي أو لأن أحداً يعاملهم بقسوة.

كان هـؤلاء جنـوداً، مُنظميـن، ومنضبطيـن، ومحفّزيـن أدرك مورغان أن التباسَ موقفهم هو ما أثار قلقهم.

عَمِـلَ كثيـر منهـم بمبـدأ «يجـب أن أعرف القواعد فـي الكتاب كـي أعـرف كيـف أتصـرف». بمرور الوقت أصبحت أعـرف أن كثيراً من الإجهاد كان مدفوعاً بشـكلٍ كبير من الإحسـاس الداخلي بالقلق الحقيقي، على غرار: «لا أعرف ما هو الجواب الصحيح».

ثُـمّ قـرر أن يجعـل المتدربين في سـيري يقومـون باختبار راي-أوستيريث لرسم الأشكال المعقدة. أنت تُعطى الشكل التالي

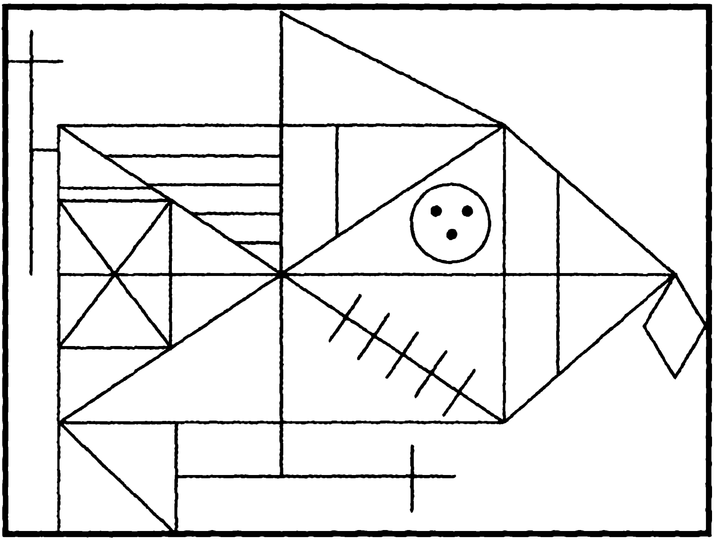

عليـك أولاً أن تنسـخه. بعد ذلـك تؤخذ الصورة الأصلية منك، ويجب عليك أن ترسـم الشـكل من الذاكرة. يسـتطيع معظم البالغين أن يؤدّوا هذه المهمة بشكلٍ جيد، إذ يستخدمون الإستراتيجية نفسها:

سـيبدؤون برسـم الخطوط الخارجية للشـكل، ثم يرسمون التفا...
الداخلية. من جهة أخرى، يستخدم الأطفال منهجية تدريجية: ير...
بشكل عشوائي أحد أجزاء الرسمة، ثُمّ ينتقلون إلى جزء آخر.

قبل إجراء الاستجواب، تمكّن المتدربون من اجتيا...
الاختبار بشكلٍ ممتاز. في نهاية المطاف، القدرة على تذكّر الأشـ...
المُعقّدة البصرية وإعادة رسمها هي مثال عن الأشياء التي يتم تد...
القبعات الخضراء وجنود العمليات الخاصة على القيام بها...
مثال نموذجي عن شكل راي-أوستيريث رسمه أحد الجنود ...
الاستجواب من الذاكرة. هؤلاء الرجال بارعون حقاً.

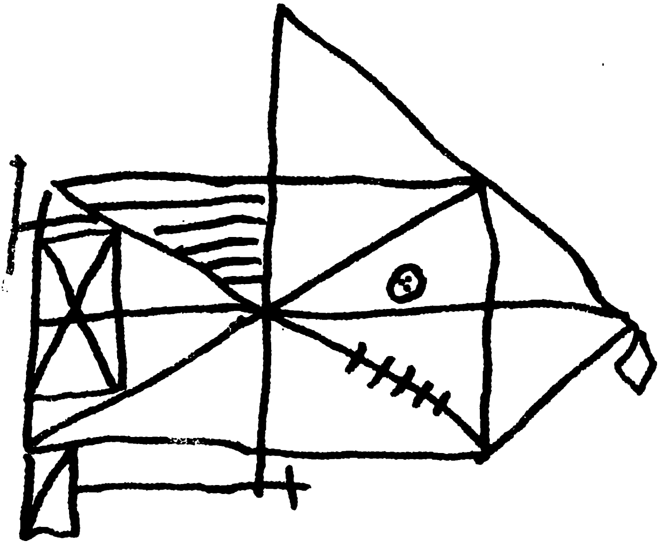

لكن لاحظ كيف رسم الجندي نفسه الرسم بعد الاستجوا...
بخمس عشرة دقيقة:

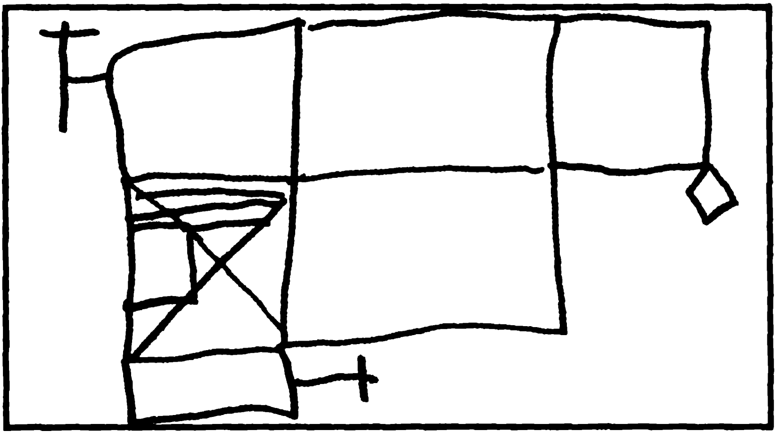

يقول مورغان إنه في إحدى التجارب وبعد استجواب شاق، رسم ثمانون بالمئة من العينات بطريقة تدريجية «على غرار طفلٍ قبل سن البلوغ، الأمر الذي يعني أن قشرة الفص الجبهي قد توقفت عن العمل لبعض الوقت».

بالنسبة إلى أي شخص سبق له أن عمل بالتحقيق، كان عمل مورغان مُقلقاً للغاية، كانت غاية الاستجواب هي حثّ الشخص الخاضع له كي يتكلم، ليفتح ذاكرته ويحصل على ما فيها من معلومات. ولكن إذا ثبت أن عملية الاستجواب مُرهقة للغاية للشخص الذي يُستجوب هل يمكن أن تؤثر بشكلٍ فعلي على ما يمكن أن يتذكره؟ فقد شاهد مورغان بأم العين البالغين وهم يتحوّلون إلى أطفال.

يتابع مورغان متذكراً حادثة جرت في الأيام الأولى لوجوده في برنامج سيري: «كنت في مكان تجميعِ فيه عيّنات اللعاب من جميع المتدربين».

ذهبت إلى الخارج، لأنهم فتحوا البوّابات الآن، كان أ... الوحدة هناك، وبادروا جميعاً بالتحية، مشيت إلى مجموعـ... المتدربين وقلت: «من الجيد أن أراكم بعد انتهاء تلك الاختبار... الصعبة».

وأتذكر أن بعضهم أجاب: «متى وصلت؟». فأجبت: «ماذا ت... بقولك متى وصلت؟ لقد جمعت عيّنات اللعاب منكم منذ عشـ... دقيقة. لقد جعلتكم تملؤون ذاك الشيء».

«لا أتذكر هذا».

وتابعت: «ورأيتكم بالأمس عندما كنتم تُستجوبون».

وكانت ردّ فعل الجميع متشابهاً: «لا، لا أذكر ذلك».

نظرت إلى أحد المُدرّبين وقلت: «هذا جنون».

فأجاب: «هذا يحدث طوال الوقت». ويتابع: «إنهم لا يتذكرو... حتّى، وأنا الذي كنت أصرخ عليهم منذ ثلاثين دقيقة».

كان مورغان مذهولاً، لدرجة أنه قرّر أن يُجري اختباراً ميد... سريعاً. أعدّ ما يكافئ صف المشتبه بهم لدى الشرطة، ووضع ... المدربين والضباط وبعض الأشخاص الغرباء العابرين.

شرح مورغان: «كان طبيب الوحدة قد عاد من إجازته، أخبـ... بأننا سنضعه في صف المشتبه بهم اليوم، وفعلنا ذلك».

بعد ذلك، أعطى مورغان تعليماته للجنود: «نحن مهتمون للغا... بمعرفة الشخص الذي كان يدير المعسكر وأمر بكل عقوباتكم. ر... أشيروا إليه إن كان هنا، وإذا لم يكن هنا فقط فقولوا ليس هنا». أراده... أن يحدّدوا القائد، الشخص المسؤول.

يتابع مورغان: «من بين اثنين وخمسين متدرباً، اختار عشرون منهم الطبيب، الذي كان يجيب، 'لكني لم أكن هنا، كنت في هاواي!'»[1].

لو أن جندياً واحداً أخطأ في هذا لكان الأمر مفهوماً. يرتكب الناس الأخطاء. وكذلك الأمر لو أخطأ اثنان في تحديد الهوية، أو حتى ثلاثة. ولكن أن يخطئ عشرون شخصاً في هذا. في أية محكمة، كان الطبيب سيئ الحظ سيرسَل إلى السجن.

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، عَمِل مورغان لصالح وكالة الاستخبارات المركزية. حيث حاول أن يقنع زملاءه بأهمية اكتشافاته. كان للوكالة جواسيس ومصادر سرّية حول العالم. امتلكوا معلومات حصلوا عليها من الأشخاص الذين قبضوا عليهم أو أجبروهم على التعاون. كانت المصادر أناساً يتحدثون غالباً بثقة كبيرة بالنفس، وبعضهم كانوا من المؤتمنين للغاية، وزوّد بعضهم بمعلومات تم اعتبارها موثوقة للغاية. لكن مورغان رأى أنه إذا حُصل على المعلومات التي شاركوها تحت الضغط - إذا كانوا في خضم كابوس ما في العراق أو أفغانستان أو سوريا - فقد لا يكون ما يقولونه دقيقاً وربما يكون مضللاً، ولم تكن المصادر على علم بذلك. سيقولون إنه الطبيب! أعلم أنه كان الطبيب، حتى لو كان الطبيب بعيداً آلاف

(1) في دراسة موسعة أخرى، وجد مورغان أن 77 جندياً من أصل 114 حدّدوا بشكل خاطئ المُحقّقين في صورة مشتبه بهم، وكان هذا بعد 24 ساعة من الاستجواب! عندما سُئل الجنود عن مدى ثقتهم في إجاباتهم، تبيّن عدم وجود صلة بين الثقة والدقّة.

الأميال. «قلت لمحلّلٍ آخر، أتعرف، إن هذا مخيف للغاية».

حسناً، ماذا فعل تشارلز مورغان عندما سمع بما نوى أن ... كلٍّ من ميتشيل وجيسين مع خ ش م في الموقع السّري النائي؟

أخبرت الناس قبل أن أعمل لصالح وكالة الاستخبا... المركزية، وأخبرت الناس عندما أصبحت أعمل هناك: «إن مح... الحصول على معلومات من شخص من خلال حرمانه من النوم ... أشبه بمحاولتك الحصول على إشارة أفضل من راديو تقوم بتحط... بمطرقة ثقيلة، لم يكن ذلك منطقياً أبداً بالنسبة إليّ».

5

أدلى خ ش م باعترافه العلني الأول في عصر العاشر من مار... 2007، بعد أربع سنوات بالضبط من إلقاء وكالة الاستخبار... المركزية القبض عليه في إسلام آباد، باكستان. في جلسة است... للمحكمة المنعقدة في قاعدة القوات البحرية الأميركية في خا... غوانتانامو، كوبا. كان هناك ثمانية أشخاص حاضرين ب إضافة إ... المتهم خ ش م: «وكيل شخصي مُعيّن للسجين، وعالم لغوي... وضباط من الفروع الأربعة للخدمة العسكرية الأميركية».

سُئل خ ش م عمّا إذا كان قد فهم طبيعة الإجراءات، فأجا... أنه فهمها. ثم تُليت التهم الموجّهة إليه بصوتٍ مرتفع. طلب ببعض... التصحيحات من خلال وكيله: «لقد كُتب اسمي بطريقة غير صحيحة... في نهاية محضر إفادتي. يجب أن يكون «شيخ» وليس «شايخ»، ... في خانة الموضوع». طلب ترجمة آية من القرآن. ونوقشت بعض...

المسائل الإدارية. ثم قرأ الوكيل الشخصي للمتهم خ ش م اعترافه:

بموجب هذا أُقرّ وأعترف من دون إكراه على ما يلي:

لقد بايعت الشيخ أسامة بن لادن، وعزمت على الجهاد.

كنت قائد عمليات الشيخ أسامة بن لادن لتنظيم عملية الحادي عشر من أيلول وتخطيطها ومتابعتها وتنفيذها.

كنت المسؤول بشكلٍ مباشر بعد استشهاد الشيخ أبي حفص المصري صبحي عن إدارة خلية إنتاج الأسلحة البيولوجية ومتابعتها مثل الجمرة الخبيثة وغيرها، ومتابعة عمليات القنبلة القذرة على الأرض الأميركية.

ثم عدّد كل عمليات القاعدة التي كان مشاركاً فيها، التي بحسب وصفه، إمّا «مشاركاً مسؤولاً، وإما مُخطِطاً رئيساً، وإما مُدرّباً، وإما مُموّلاً من خلال خزينة المجلس العسكري، وإما منفّذاً، وإما مشاركاً شخصياً». هناك اثنان وثلاثون بنداً في القائمة: برج سيرز في شيكاغو، مطار هيثرو، بيغ بين في لندن، العديد من السفارات الأميركية والإسرائيلية، محاولات اغتيال بيل كلينتون والبابا يوحنا الثاني وهلمّ جراً، وجميعها مذكورة بتفصيل مخيف. هنا على سبيل المثال، البنود من 25 حتى 27:

25. كنت مسؤولاً عن الإشراف لضرب مفاعلات الطاقة النووية التي تولد الطاقة الكهربائية في العديد من الولايات الأميركية.

26. كنت مسؤولاً عن التخطيط والمراقبة والتمويل لضرب مقرات حلف شمال الأطلسي في أوروبا.

27. كنت مسؤولاً عن التخطيط والمراقبة اللازمة لتنفيذ عملية

بوجينكا، التي كانت مُعدّة لإسقاط اثنتي عشرة طائرة أ...
بُركابها. لقد راقبت شخصياً رحلات الذهاب والإياب، ال...
لبان آم. بين مانيلا وسيوول.

انتهى محضر إفادته. خاطب القاضي خ ش م: «قبل أن تتا...
خالد شيخ محمد، هل ما ورد في محضر الإفادة الذي قرأه و... ال
الشخصي صحيح؟». أجاب خ ش م «نعم». ثم شرع في شرح ...
ومليء بالحماسة لأعماله. كان ببساطة مجاهداً، كما قال، لقد ان...
في الجهاد شأنه شأن أي مجاهد آخر:

بدأت الحرب منذ بدء الخليقة عندما قتل قابيل أخاه ها...
لن يتوقف قتل الناس أبداً. بدأ الأميركيون الثورة الأميركية، ثم ...
الحرب المكسيكية، وبعدها شاركوا في الإسبانية، وبعدها انض...
إلى الحربين العالميتين، أنتم تقرؤون أنتم تعرفون الحرب التي ...
تتوقف أبداً. هكذا هي الحياة.

كان اعتراف خ ش م الاستثنائي بمثابة نصر لميتشيل وجيسي...
فها هو ذا الرجل الغاضب المتحدي الذي جُلب في العام 3()()...
يكشف بإرادته عن ماضيه.

ولكن تعاون خ ش م يترك سؤالاً حسّاساً من دون إجابة: ه...
ما أفاد به صحيح؟ عندما يتم إخضاع المرء لذلك النمط من الإرها...
والضغط، فإنه يكون في مجال تشارلز مورغان. هل اعترف خ ش م
بكل هذه الجرائم فقط ليجعل ميتشيل وجيسين يتوقفان؟ عند التفك...
في بعض الأمور، فقد حرم ميتشيل وجيسين خ ش م من النوم لأسبو...
الأمر الذي سبب له التشويش. بعد كل هذا القدر من إساءة المعاملة...

هل سيعلم خ ش م ما هي ذكرياته الحقيقية بعد الآن؟ في كتابه (لماذا لا ينفع التعذيب)، يذكر عالم الأعصاب شين أومارا أن الحرمان من النوم لوقتٍ طويل «قد يُحفز بعض أشكال الإذعان الظاهري، ولكن على حساب إعادة التشكيل الهيكلية على الأمد البعيد للأنظمة الذهنية التي تدعم العديد من الوظائف التي يأمل المُحقّق أن يصل إليها».

قرأ روبرت بير وهو ضابط سابق عالي الرتبة في الاستخبارات المركزية الاعتراف، واستنتج أن خ ش م «كان يختلق الأخبار». كان أحد الأهداف التي أدرجها خ ش م هو مبنى بنك بلازا في وسط مدينة سياتل. الذي لم يُستخدم مقراً للشركة إلا بعد مضي سنوات على اعتقال خ ش م. ناقش بروس ريديل وهو أحد قدامى المُحنكين في الاستخبارات المركزية أن الشيء الرئيسي الذي يجعل من الصعب أن يتعاون خ ش م في المقام الأول هو حقيقة أنه لن يخرج من السجن أبداً.

وهذا ما يجعل ادعاءاته مشكوكاً بأمرها: «لم يبقَ له شيءٌ في الحياة إلا أن تبقى ذكراه بوصفه أحد أشهر الإرهابيين»، يتابع ريديل «إنه يريد أن يعزّز أهميته الشخصية. لقد كانت مشكلة منذ أن اعتقل فإذا كان سيمضي بقية أيامه في زنزانة سجن، فلماذا لا يقوم بمسرحية لكتب التاريخ؟ استمر اعتراف خ ش م مطوّلاً:

9. كنت مسؤولاً عن التخطيط، والتدريب، والإشراف، والتمويل لعملية تفخيخ قناة بنما وتدميرها.

10. كنت مسؤولاً عن الإشراف والتمويل لاغتيال العديد من الرؤساء الأميركيين السابقين، بمن فيهم الرئيس كارتر.

هل بقي هناك أي شيء لم ينسب فيه خ ش م الفضل لنف...
لـم يتسـاءل أي مـن هؤلاء النقاد عن الحاجة إلى استجوا... ش م. حقيقة أنه من الصعب فهم الغرباء ليست مُبرّراً كي لا نحا... لا يمكـن السـماح للنصابيـن الذيـن يعملـون بنظام البيـع الهرمي... لمغتصبـي الأطفـال أن يتجوّلـوا بحرّيـة. كان مـن مسـؤولية الش... الإيطالية أن تتفهم أماندا نوكس، وهذا ما حملَ نيفيل تشامبرلين ... بـذل قصـارى جهـده ليقابل هتلر؟ لأنه عندما يكون هناك خطر ... عالمية يلوح في الأفق، يصبح من الضروري التوصّل إلى اتفاق ... مع العدو.

لكـن كُلمـا عملنـا بشـكلٍ حثيث لكي ندفـع الغربـاء ليوضـ... أنفسـهم، أصبحـوا مراوغيـن أكثر. كان مـن الأفضل لتشـامبرلين ... يقابـل هتلـر علـى الإطلاق، بـل أن يبقى في منزلـه وأن يقرأ كفا... لقد بحثت الشـرطة في كل مكان عن الضحايا في قضية ساندوس... لمـدة عاميـن. مـاذا كانت حصيلـة جهودهم؟ ليـس الوضوح، ول... الغمـوض: تغيـرت الروايـات: المزاعم التي ظهرت لفترة ثم اختف... الضحايا الذين كانوا يجلبون أطفالهم ليقابلوا ساندوسكي في دقيق... ثم اتّهامه بجرائم مروّعة في الدقيقة التالية.

كان جيمـس ميتشـيل فـي الموقـف نفسـه. امتلكـت وكال... الاسـتخبارات المركزيـة السـبب للاعتقـاد أن القاعـدة كانـت تخطط... للقيام بجولة ثانية من الهجمات بعد الحادي عشـر من أيلول، جو... قـد تُستخدم فيهـا أسـلحة نووية، وجبَ عليـه أن يحثّ خ ش م علـ... التحدّث، ولكن كلما كان سعيه حثيثاً في دفع خ ش م ليتكلم، أمعـ...

في انتهاك نوعية التواصل. صحيح أنه استطاع حرمان خ ش م من النوم لمدة أسبوع، إلا أنه في النهاية اعترف خ ش م بكل جريمة تم ارتكابها تحت الشمس. ولكن لماذا أراد خ ش م حقاً أن يفجّر قناة بنما؟

مهما يكن مقدار محاولتنا لنعرف بشأن الغرباء فإنها لن تكون معرفة سليمة. ليست «الحقيقة» بخصوص أماندا نوكس أو جيري ساندوسكي أو خ ش م شيئاً صلباً ولامعاً يمكن الحصول عليه فقط إذا نقّبنا وبحثنا عنه بالقدر اللازم. إن الشيء الذي نريد أن نتعلّمه هو أن الغريب هش جداً. إذا خطونا بشكلٍ متهور، فسوف يتحطم تحت أقدامنا. وهذا يستتبع ملاحظة تحذيرية ثانية: نحن بحاجة إلى تقبّل أن السعي لفهم الغريب له حدود حقيقية. لن نعرف الحقيقة الكاملة أبداً، يجب أن نرضى بشيء أقل من هذا، إن الطريقة الصحيحة للتحدث مع الغرباء يجب أن تكون مقرونة بالحذر والتواضع. كم من الأزمات والنزاعات التي وصفتها كان تجنبها ممكناً لو أخذنا هذه الدروس بالاعتبار؟

نحن الآن على وشك العودة إلى أحداث ذاك اليوم في بريري فيو، تكساس، عندما أوقف بريان إينسينيا سيارة ساندرا بلاند. ولكن قبل ذلك، لدينا شيء أخير يجب أن ننظر إليه، ظاهرة الاقتران التي يتم إغفالها بشكلٍ غريب.

القسم الخامس

الاقتران

الفصل العاشر

سيلفيا بلاث

1

في خريف عام 1962، غادرت الشاعرة الأميركية سيلفيا بلاث منزلها في الريف الإنكليزي متوجّهة إلى لندن. لقد سعت وراء بداية جديدة. فقد هجرها زوجها تيد هيوز ليعيش مع امرأة أخرى، تاركاً إياها وحيدةً مع ولدين صغيرين. عثرت على شقة في حي بريمروز هيل اللندني. أخبرت والدتها «أكتب إليك من لندن، أنا سعيدة لدرجة لا يمكنني وصفها، وخمني أيضاً، إنني أقيم في منزل ويليم باتلر ييتس. هناك لوحة زرقاء فوق الباب كُتب عليها أنه عاش هنا».

في بريمروز هيل كتبت قصائدها في ساعات الصباح الأولى عندما يكون ولداها نائمَين، وكانت إنتاجيتها استثنائية. أنهت مجموعتها الشعرية في يناير، وأخبرها ناشرها أنها قد تفوز بجائزة بوليتزر.

كانت في طريقها لتصبح إحدى أشهر الشعراء الشباب في العالم، وهذا اللقب سيرافقها خلال السنوات اللاحقة.

لكن في آخر شهر يناير، حلّ شتاء مهلك في إنكلترا. كان أحد أكثر فصول الشتاء قسوة منذ ثلاثمئة عام، بدأ الثلج بالتساقط

ولم يتوقف أبداً، تزلّج الناس على نهر التايمز وتجمّدت الميا...
المواسير، وحصل انقطاع في التيار الكهربائي وإضرابات للع...
عانت بلاث من الاكتئاب طيلة حياتها، وها هي ذي السوداوية ت...
إليها مجدداً. أتى صديقها ألفريد ألفاريز وهو ناقدٌ أدبي لر...
في ليلة الكرسمس «بدت مختلفة». بحسب ما كتب في مذ...
البربري:

«كان شعرها الذي اعتادت أن تصفّفه بشكل كعكة مدر...
رصينة ومشدودة مسترسلاً ومتدلياً حتى خصرها مثل الخيمة، الأ...
الذي أضفى على وجهها الشاحب وقوامها الهزيل مسحةً من الك...
والشرود، على غرار راهبة استنفدت طاقتها في طقوس الفرو...
الدينية. عندما مرّت من أمامي سائرة نحو القاعة، انبعثت من شعر...
رائحة قوية، كانت واخزة كما لو أنها منبعثة من حيوان.

شقّتها باردة وفارغة، وبالكاد وضعت بعض زينة الكرسمس ...
أجل ولديها. الكرسمس هو وقت سيئ للحزاني: ذاك الفرح المزي...
المقيت الذي يأتيك من كل حدبٍ وصوب، والتفاخر بشأن النوا...
الطيبة والسلام والمرح مع العائلة، هذا ما يجعل من الوحدة والكا...
على وجه التحديد حملاً ثقيلاً».

شرب كل منهما كأس نبيذ، وجرياً على عادتهما، قرأت على مسمعه آخر ما كتبته من شعر. كانت سوداوية.

حلّت السنة الجديدة، وازداد الطقس سوءاً. كانت بلاث على خصام مع زوجها، وطردت جليسة ولديها، أخذت ولديها وانتقلت للإقامة في منزل جيليان وجيري بيكر اللذين كانا يعيشان بالقرب

منهـا. وصفـت حالتهـا بقولهـا: «أشـعر بحالة مزريـة». أخذت بعض مضادات الاكتئاب، وغطّت في النوم، ثم استيقظت باكية. كان ذلك يـوم الخميـس، يـوم الجمعة، كتبت لزوجها تيد هيوز ما سمّاه لاحقاً «رسـالة وداعية». أصرّت يوم الأحد على أن يوصلها جيري بيكر مع ولدَيها إلى شـقّتها. غادر جيري شـقتها عند الغسـق بعد أن وضعت ولديها في الفراش. بعد بضع ساعات من ذلك، تركت بعض الطعام والماء لهما، وفتحت نافذة غرفة نومهما، كتبت اسـم طبيبها مع رقم هاتفـه، وألصقـت الورقـة علـى عربـة الأولاد في الـرواق، ثم أخذت بعـض المناشـف وفـوط تجفيـف الصحـون، وأحكمـت إغلاق باب المطبخ بحيث سدّت جميع الفراغات. بعد ذلك فتحت صمّام الغاز في موقد مطبخها، ووضعت رأسها داخل الفرن لتنتحر.

2

يمـوت الشـعراء وهـم فـي ريعـان الشـباب. هذه ليسـت مجرّد عبـارة مبتذلـة. هنـاك فـارق يجـب أخـذه بعيـن الاعتبار بين متوسـط العمر المتوقع لفئة الشعراء وكتّاب المسرحيات والروائيين والكُتّاب غيـر الروائييـن. إن لديهم معدّلات أعلى من «الاضطرابات العاطفية» مقارنـة بالممثّلين والموسـيقيّين والملحّنين والروائيين، ومقارنة بكل فئة مهنية، فإن لدى الشعراء معدّلات انتحار أعلى بكثير، أعلى بخمس مرات من باقي الشـعب. يبدو أن هناك شـيئاً في كتابة الشعر وهو إما يجـذب الأشـخاص المكلومـيـن وإمـا يفتح لهم جراحـاً جديدة. وقد جسّدت قلّة صورة العبقرية المحكوم عليها بالفشل بصورة مثالية على

غرار سيلفيا بلاث[1].

لقد استحوذت فكرة الانتحار على بلاث. لقد كتبت عنه وفك
فيه. يشرح ألفاريز «تحدّثت عن الانتحار بطريقة تشبه كثيراً الطر
التي تتحدّث بها عن إجراء أية تجربة خطرة: بإلحاح، بل بضر
حتى، لقد اعتبرت الموت بمثابة تحدٍّ جسدي تغلّبت عليه مرّةً أخر
كانت تجربة مشابهة للتزلج على منحدر خطر من دون امتلاك المع
اللازمة للقيام بذلك».

لقد استوفت كل معيار لخطر الانتحار المرتفع. فقد سبق ا
وأن حاولت الانتحار، وهي مريضة نفسية سابقة، وكانت تعيش
ثقافة مختلفة، منفصلةً عن عائلتها وأصدقائها. لقد أتت من عا
مُفكّكة. كما أنها تعرّضت للرفض من قبل الرجل الذي كانت مغر
به إلى أقصى الحدود[2].

---

(1) ذات مرة كتب ستيفن سبيندر الذي كان بدوره أحد الشعراء البارعين «يجب عا
الشاعر أن يكيّف نفسه، بشكلٍ أكثر أو أقل وعياً، لمقتضيات رسالته، إذن إنها خوا
الشعراء وحالة الإيحاء التي وصفها كثير من الناس بأنها أقرب إلى الجنون».

(2) كتب إرنيست شولمان «عندما انتحرت بعمر الثلاثين، كانت سيلفيا قد طابقت ع
فئات مما تزيد لديها أرجحية الانتحار، بالرغم من أن الذين حاولوا الانتحار سا
يشكلون ما نسبته 5 بالمئة من عدد السكان، فإن ثلث حالات الانتحار الناجحة
لأشخاص حاولوا الانتحار سابقاً، وهذا يشمل سيلفيا. يُشكّل المرضى النفسيو
السابقون نسبة كبيرة من حالات الانتحار، وهذا أيضاً يشمل سيلفيا. إن معدا
الانتحار لدى النساء المُطلّقات أعلى بمرات عدة من النساء المتزوجات: وكان
سيلفيا تتطلّق من زوجها. لدى الأجانب في كل مكان معدّلات انتحار مرتفعة
عاشت سيلفيا في إنكلترا بعيدة عن الأماكن التي ألفتها والأشخاص الذين عرفتهم
تزداد حالات الانتحار لدى الأشخاص المنعزلين الذين يعانون من توتر بالغ، وكان
هذا صحيحاً أيضاً بالنسبة إلى سيلفيا. ينتج عن العائلات المفكّكة عددٌ متفاوت م

تركت بلاث معطفها ومفاتيحها في منزل آل بيكر. في كتابها عن بلاث كل من عرف بلاث ولو بشكلٍ عرضي كتب كتاباً واحداً على الأقل عنها، تُفسّر جيليان ذلك على أنه إشارة لقرار بلاث النهائي:

هـل افترضـت أن جيـري سيأتي في إثرها خـلال الليل ليعطيها المعطف والمفاتيح؟ لا أظن ذلك، لم تكن تتوقع أن يتم إنقاذها في اللحظة الأخيرة من الموت الذي سعت إليه بنفسها أو تريد ذلك.

أشار تقرير الطبيب الشرعي إلى أن بلاث أقحمت رأسها داخل الفرن بأقصى ما تستطيع، كما لو أنها مُصمّمة على أن تنجح هذه المرة. يتابع بيكر:

لقـد سـدّت الشـقوق أسـفل الأبـواب إلـى بيـت الـدرج وغرفة الجلوس، وفتحت صمّامات الغاز بشكلٍ كامل، وطوت فوطة مطبخ بعناية ووضعتها على أرضية الفرن ووضعت خدّها عليها.

هل يمكن أن يكون هناك أي شك بنواياها؟ فقط ألق نظرة على ما كتبته قبل أيام من إقدامها على الانتحار.

المرأة مُتقنة الكمال.
جسدها الميت
يكتسي بابتسامة الإتمام...
تبدو قدماها العاريتان وكأنهما تقولان
لقد قطعنا شوطاً طويلاً، إنها النهاية.

حالات الانتحار، أتت سيلفيا من عائلة مُفكّكة». يتابع شولمان «لم تستطع الارتباط مجدداً برجلٍ تستطيع من خلال عظمته الظاهرية أن تغذّي أحلامها بالمجد».
يتابع شولمان، «كانت نرجسية سيلفيا في النهاية بفعل حدادها المنقوص».

عندما نلقي نظرة على شعر سيلفيا وتاريخها ونلتقط لمحا من حياتها الروحية، سنظن أننا نفهمها. ولكن هناك شيء ننساه، و ثالث الأخطاء التي نرتكبها مع الغرباء.

3

في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، شرع العد من الإنكليز باستخدام غاز الفحم في منازلهم وذلك لتشغ ا المواقد وسخّانات المياه. صُنع الغاز من الفحم ومن مزيج من المكونات المختلفة: الهيدروجين، والميثان، وثاني أوكسيد الكربو والنيتروجين، والأكثر أهمية، أحادي أكسيد الكربون عديم الرائ والمميت. لقد أتاحت الحقيقة الأخيرة عملياً وسيلة بسيطة لكل شخص لكي يُقدم على الانتحار داخل منزله. «لقد عُثر على العدي من المنتحرين وقد غطوا رؤوسهم بالمعاطف أو البطانيات، وهنا أنبوب من صمام الغاز يمر من أسفل حافة وسيلة التغطية»، هذا ما كتبه أحد الأطباء في عام 1927 في أحد التقارير الأولى عن الخواص المميتة لغاز الفحم:

في العديد من الحالات عُثر على الأشخاص جالسين في كرسي مع أنبوب غاز موضوع في الفم أو بالقرب منه، وقد أمسكت به يد، أو عُثر عليهم مستلقين على الأرض ورؤوسهم داخل موقد الغاز.

في إحدى الحالات، عُثر على امرأة مع قناع كانت قد صنعته من غطاء إبريق الشاي مشدود إلى وجهها، تم إدخال أنبوب الغاز من خلال ثقب في أعلى الغطاء.

في العام 1962، وهي السنة التي أقدمت فيها سيلفيا على الانتحار، انتحر 5588 شخصاً في إنكلترا وويلز، من بينهم 2469 ما نسبته 44.2 بالمئة انتحروا بنفس طريقة سيلفيا. كان أحادي أوكسيد الكربون في حينها السبب الأول في إيذاء النفس المميت في المملكة المتحدة. لم تتمكن أية وسيلة أخرى- لا الجرعات الزائدة أو العقاقير أو القفز من جسر- من تحقيق نسبة قريبة من هذه الطريقة.

ولكن في الفترة نفسها من ستينيات القرن الماضي. خضعت صناعة الغاز الإنكليزية لتحوّل كبير. أصبح غاز الفحم مكلفاً على نحو متزايد إضافة إلى تسبّبه بالتلوث، واكتُشفت احتياطيات كبيرة من الغاز الطبيعي في بحر الشمال، واتُّخذ القرار لكي تتحوّل البلاد من غاز الفحم إلى الغاز الطبيعي، كان حجم المشروع هائلاً. امتلك الغاز الطبيعي خصائص كيميائية مختلفة بوضوح عن غاز الفحم: تطلّب ضعفَ الكمية من الأوكسجين كي يحترق بشكل نظيف، وتحرّك اللهب ببطء أكبر، وكان الضغط اللازم للغاز أكبر. لقد عنت هذه الحقائق مجتمعة أن حجم منافذ الغاز والمشاعل وشكلها في المواقد في كل منزل إنكليزي جعلاها غير صالحة للاستعمال. وجب تعديل جميع المعدات التي تعمل على الغاز في إنكلترا أو استبدالها: العدّادات، والطبّاخات، وسخّانات المياه، والبرّادات، والسخّانات المحمولة، والغلّايات، والغسّالات، والمشابك الحديدية للوقود الصلب وهلم جرّاً، ووجب بناء معامل تكرير جديدة وإنشاء شبكات جديدة لنقل الغاز. أطلق أحد المسؤولين في ذلك الوقت على هذا المشروع، من دون مبالغة: «أكبر عملية تغيير سلمية في تاريخ البلاد».

بدأت العملية الطويلة في عام 1965 من خلال مشروع تجر على جزيرة صغيرة تبعد 30 كم عن لندن، التي تضمّنت 7850 ز للغاز. كانت يوركشاير وستانفوردشاير هي المرحلة التالية، وتلتهم بيرمنغهام، وشيئاً فشيئاً، تم تحويل كل شقة ومنزل ومعمل ومكتب البلاد، واحداً إثر آخر. بحلول خريف ا عام 1977، أُنجزت العمل واستُبدل غاز الفحم الذي احتوى على الهيدروجين والميثان وثا أوكسيد الكربون والنتروجين وأحادي أوكسيد الكربون، بالغا الطبيعي المتضمن الميثان والإيثان والبروبان وكميات قليلة م النتروجين وثاني أوكسيد الكربون وكبريتيد الهيدروجين، مع عدم وجود أي أثر لأحادي أوكسيد الكربون. بعد عام 1977، إذا وضعت رأسك داخل فرن وفتحت صمام الغاز، فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو صداع خفيف في الرأس وتشنج في الرقبة.

عند إلقاء نظرة على عدد حالات الانتحار بالغاز فيما كان يتم الاستغناء عن غاز الفحم بالتدريج خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي نلاحظ ما يلي

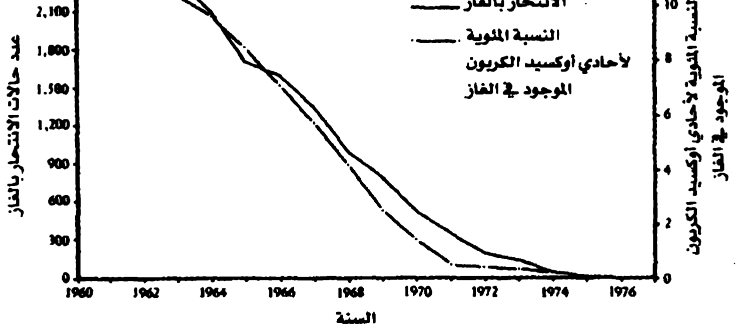

حسناً، السؤال هو: حالما أصبحت الطريقة الأولى للانتحار في إنكلترا شيئاً مستحيلاً من الناحية الفيزيولوجية، هل انتقل الأشخاص الذين أرادوا الانتحار إلى طرق أخرى؟ أم هل غضوا النظر عن فكرة الانتحار بالأساس بعد أن أصبح الانتحار بالغاز غير ممكن؟

يُدعى الافتراض الذي يقول إن الأشخاص سيجرّبون طرقاً أُخرى للانتحار بالانزياح. يفترض الانزياح أنه من الصعب جداً إيقاف الأشخاص المقدمين على القيام بشيء في غاية الجدية مثل الانتحار. لن يُشكل تعطيل أحد الخيارات فارقاً يُذكر. كان لسيلفيا بلاث على سبيل المثال تاريخ طويل بعدم الاستقرار العاطفي، وقد عولجت بالصدمات الكهربائية بسبب الاكتئاب عندما كانت في الكُلية، وتعود محاولتها الأولى للانتحار إلى عام 1953، بعدها أمضت ستة أشهر في العناية الطبّية النفسية في مستشفى ماكلين خارج بوسطن. بعد بضع سنوات، قادت سيارتها عن سابق تصوّر وتصميم لتغرق في النهر، ثم بعد ذلك وبطريقة نمطية كتبت قصيدة عن ذلك:

وعلى غرار القطة لديّ تسع مرّات كي أموت.

هذه رقم ثلاثة.

لقد سدّت بإتقان كل ثغرة في الباب، وفتحت صمّامات الغاز إلى الحد الأقصى، ودفعت برأسها بأقصى ما تستطيع داخل الفرن، كانت مُصمّمة للغاية، لو لم يكن بإمكانها أن تستخدم الفرن لتقتل نفسها، أفلن تقوم بتجربة شيء آخر؟

إن الأرجحية البديلة هي أن الانتحار هو سلوك مُقترن بسياق

مُحدّد. الاقتران هو فكرة أن السلوكيات مرتبطة بحالات وظر
مُحدّدة. عندما كنت طفلاً قرأ أبي لي ولإ خوتي رواية تشارلز دي
(قصّة مدينتين)، وفي نهاية الرواية، عندما ماتت سيدني كارتون
منزل تشارلز دارني، ذرف أبي الدموع. لم يكن أبي من النمط النوا
أو من الأشخاص الذين يذرفون الدموع في كل لحظة عاطفية ذا
مغزى، فهو لم يذرف الدّموع عند مشاهدة الأفلام الحزينة أو عند
غادر أولاده المنزل إلى الجامعة.

رُبّما دمعت عيناه خلسة بين الحين والآخر، ولكن أحداً لم ينت
إلى ذلك باستثناء أمي. لكي يبكي، احتاج أن يكون أولاده جالس
على الأريكة وهم يصغون إليه وهو يقرأ لأحد أكثر الرّوائيين رها
في تاريخ الأدب. أزل أحد هذين العنصرين ولن يرى أحدٌ دمو
أبداً، ذلك هو الاقتران. إذا كان الانتحار سلوكاً مُقترناً، فهو ليس
ببساطة سلوك الأشخاص المكتئبين، إنه سلوك الأشخاص المكتئبين
عندما يمرّون في أشد لحظاتهم ضعفاً وتتاح بين أيديهم وسيلة مميتة
بسهولة.

حسناً، أي واحد منهما الانتحار؟ الانزياح أم الاقتران؟ إن
تحديث الغاز الإنكليزي هو طريقة مثالية تقريباً لفحص هذه المسألة.
إذا كان الانتحار يتّبع طريق الانزياح، وإذا كان الأشخاص ذوو
الميول الانتحارية مُصمّمين على نحو إذا منعت فيه إحدى الطرق
فإنهم سيجرّبون طريقة أُخرى ببساطة، هذا يعني أنه يجب أن تبقى
مُعدّلات الانتحار ثابتة مع مرور الزمن، فلا تتذبذب إلّا في الأحداث

الاجتماعيـة الكبـرى. على سـبيل المثال تنخفض معـدّلات الانتحار فـي زمـن الحـرب، وترتفع في أوقات الأزمات الاقتصادية. من ناحية أُخـرى إذا كان الانتحـار مقترنـاً، عندئذٍ يجب أن يتغير بحسـب توافر الطـرق المحـدّدة للإقـدام علـى الانتحار. عندما تدخل طريقة سـهلة وجديـدة المشـهد مثل غـاز الفحم يجب أن تزداد حـالات الانتحار، وتتناقـص عندمـا تـزول هذه الطريقة. يجب أن يبـدو المنحني البياني لحالات الانتحار مثل الأفعوانية. ألقِ نظرة.

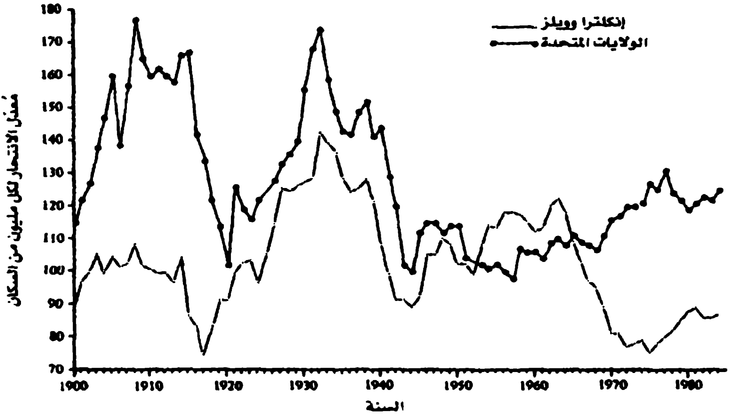

إنه بحق أفعوانية.

ينحـو المنحنـي البيانـي لمعـدل الانتحار نحو الأعلـى عند بدء اسـتخدام غاز الفحم في المنازل الإنكليزية، ثمّ ينحدر إلى الأسـفل عند بدء اسـتخدام الغاز الطبيعي في أواخر سـتينيات القرن الماضي. في غضون عشـرة أعوام حين ف كان يتم الاسـتغناء عن غاز الفحم تدريجيّاً وببطء، تم تجنب آلاف الوفيات.

كتب الباحث في علم الجريمة رونالد كلارك في بحثه ال... عام 1988 مُستعرضاً أول حجّة مُثبتة لصالح نظرية الاقتران. ي... كلارك: «كانت لغاز الفحم ميزات فريدة باعتباره طريقة ... كان متاحاً على نطاق واسع في قرابة ثمانين بالمئة من الم... الإنكليزية، وتطلّب قدراً ضئيلاً من التحضير أو المعرفة التخصّ... الأمر الذي جعل منه خياراً سهلاً للأشخاص الأقل تنقّلاً أو لل... يمرّون بضغط شديد مُفاجئ. لم يكن مؤلماً أو يتسبّب بأي تش... ولم يتسبّب بإحداث فوضى وهو الأمر الذي تحاول أن تتجنبه الن... بالتحديد، تطلّبت حالات الانتحار بفعل الشنق أو الاختناق أو الغ... تخطيطاً أكثر، في حين أنه تلزم شجاعة أكبر مع الطرق الأكثر ... مثل إطلاق الرصاص أو قطع الأوردة أو الطعن أو تحطيم سيا... بفعل التصادم، إضافة إلى القفز من أماكن مرتفعة أو أمام القطار... أو الباصات».

هناك أمرٌ واقعي على نحوٍ مكروه في ذلك المقال، أليس كذلك؟ لـم يُعبّـر كلارك فـي أي مكان من بحثه عن التعاطف مع الأشخا... ذوي الميول الانتحارية، ولم يركّز على الأسباب الجوهرية لألمهم... بل حلل السلوك بالطريقة نفسها التي يدرس بها المهندس مشكلا... ميكانيكية. «لـم تكـن الفكـرة بمجملهـا مُستحبَّة علـى الإطلاق بين... الأطباء النفسيين والأخصّائيين الاجتماعيين».

لقد ظنوا أنها سطحية للغاية، كان أولئك الأشخاص منزعجين... ومرتبكين للغاية إذ إنهم اعتبروا أنه من المهين أن تعالج هذا الأمر... ببساطة من خلال زيادة صعوبة الإقدام على الانتحار. لقد تلقيت

الكثير من الاعتراضات من هنا وهناك من الأخصّائيين حول هذه الفكرة.[1]

ببساطة ليست هذه الطريقة التي نتحدث بها عن الانتحار. نحن نتصرّف كما لو أن الطريقة غير ذات صلة بالموضوع. عندما استُخدم الغاز للمرة الأولى في البيوت الإنكليزية في عشرينيات القرن الماضي، شُكلت لجنتان حكوميّتان لدراسة تداعيات التقنية الجديدة. لم تذكر أيٌّ منهما إمكانية أنها قد تسفر عن ازدياد حالات الانتحار. عندما صدر التقرير الرسمي للحكومة الإنكليزية عن برنامج تحديث صناعة الغاز في عام 1970، أقرّ أن أحد الآثار الجانبية الإيجابية للتحوّل إلى الغاز الطبيعي سيكون انخفاض عدد الحوادث المميتة. لم يُشر حتى إلى الانتحار، على الرغم من أن عدد الأشخاص الذين قتلوا أنفسهم عمداً بالغاز فاق كثيراً عدد الأشخاص الذي ماتوا بفعل

(1) لم أقم حتى بذكر أكبر مثال عن أن قصورنا عن فهم الانتحار يتسبّب في خسارة الأرواح: هناك 40 ألف أميركي على وجه التقريب يُقدمون على الانتحار كل عام، نصفهم من خلال إطلاق النار على أنفسهم. إن المسدسات هي طريقة الانتحار المُختارة في الولايات المتحدة، المشكلة في ذلك بالطبع هي أن المسدسات مميتة بشكلٍ استثنائي. المسدسات هي بمثابة غاز الفحم للولايات المتحدة. ماذا سيحدث لو قام الأميركيون بما فعله البريطانيون، واستأصلوا بطريقة ما المسبب الأول لحالات الانتحار لديهم؟ لن يكون أمراً صعباً أن نتخيل ذلك. سيتم الفصل ما بين الشخص ذي الميول الانتحارية وطريقته المختارة للقيام بذلك. أمّا هؤلاء المصمّمون للغاية على المحاولة مرة أخرى فسيكونون مجبرين على اختيار خيارات مميتة بقدر أقل بكثير، مثل أخذ جرعات زائدة من الحبوب،والتي من المرجح أنها تسبب الموت بقدر أقل بخمس وخمسين مرة من استخدام المسدس. إن حظر المسدسات سينقذ حياة 10 آلاف شخص في العام على أقل تقدير، فقط من محاولات الانتحار الفاشلة. هذا عددٌ كبير من الأشخاص

حادث غير مقصود. في عام 1981، تم نشر أكثر عمل أكاديـ
عن الموضوع، (تاريخ صناعة الغاز البريطانية). تناولت هذه الـ
وبتفصيل استثنائي كلَّ جانب من ظهور التسخين بالغاز و الـ
الغازية في الحياة الإنكليزية وتزايد استعمالها. هل ذكر
الدراسة الانتحار ولو بشكلٍ عارض؟ لا لم تذكره.

لنأخذ بالاعتبار القصّة غير القابلة للتفسير لجسر البوابة الـ
في سان فرانسيسكو. لقد شهد هذا المكان منذ أن افتُتح في عام
ما يزيد على 1500 حالة انتحار. لم يشهد أي مكان في العالم
تلك الفترة هذا العدد من الأشخاص الذين يلقون حتفهم عمداً.[1]

ما الذي تخبرنا به نظرية الاقتران بشأن جسر البوّابة الذهـ
إذا تم وضع حاجز لمنع الأشخاص من القفز فإن ذلك سيشكّل
كبيراً، أو إذا تم تركيب شبكة لالتقاطهم قبل أن يسقطوا عن الجـ
إن الأشخاص الذين حيل دون انتحارهم على هذا الجسر لم يذهـ
ليقفزوا من مكان آخر. إن قرارهم بالإقدام على الانتحار مقترن بذلك
الجسر بالتحديد.

---

(1) تحدث حالات الانتحار على جسر البوابة الذهبية بانتظام مرعب لدرجة أن المخر
السينمائي إريك ستيل وضع في عام 2004 كاميرات فيديو عند طرفي الجسر
وانتهى به المطاف ليوثّق انتحار 22 شخصاً على مدار ذلك العام. في دراسة الحالة
المميزة للموت الذي كان موضوع الفيلم الوثائقي اللاحق لستيل بعنوان (الجسر)،
تتابع كاميرته رجلاً في الثالثة والأربعين من عمره يُدعى جين سبراغ فيما كان يمشي
جيئةً وذهاباً لمدة تسع وثلاثين دقيقة عبر الجسر قبل أن يقفز ويلقى حتفه. إذا وقفت
على الجسر لوقت طويل بشكلٍ كافٍ، يمكنك أن تتوقع أن ترى أحدهم وهو يحاول
القفز من الجسر.

ما من شك في أن الأمر يبدو كما هو بالضبط، وذلك وفقا للعمل الذكي للغاية الذي أجراه عالم النفس ريتشارد سيدين. تابع سيدين 515 شخصاً ممن حاولوا القفز عن الجسر ما بين عامي 1937 و1971، ولكنهم ارتدعوا على نحو غير متوقّع، فقط 25 شخصاً من 515 شخصاً أصرّوا على الانتحار بطريقة أخرى. إذن وعلى نحوٍ حاسم، فإن الأشخاص الذين يريدون القفز من جسر البوّابة الذهبية يريدون القفز فقط في تلك اللحظة.

حسناً، أخيراً في عام 2018 وبعد أكثر من ثمانين عاماً على افتتاح الجسر قررت الهيئة البلدية التي تدير الجسر تركيب حاجز لمنع الإقدام على الانتحار، وبحسب ما يشير جون باتيسون في كتابه (القفزة الأخيرة)، في هذه الفترة الزمنية أنفقت الهيئة التي تدير الجسر ملايين الدولارات لبناء حاجز مروري لحماية سائقي الدراجات الهوائية الذين يعبرون الجسر، بالرغم من أنه لم يسبق أن قُتِل سائق دراجة هوائية بسبب حادث مع سيارة على جسر البوّابة الذهبية. وقد أنفقت أيضاً ملايين الدولارات لبناء مُنصّف للفصل ما بين خطوط السير المتجاورة الشمالية والجنوبية وذلك لأسباب تتعلّق «بالسلامة العامة». في الطرف الجنوبي من الجسر، وضعت الهيئة سياجاً شبكياً بارتفاع ثمانية أقدام لمنع رمي القمامة على حصن بيكر، وهو منشأة عسكرية سابقة على الأرض أسفل الجسر. حتى إنها ركبتْ شبكة سلامة في أثناء أعمال البناء الأولية للجسر - بكلفة هائلة - لحماية العمال من السقوط والموت. لقد أنقذت الشبكة تسعة عشر شخصاً،

ثـم أزيلـت. لكـن مـن أجل حـالات الانتحار لم يتم اتخـاذ أيّة تـا...
طيلة ثمانين عاماً.

ما سبب ذلك؟ هل لأن الأشخاص القائمين على إدارة الـ...
قُساة وعديمو الإحساس؟ على الإطلاق. يرجع السبب إلى أنه...
الصعب حقّاً أن نتقبل فكرة أن السلوك يمكن أن يكون مقترنا بـ...
الشكل القريب بمكان. عبر السنين، طلبت الهيئة القائمة على إدا...
الجسر بانتظام إلى الناس أن يفكروا مليّاً فيما إذا كانوا يدعـ...
فكرة بناء حاجز لمنع الإقدام على الانتحار. توزعت الردود بـ...
فئتين: كانت الردود المؤيّدة في الغالب من أشخاص فقدوا أناسـ...
أعزّاء عليهم ممن أقدموا على الانتحار، إذ إن لديهم بعض الفهـ...
لسيكولوجيا الأشخاص الميّالين للانتحار.

أما الغالبية فقد رفضت ببساطة الفكرة على الفور. هذه عيـ...
صغيرة من الردود:

«إذا أُقيم حاجز مادي على الجسر، فلن يفاجئني إن مشى أحـ...
الأشخاص من ذوي الميول الانتحارية بعد ثلاثة أشهر إلى البرج
الشمالي وهو يحمل مُسدساً ليطلق النار على رأسه بسبب الإحباط
الذي أصابه من عدم قدرته على القفز. حسناً ماذا بشأن الملايين التي
تم إنفاقها لإقامة الحاجز لمنع الانتحار؟».

«سيجد الأشخاص المصمّمون على الانتحار العديد من الطرق
ليتخلّصوا من أنفسهم، سواء أكانت الحبوب أم الشنق أم الغرق أم
قطع الشرايين أم القفز من أي جسرٍ آخر. ألن يكون من الأفضل لو

تم إنفاق المال على رعاية الصحة النفسية للعديد من الأشخاص بدلاً من القلق بشأن القلّة الذين يقفزون من الجسور؟».

«أنا أعارض بناء حاجز لمنع الانتحار لأنه سيكون تبذيراً للمال، ولن يأتي بأية فائدة. إن أي شخص تم منعه من القفز من جسر البوّابة الذهبية سيجد طريقة أُخرى مميتة أكثر ليقتل/لتقتل نفسه/نفسها. من المرجّح أكثر أنه إذا قفز أحدهم من بناءٍ مرتفع أن يقتل شخصاً يمشي في الشارع من أن يرمي بنفسه من الجسر إلى الماء».

«كل ما سيفضي إليه هذا الأمر هو تبديد المال وتشويه الجسر. كثيرة هي الطرق التي يمكن من خلالها الانتحار، إذا حجبت أحد الخيارات عن أحدٍ ما فإنه سيستبدلها بطريقة أُخرى».

في أحد الاستبيانات الوطنية، توقّع ثلاثة أرباع الأميركيين أنه عندما يتم الانتهاء من بناء الحاجز على جسر البوّابة الذهبية فإن معظم الذين يريدون أن يلقوا حتفهم عن الجسر سيجدون ببساطة طريقة أخرى ليقتلوا أنفسهم.[1] ولكن هذا الأمر خاطئ كُليّاً، إن الانتحار مُقترن.

تتمثل المجموعة الأولى من الأخطاء التي نرتكبها مع الغرباء - الإخلال بالحقيقة ووهم الشفافية - بقصورنا في فهم الغريب بكونه فرداً. ولكننا إضافة إلى هذه الأخطاء فإننا نرتكب خطأً إضافياً، مِمّا يحوّل مشكلتنا مع الغرباء إلى أزمة. نحن لا نفهم أهمية السياق الذي يعمل فيه الغريب.

---

(1) توقّع في الحقيقة ثلاث وأربعون في المئة أن كل أحد يفشل في الانتحار من الجسر سيجرّب طريقة أُخرى.

4

تشـمل الضاحيـة الثانيـة والسـبعون في بروكليـن الحي الـ...
بمدفن غرين وود، من أوتوستراد بروسبيكت في الشـمال إلى...
ريدج فـي الجنـوب. فـي القطّاع الضيق ما بين الحـد الغربي للـ...
والواجهة البحرية، هناك سلسلة من الأحياء التي تنحدر نزولا بـا...
البحـر، ويتفـرّع الطريـق السـريع المتفاوت الارتفاع في الوسـط...
الوقت الراهن يعتبر هذا الحي من الأحياء الحديثة والمُحسّنة. و...
لم يكن على هذه الحال منذ ثلاثين سنة، عندما أمضى ديفيد ويسبا...
عاماً كاملاً وهو يجول في هذه الشوارع.

يتذكـر ويسـبارد: «كان عالماً مختلفـاً، ومكاناً مُخيفاً، إذا دخـ...
بنـاءً سـكنياً، فسـتجد ثلّاجات فـي البهو، وقمامة فـي الرّدهات. و...
تكدسـت النفايات في الأفنية الخلفية للأبنية السـكنية بارتفاع خمـ...
أقدام، وكان هناك أناس في الشوارع قد يصيبونك بالرعب».

ويسـبارد باحث في علم الجريمة، كانت أطروحته في جامعة يـ...
عن السلوك العنيف للمستوطنين في الضّفة الغربية من فلسطين. وُلد فـ...
بروكلين وبعد أن غادر جامعة ييل عملَ في مشروع بحثي في حيّه القديم.
كان مقـر الدراسـة التـي أجراها في أحد منـازل ضواحي الجـاد...
الرابعة، وهو منزل عصري، بدا كأنه مُصمّم ليصدّ جيشاً غازياً. انضـ...
إليه تسعة رجال شرطة كُلف كل واحدٍ منهم بالتجول في قطاع مؤلف...
مما يتراوح بين عشرة إلى ثلاثين مبنى. يتابع ويسبارد: «اقتضى عملهم
التجول في تلك المناطق، والتواصل مع الناس، إضافة إلى التأسيس
لطرق للقيام بشيء ما بخصوص المشاكل هناك». كانت مهمة ويسبارد

مراقبة الملاحظات وتدوينها، وهو مسؤول عن كتابة ما تمّ التوصّل إليه. رافقهم لأربعة أيام في الأسبوع على مدار عام. «كنت أرتدي دائماً بذلة وربطة عنق، وأحمل بطاقة تعريف من الشرطة. ظنّني الناس في الشارع محققاً، وكنت أنفي ذلك».

كان يدرس علم الجريمة نظرياً في المكتبة، أمّا الآن فنقل دراسته إلى الميدان، فهو يمشي جنباً إلى جنب مع عناصر الشرطة. منذ البداية، لاحظ شيئاً غريباً، لطالما ساد الاعتقاد بأن الجرائم مرتبطة بأحياء محددة. فالجريمة كانت مقترنة بالمشاكل من قبيل الفقر، والمخدرات، والتشتت العائلي: لقد أسهمت الظروف العامة للحرمان الاقتصادي والاجتماعي في وجود تجمّعات سُكانية تسود فيها الفوضى والخروج عن القانون.

كان الأمر على هذا النحو في حي سنترال ساوث في لوس أنجلوس، والضواحي الخارجية في باريس، وأماكن مثل بريكستون في لندن. لقد كان ويسبارد في النسخة النيويوركية من تلك الأحياء، لكنه لم يرَ الحي كما توقعه على الإطلاق، وفي هذا يقول شارحاً: «بعد أن تعرفت إلى المنطقة أدركت سريعاً، أننا أمضينا معظم وقتنا في شارع واحد أو شارعين، لقد كان الحي السيئ في المدينة، ولكن لم تكن هناك جرائم في سائر شوارع الحي».

بعد فترة، تبين له أن لا جدوى من قيامه بالدورية في كل الشوارع الداخلة في نطاق منطقته، لأن شيئاً لم يكن يحدث فيها، لقد صعُب عليه إيجاد تفسير للأمر، فالمجرمون هم أشخاص يعملون خارج العوائق الاجتماعية وهم مدفوعون بحوافزهم الشريرة الخاصة: الأمراض

النفسية، والجشع، واليأس، والغضب. لقد عُلِّمَ ويسبارد أن أفضل طريق لفهم السبب الكامن في أفعال المجرمين هي فهم شخصياتهم. يتابع ويسبارد: «أسميته نموذج دراكولا، هناك أشخاص مثل دراكولا وعليهم أن يرتكبوا الجرائم، إنه النموذج الذي يقول إن أولئك الأشخاص متحمّسون للغاية لاقتراف الجرائم، ولا يهمُّ أي شيء آخر».

لكن إذا كان المجرمون على غرار دراكولا، مدفوعين برغبة شرهة لإحداث الأذى المُتعمّد، فيجب أن يتجوّلوا في الضاحية الثانية والسبعين. لقد كانت جميع الظروف الاجتماعية التي تسهم في وجود الدراكولات موجودة في كل مكان، ولكن الدراكولات لم توجد في جميع الأرجاء، إنما في شوارع محددة، إن ما قصده ويسبارد «بشوارع» هو مُجمّع سكني أي قطاع من شارع. فقد تكثر الجرائم في أحد القطاعات في حين يعيش القطاع المجاور له بسلام ولا تجد فيه أثراً لأية جريمة. كان الأمر بهذه البساطة، ألم تكن للمجرمين أرجل؟ ألم يكونوا يستخدمون السيارات أو بطاقات المترو؟

يكمل ويسبارد: «في ذلك الوقت، بدأت أعيد النظر بما أعرفه عن الجريمة، لقد تركّزت دراستي مثل العديدين على الأشخاص، لكن ربما علينا أن نكون أكثر اهتماماً بالأماكن».

5

عندما أنهى مُهمّته في بروكلين، قرّر أن يُشكّل فريقاً مع لاري شيرمان؛ وهو باحث آخر في علم الجرائم، الذي كان يشاركه وجهة النظر. يتذكّر شيرمان: «كُنت مُتأثّراً في ذلك الوقت بخريطة انتشار

الإيدز في البلاد، التي أظهرت أن خمسين إحصاءً كانت ترصد خمسين ألفاً لديهم أكثر من نصف حالات الإيدز في الولايات المتحدة». لم يبدُ له الإيدز مرضاً معدياً ينتقل بشكلٍ عشوائي، لقد بدا أن له نمطاً محدداً مرتبطاً بأشخاص محددين وأماكن محددة، إنه وباء له منطقه الداخلي الخاص.

لم يكن من اليسير جمع البيانات الضرورية لدراسة المكوّن الجغرافي للجريمة. لقد أُبلغ دائماً أن الجرائم تحدث في الضاحية؛ أي المنطقة الجغرافية العامة حيث وقعت. ولكن ويسبارد تجوّل في الضاحية الثانية والسبعين وهو يعلم أن منطقة غير مُحدّدة لن تفيدهم في شيء، كانوا بحاجة إلى عناوين. لحسن الحظ كان شيرمان يعرف قائد الشرطة في مينابوليس، الذي أبدى استعداداً للمساعدة. يتابع ويسبارد ضاحكاً «اخترنا مينابوليس لأنه لم يكن من السهل إيجاد شخص مجنون بما فيه الكفاية ليسمح لنا أن نفعل ما فعلناه».

تعامل شيرمان مع الأرقام، وتوصّل إلى شيءٍ يصعب تصديقه: لقد سجّلت ما نسبته 3.3 بالمئة من قطاعات الشوارع في المدينة ما يزيد على خمسين بالمئة من حالات استدعاء الشرطة. وضع ويسبارد وطلّاب الدراسات العليا لديه في جامعة روتجرز خريطةً لمدينة مينابوليس على الحائط، وألصقوا قصاصات صغيرة من الورق على كل موضع حدثت فيه جريمة. من المستحيل الآن إنكار النتيجة التي لا تُصدّق. لقد توقع ويسبارد منذ أن تجوّل في الضاحية الثانية والسبعين أن يكون هناك بعض التمركز للجريمة، ولكن ليس على هذا النحو. «لقد بدت علينا المفاجأة عندما تكلمت ولاري عن ذلك».

في بوسطن، وفي الوقت نفسه تقريباً، أجرى عالمُ جرائم ا دراسةً مشابهة: تحدث نصف جرائم المدينة في 3.6 بالمئة من التجمّـ ا السكنية فيها. ها نحن أمام مثالين. قرّر ويسبارد البحث في أي مكان يا له: نيويورك، سياتل، سينسيناتي. بحث شيرمان في كينساس، ودالا، وفي أي وقت سأل أحد عنهما قيل له إنهما يقومان بعمليات التعق لقد وجدا النتيجة نفسها في كل مكان بحثا فيه: لقد تمركزت الجري في كل المدن في عدد صغير من قطاعات الشوارع.

قرّر ويسبارد أن يجرّب في مدينة أجنبية، في مكان ما مختلف تماماً من النواحي الثقافية والجغرافية والاقتصادية. وبما أنه إسرائيا لذا فكّر في تل أبيب، وتوصّل إلى النتيجة نفسها. قلت ‹يا إلهي انظروا إلى هذا! لماذا يجب أن تسفر 5 بالمئة من الشوارع في تل أبي عن وقوع خمسين بالمئة من الجرائم؟ إن الأمر نفسه يتكرر في أماكن مختلفة›. يُشير ويسبارد إلى هذا بقانون تمركز الجرائم.[1] على غرا

---

(1) ألقِ نظرة على الخريطة التي رسمها ويسبارد لمدينة سياتل في الصفحة 369. تش النقاط إلى المناطق الساخنة من الناحية الإجرامية في سياتل. إذا تحدّثت م شخص من سياتل فسيقول لك هناك بعض الأحياء السيئة في المدينة. ولكن تخبرا الخريطة أن هذا الكلامَ خاطئ. ليس هناك من أحياء سيئة في سياتل، إنما بضع مُجمّعات سكنية تنطوي على مشاكل مُعقّدة وهي موزعة في كافّة أنحاء المدينة. ما الذي يُميز هذه المُجمّعات السكنية ذات المشاكل المعقّدة عن بقية المدينة؟ هناك مجموعة من العوامل المختلطة مع بعضها بغير انتظام تعمل مُجتمعةً. تميل النقاط لأن تتمركز في الطرق الرئيسة وأن تكون في مناطق خالية من العمران وفيها مواقف للحافلات، وسكانها أيضاً لا يشاركون في التصويت، فضلاً عن أنها توجد بالقرب من المرافق العامة مثل المدارس. إن قائمة المتحولات تطول وتطول، بعضها مفهوم بشكل جيد والعديد منها ليس كذلك. إن معظم هذه المتحولات مُستقرة للغاية، ولهذا فإن هذه التجمعات السكنية لا تتغير كثيراً مع مرور الوقت.

الانتحار، ترتبط الجريمة بأماكن محددة وسياقات مُحدّدة للغاية. لم تكن تجارب ويسبارد في الضاحية الثانية والسبعين وفي مينابوليس تمييزية. لقد استحوذت على شيء قريب من حقيقة جوهرية لدى السلوك البشري، وهذا يعني أنه عندما تقابل غريباً عليك أن تسأل نفسك أين تقابله ومتى، لأن هذين العاملين يؤثّران للغاية على تأويلك لماهية هذا الغريب.

6

في السّيرة الذاتية المقنعة لسيلفيا بلاث التي تحمل عنوان (الناقوس الزجاجي)، تصف الشخصيةُ الرئيسة في مذكراتها إيستر غرين وود انحدارها إلى الجنون. إنها تُفكّر في الانتحار على نحوٍ مماثل لما أشار إليه رونالد كلارك الذي ربط بين غاز الفحم والانتحار. كانت حسّاسة على نحوٍ لا يُصدّق تجاه السؤال عن الطريقة التي ستُقْدم بها على الانتحار. سألت إيستر كال وهو شاب يافع تستلقي بجانبه على الشاطئ «ما هي الوسيلة التي تفضلها إن فكرت يوماً في الانتحار؟». بدا كال مسروراً: «غالباً ما أفكر في ذلك، سأفجّر دماغي بطلقة مسدس». كنت خائبة الأمل، إنه مجرّد رجل سيُقْدم على الأمر باستخدام مسدس. كانت لديّ فرصة كبيرة في الحصول على مسدس، ولكن إن حصلت عليه، فليست لديّ أدنى فكرة أين يجب عليّ أن أطلق النار.

في ذلك الصباح، حاولت إيستر أن تشنق نفسها برباطٍ حريري من ثوب حمّام والدتها، ولم تفلح في ذلك. «في كل مرة أشد فيها الرباط، وأشعر بالدم يتسارع في أُذنيّ ويفور في وجهي، أشعر بوهن

في يديّ فأضعف وأنهار، ثم أشعر مجدداً بأنني على خير ما يرا
سبحتْ مع كال باتجاه الشاطئ، وقرّرتْ أن تحاول إغراق نفسها
غاصت إلى قاع البحر.

«حاولتُ الغوص مراراً وتكراراً، وفي كل محاو
كنت أطفو إلى الأعلى مثل الفلّينة. لقد سخرت الصخ
الرمادية مني، كنت أتمايل على سطح الماء بسهولة كـ
لو كنت عوّامة إنقاذ. عرفت أنني قد هُزمت، لذا عا
أدراجي.»

لم تسعَ بطلة رواية بلاث إلى الانتحار، بل سعت وراء طر
لتنتحر بها، وهذا لن يؤدي إلى الانتحار فشتّان ما بين أداة الانتحا
والانتحار بحدّ ذاته، هذه هي فكرة الاقتران: السلوكيات مُحدّد
كانت بحاجة إلى طريقة ملائمة، وفي تلك الليلة الباردة من شه
فبراير، حدث أن الطريقة التي ناسبتها كانت موجودة في مطبخها.

لو كنت تعرف فقط كيف كانت الأقنعة تقتل أيامي.
إنها بالنسبة إليّ شفّافة، هواء نقي.

هذه «هدية كرسمس» مكتوبة في سبتمبر من عام 1962، في
مُستهل الأشهر البائسة الأخيرة لبلاث في لندن:

لكن يا إلهي، إن الغيوم كندف القطن.
هناك حشودٌ منها. إنها أحادي أوكسيد الكربون.
بعذوبة، بعذوبة، أتنشّقها
وأملأ عروقي بتلك الأشياء اللا منظورة....

ألقِ نظرة على المخطط البياني التالي الذي يُظهر معدلات الانتحار بين عامي 1958 و1982 للنساء البريطانيات اللواتي تراوحت أعمارهن ما بين الخامسة والعشرين والرابعة والأربعين. كانت بلاث في الثلاثين من عمرها عندما ماتت.

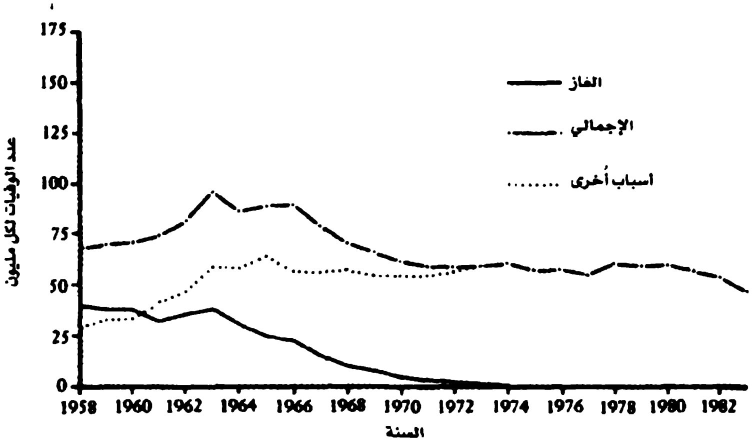

في أوائل ستينيات القرن الماضي عندما أقدمت بلاث على الانتحار، وصل معدل الانتحار للنساء ممن هنّ في سنها في إنكلترا إلى رقم صاعق بلغ عشرة في كل مئة ألف، لقد رُفع رقم الانتحار هذا بواسطة غاز الفحم، وقتها كان هذا أعلى معدل لانتحار النساء في إنكلترا. بحلول عام 1977 عندما أُنجزت عملية التحوّل إلى الغاز الطبيعي، بالكاد وصل معدل انتحار النساء في تلك الشريحة العمرية إلى نصف الرقم السابق. حقاً، لم تكن بلاث محظوظة، لو أنها رافقتنا لعشرة أعوام لاحقة، لما كانت هناك غيوم من «أحادي أوكسيد الكربون» كي «تتنشّقها بعذوبة».

7

في خريف عام 1958، قبل عامين من زفافها، انتقلت سيا
بلاث مع زوجها تيد هيوز إلى بوسطن. كانت على بُعد سنوات من
كتابة الشعر الذي سيجعلها مشهورة. عَمِلت بلاث موظَفة استقبا
في وحدة طب نفسي في مُستشفى ماساشوستس العام. في المسا
التحقت بدورة دراسية عن التأليف والكتابة في جامعة بوسطن. هنا
التقت بشاعرة شابة أُخرى تُدعى آن سيكستون. تكبر سيكستون بلا
بأربع سنوات؛ ساحرة وفاتنة وجميلة على نحوٍ مدهش. فازت لا
بجائزة بوليتزر للشعر عن كتابها (عِش الحياة أو فارقها) الأمر الذ
جعل منها إحدى أعظم الشعراء الأميركيين المعاصرين. أصبح
بلاث وسيكستون صديقتين. كانتا تبقيان بعد انتهاء الدرس، ثم
تخرجان لتناول المشروبات مع شاعرٍ شاب آخر هو جورج ستاربك

«كُنا نتكدّس في المقعد الأمامي لسيارتي الفورد القديمة، وأقو
بسرعة إلى فندق الريتز». هذا ما كتبته سيكستون وهي تسترجع
ذكرياتها في مقال نشرته بعد موت بلاث:

عادة كنت أركن سيارتي في موقف بشكلٍ غير قانوني في
منطقة مُخصّصة للتحميل والتفريغ، وأقول للعاملين هناك بمرح: «لا
أظن أن هناك خطباً في ذلك، نحن فقط في طريقنا لكي نثقل أنفسنا
بالشراب!» وتمسك كل واحدة منا بإحدى ذراعيّ جورج لندخل إلى
الريتز ونشرب بضع كؤوس من المارتيني.

كانت سيكستون وبلاث يافعتين وموهوبتين بشكلٍ خارق،

وتستحوذ عليهما فكرة الموت:

كثيراً ما تحدثتُ وسيلفيا بشكلٍ مطوّل وبالتفصيل عن محاولاتنا الأولى للانتحار ونحن نتناول رقائق البطاطا المجانية. إن الانتحار في آخر الأمر نقيض الشعر، وغالباً ما تحدثتُ وسيلفيا عن الأضداد، تحدّثنا عن الموت بحدّة غامرة، كنا منجذبتَين إليه مثلما تنجذب الفراشات إلى مصباح كهربائي.

انحدرت سيكستون من عائلة ذات ماضٍ في الأمراض النفسية. عانت من تقلّبات مزاجية عنيفة وفقدان الشهية للطعام والاكتئاب وإدمان الكحول، وحاولت الانتحار خمس مرات على الأقل، أضف إلى ذلك أنها أخذت خلسة زجاجة من الباربيتورات نميتال - مادة مميتة إذا تم تناولها بجرعات كبيرة - من خزانة الأدوية في بيت والدَيها وحملتها معها في محفظتها. بحسب ما شرحت كاتبة سيرتها الذاتية ديان وود ميدلبروك، أرادت سيكستون «أن تكون مستعدة للانتحار في أي وقتٍ تكون فيه في مزاج مناسب».

في أوائل العقد الرابع من عمرها، بدأت حياتها بالانحدار، أصبح إدمانها على الكحول أسوأ، وانهارَ زواجها، وتراجعت كتاباتها.

في صباح الرابع من تشرين الأول عام 1974، تناولت سيكستون الفطور مع أحد أصدقائها القُدامى، ثم الغداء مع صديقٍ آخر، كما لو أنها تقول وداعاً.

تتابع ميدلبروك:

جرّدت أصابعها من الخواتم، وألقت بها في محفظتها الكبيرة،

وأخـذت مـن خزانـة المعاطـف معطفـاً فرويـاً قديماً يعـود لوال...
بالرغـم مـن أنـه كان عصراً مُشمسـاً، إلّا أن هناك بـرودة في الج...
بُدّ أن الدفـء سـرى بسـرعة في بطانة السـاتان البالية قرب جسـ...
لا بُدّ أن الموت قد أحسّ بشـيء يشـبه العناق، مثل النوم بين ذرا...
شخصٍ مألوف.

صبّت لنفسها كأساً من الفودكا ثم انتحرت، وعلى غرار صدي...
سـيلفيا بلاث، سـتبقى سيكسـتون إلى الأبد في فئة العبقرية المح...
عليها بالفشل. تكمل ميدلبروك «لم يُفاجأ أي شخص عرف سيكسـ...
بانتحارها».

آمل الآن أنك لسـت مُقتنعاً بهذه الرواية عن موت سيكسـتو...
إذا كان الانتحـار شـيئاً مُقترنـاً، يجـب أن تكون شـخصية سيكسـ...
وعلـم الأمـراض مجـرد جـزءٍ مـن تفسـير ما حـدث لها. الأمر نفـ...
صحيـح بالنسـبة إلـى بلاث. اعتقد صديقها ألفريـد ألفاريز أن العـ...
مـن النـاس قـد تصوّروهـا على أنهـا «الشـاعرة التي كانـت الضحيـ...
التـي قدّمـت نفسـها لأجـل فنهـا». وهـو على صـواب تام فـي ذلك...
إن ذلـك يحـوّر تمامـاً مـن حقيقتهـا: إنه يقول إن هويتهـا كانت مُقيـ...
بالكامل بدمار ذاتها. يُجبرنا الاقتران على رؤية الغريب بكل غموضـ...
وتعقيده.

لدى ويسـبارد خريطة توضّح هذه النقطة أكثر بشـكل أكثر قوة.
إنهـا مـن مدينـة جيرسـي، فـي الجهة المقابلـة من نهر هودسـون من
مانهاتن.

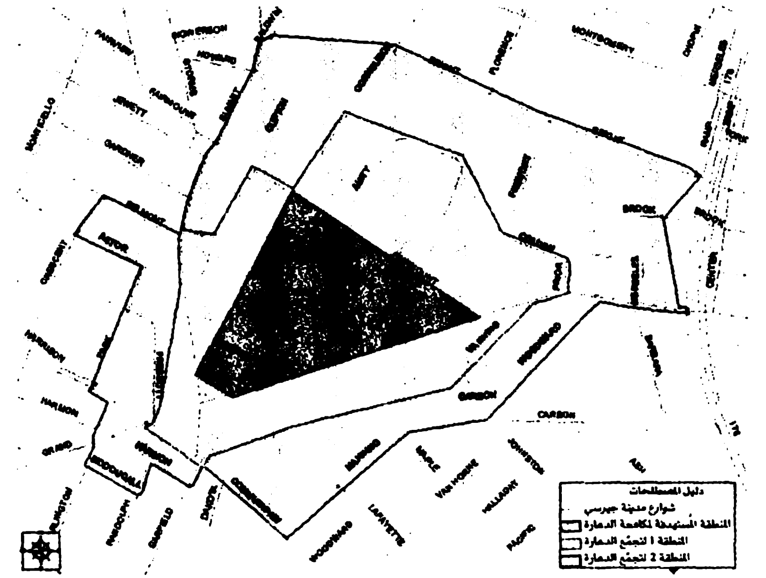

إن المنطقة الغامقة في المُنتصف – التي تحدّها جادة كورنيلسون والشارع الكبير وجادة فيرمونت – هي بؤرة لممارسة الدعارة، وقد كانت كذلك لبعض الوقت. منذ بضع سنوات أجرى ويسبارد تجربة إذ عيّن عشرة رجال شرطة إضافيين -وهو عدد كبير على نحو استثنائي- ليقوموا بالدوريات في هذه التجمعات السكانية. وعلى نحوٍ غير مُفاجئ تراجعت الدعارة في المنطقة بمقدار الثلثين.

ولكن ويسبارد كان مُهتماً للغاية بما حدث في القسم ذي اللون الأفتح من الخريطة الذي يقع خارج المثلث تماماً. عندما اتّخذت الشرطة إجراءات صارمة، هل انتقلت المومسات إلى مناطق تبعد شارعاً واحداً أو شارعين؟ كان لويسبارد مراقبون متمركزون في المنطقة وعلى اتصال بالمومسات. هل كان هناك انزياح؟ لا لم يكن هناك. لقد تبيّن أن الأكثرية جربن شيئاً آخر، لقد تركن المهنة

تماماً، وغيّرن سلوكهن عوضاً عن الانتقال من مكانهن. لم يكنَّ .. مُقترنات بالمكان، بل كُن أيضاً مُتشبّثات فيه.

أخبرتنا معظمهن: «أنا في هذه المنطقة، ولا أريد أن أنتقل لـ.. هذا سيُشكّل صعوبة لزبائني»، أو: «لا، سأُضطر لتأسيس العمل .. جديد». كلها أسباب موضوعية لعدم انتقالهن. هناك سببٌ آخر «إ.. ذهبت إلى مكان آخر مناسبٍ لتجارة المخدرات لكي أعمل في بيع.. فسيكون هناك أشخاصٌ قبلي سيقتلونني».

إن أسهل طريقة لفهم المومس هي القول إنها مُضط.. لممارسة الحيل لأنها أسيرة ظروفها الاقتصادية والاجتماعي.. إنها مختلفة عن بقيّتنا، ولكن أول شيء قالته المومسا.. عندما طُلب إليهن أن يشرحن سلوكهن: إن الانتقال أ.. شاق وعصيب، وهو الشيء نفسه الذي يقوله أي شخص عـ.. الانتقال.

يتابع ويسبارد:

كُن يتحدّثن عن مدى صعوبة ذلك بالنسبة إلى العمل، وأنهـ.. سُيجبرن على إعادة تأسيس أنفسهن، تحدّثن عن الخطر وعن أناس.. لا يعرفنهم، ولكن ماذا قصدن بقول« أُناسٍ لا نعرفهم»؟

«هنا أنا أعرف من سيتصل بالشرطة ومن لن يتصل». إنه أمر في غاية الأهمية بالنسبة إليهن. عندما يكن في المكان نفسه، ستصبح لهن درجة عالية من الحدس الصحيح بالأشخاص. أما من ينتقل إلى مكان جديد فهو لا يعلم ماهية الأشخاص، يمكن أن يكون أحدهم سيئاً بالرغم من أنه جيد، ومن يبدو جيداً من وجهة نظرهن يمكن أن

يكون سيئاً.

تابع المُحاور: «حسناً، لمَ لا تنتقلين إلى مكان أبعد؟ هناك مكان آخر لممارسة الدعارة». كان جوابها: «أولئك الفتيات لسن من نوعي المُفضّل، لن أشعر بالارتياح هناك». لقد صدمني ذلك، هؤلاء الفتيات بالرغم من كل مشاكل الحياة وصعوباتها، فإنهن يستجبن للعديد من الأشياء على نحوٍ مشابه تماماً لي ولك.

قد يكون لبعضهن أطفالٌ في المدارس القريبة، ويتبضّعن من متاجر البقالة القريبة، ولديهن أصدقاء يحبون أن يكونوا بالقرب منهم، وآباء بحاجةٍ إلى أن يعتنين بهم، ومنه فإن لديهن كافة الأسباب كي لا ينقلن مكان عملهن. صحيح أنهن يعملن في الوقت الحالي بالجنس، إلا أنهن في الوقت عينه أمهات، وبنات، وصديقات، ومواطنات قبل كل شيء. يجبرنا الاقتران على أن نرى الغريبة بكامل غموضها وتعقيدها.

هل كانت سيكستون مُصمّمة على أن تلقى حتفها بأية طريقة؟ على الإطلاق. فهي ما كانت لتستخدم مسدساً على الإطلاق. لقد أخبرت طبيبها النفسي «بالنسبة إلى إرنست هيمنغواي الذي أطلق النار على نفسه بمسدس وضعه في فمه فإن هذا أعظم عمل ينطوي على الشجاعة يمكنني التفكير فيه، أنا قلقة بشأن الدقائق الأخيرة قبل موتي، ذلك الخوف من الموت، ولكنني إذا استخدمت الحبوب فلن أخاف، ولكن عند استخدام المسدس فهناك لحظة من الخوف المريع. سأفعل أي شيء لأتجنب الخوف».

لقد اختارت ابتلاع الحبوب مع الكحول، التي اعتبرتها «طريقة

المرأة للهروب». ألقِ نظرة على المخطط التالي، وقارن طرق الا...
المختلفة من خلال معدل الوفيات.

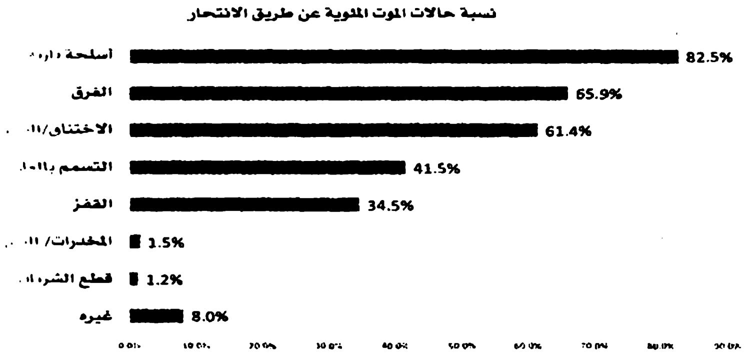

إن نسبة الوفيات لدى الأشخاص الذين يستخدمون جرعا... زائدة من الحبوب هي 1.5 بالمئة. كانت سيكستون مُقترنة بطري... انتحار من المُرجّح كثيراً أنها لن تقتلها، وهذا ليس متوافقاً. على غرا... العديد من الأشخاص ذوي الميول الانتحارية، كانت مُتقلّبة بشكل... عميق بشأن إقدامها على الانتحار. لقد أخذت الحبوب المنومة كل... ليلة تقريباً، وسارت بحذر على الخط الفاصل بين الجرعة الطبيعية والجرعة الزائدة ولكنها لم تتجاوزه أبداً. فقط انظر لتبريرها في قصيدتها «المُدمن»:

تاجر النوم
تاجر الموت
مع الكبسولات في راحة يدي كل ليلة
ثمان في كل مرة من العبوة الدوائية الجميلة
أقوم بالترتيبات لرحلة صغيرة

أنا الملكة في هذه الحالة
أنا خبيرة في خوض الرحلة
ويقولون الآن إنني مُدمنة
والآن يسألون لماذا
لماذا!
ألا يعلمون
أنني وعدت أن أموت!
أنا أواظب على التمرين
أنا في حالة جيدة فحسب
إن الحبوب مثل الأم، ولكن أفضل
كل لون وبجودة الكُريات الحامضة
أنا في حمية عن الموت

أياً يكن الأمر، لقد جعلها موت بلاث تعيد النظر بخياراتها. أخبرت طبيبها النفسي «أنا مأخوذة للغاية بموت سيلفيا بلاث: الموت على نحوٍ مثالي». لقد شعرت أن بلاث اختارت طريقة أفضل حتى بالنسبة إلى امرأة، لقد رحلت عن هذا العالم كأنها «الجمال النائم»، نقية على نحوٍ صافٍ حتى في الموت. لم تُرد سيكستون أن يكون الانتحار مؤلماً وأن يترك آثاراً على جسدها. بحلول عام 1974 أصبحت مُقتنعة بأن الموت بدخان عادم سيارتها يناسبُ هذه المعايير، سيكون بمثابة غاز الفحم لها. لقد فكرت فيه، وتحدثت عنه مع أصدقائها.

هكذا أقدمت على الانتحار، خلعت خواتمها، وارتدت معطف والدتها. ذهبت إلى مرأبها، وأقفلت الباب، وجلست في المقعد

الأمامي لسيارتها الحمراء من نوع ميركوري جاكوار موديل عام ١٩٦٧
وشغلت المحرك. الفرق ما بين خيارها الأصلي للحبوب المنو
وأحادي أكسيد الكربون السام هو فيما أن السابق نادراً ما يكون م
إلا أن أحادي أكسيد الكربون مميت. لم تمضِ خمس عشرة دقيقة
إلا وكانت ميتة.

حسناً، هنا تلتقي قصة سيكستون مع قصة بلاث مرة أخرى.
بدءاً من سنة 1975 -السنة التي تلت انتحارها- أصبح لزاماً على
السيارات المُباعة في الولايات المتحدة أن تكون مزودة بمحوّلات
تحفيزية مُركبة في أنظمة العادم فيها. المحوّل التحفيزي هو حجرة
احتراق ثانوية تحرق أول أوكسيد الكربون والملوثات الأخرى قبل أن
تخرج من أنبوب العادم. كان دخان سيارة سيكستون من نوع جاكوار
1967 مُشبعاً بأحادي أوكسيد الكربون. لهذا جلست في مرأب مغلق،
وشغلت محرك السيارة، وماتت في غضون خمس عشرة دقيقة.

احتوى عادم السيارة نموذج 1975 على نصف مقدار أحادي أوكسيد الكربون مقارنة بنموذج 1967. تُصدر السيارات في الوقت الحاضر كمية قليلة جداً من أحادي أكسيد الكربون التي بالكاد يمكن تسجيلها في عادم السيارات. في الوقت الحاضر، أصبح من الصعوبة بمكان الانتحار من خلال تشغيل سيارتك وإغلاق باب المرأب.

لم تكن سيكستون محظوظة على غرار صديقتها سيلفيا بلاث. كان لديها الحافز مُقترناً بطريقة مميتة، قبل عقد واحد فقط من أن تكفّ تلك الطريقة عن كونها مميتة للغاية. لو أنها واجهت الصعوبات في ا ام 1984 بدلاً من عام 1974 لكان من المحتمل جداً أن تعيش

فترة أطول بكثير.

نحن نسترق السمع إلى هاتين الشاعرتين الشابتين الموهوبتين في بار فندق الريتز، وهما تتحدثان بتوقٍ عن أولى محاولات الانتحار لهما، ونقول إنه لن تحيا أيٌّ منهما لوقتٍ طويل. يُعلّمنا الاقتران النقيضَ لذلك. لا تنظر إلى الغريب ثم تقفز إلى الاستنتاجات، ألقِ نظرة على عالم الغريب.

الفصل الحادي عشر

دراسة حالة: التجارب المطبقة في مدينة كنساس

1

منذ قرنٍ من الزمن، كانت هناك قامة أسطورية في تطبيق القانون الأميركي وهي شخص يُدعى أو. دبليو. ويلسون الذي أتى بفكرة «الدورية الوقائية».[1] اعتقد ويلسون أن بقاء سيارات الشرطة في حركة مُستمرة وغير متوقعة في شوارع المدينة يساعد في ردع الجريمة. لأن أي مجرم سيفكر مرتين قبل أن يُقدم على جريمته، وذلك لأنه لا يعلم إن كانت هناك سيارة شرطة على مقربة منه أم لا.

ولكن فكّر في ذلك. عندما تسير في الحي الذي تقطن فيه، هل تشعر بأن سيارة الشرطة على مقربة من المكان؟ إن المدن أماكن شاسعة ومترامية الأطراف.

.لم يكن واضحاً كيف يمكن لقوة شرطة حتى لو كانت كبيرة أن توحي أنها في كل مكان.

هذه هي القضية التي واجهت شرطة مدينة كنساس في أوائل

---

(1) جزب ويلسون الدورية الوقائية للمرة الأولى عندما كان قائد الشرطة في ويشيتا، كنساس. وشغل لاحقاً المنصب نفسه في شيكاغو

سبعينيات القرن الماضي. كانت الشرطة بصدد تعيين المزيد من العناصر، ولكن حدث انقسام في الآراء بخصوص كيفية انتشارهم هل يعملون بنصيحة ويلسون ويجوبون بعشوائية شوارع المدينة؟ أم يجوبون في مناطق محددة مثل المدارس والأحياء التي تكثر فيها الجرائم؟ لحل هذه المشكلة عيّن القسم باحثاً في علم الجرائم يُدعى جورج كيلينغ.

يتذكر كيلينغ: «رأت مجموعة أن التجول في السيارات لن يفيد بتحسين أي شيء، في حين رأت مجموعة أخرى أن هذا التكتيك ضروري للغاية، كانت هناك حالة تعادل، ثم عُينت».

كانت فكرة كيلينغ أن يتم اختيار خمسة عشر مكاناً من القسم الجنوبي من المدينة، وأن يُقسم رجال الشرطة إلى ثلاث مجموعات. بلغت مساحة المنطقة الجنوبية اثنين وثلاثين ميلاً مُربعاً وكان يقطنها ما يقارب الـ 150 ألف نسمة، وانقسمت الأحياء بين أحياء آمنة وأحياء غير آمنة. إحدى هذه المجموعات هي مجموعة المراقبة، إذ تتابع الشرطة عملها بالطريقة نفسها التي كان يسير بها، قرّر كيلينغ ألا تكون هناك دوريات وقائية على الإطلاق في أحياء المجموعة الثانية، ومنه فإن عناصر الشرطة يستجيبون للاستدعاءات التي تأتيهم فقط، أما في أحياء المجموعة الثالثة فضاعف كيلينغ من سيارات الدورية في الشوارع وفي بعض الحالات الخاصة ضاعفها ثلاث مرات.

يتابع كيلينغ: «لم يسبق للشرطة أن قامت بهذا الأمر من قبل، كُنا في عام 1970 وليست هناك أيّة تعليمات مكتوبة عن تكتيكات الشرطة، كانت هذه مرحلة بدائية للغاية في حفظ الأمن». وكان

للأشخاص مثل أو. دبليو. ويلسون أفكارٌ وحدس، ولكن تم اعتبار عمل الشرطة فناً وليس علماً يمكن أن يتم تقييمه مثل أي عقار طبي جديد.

يقول كيلينغ إن العديد من الأشخاص أخبروه بأن التجربة ستفشل: «بدا أن الشرطة لم تكن جاهزة ببساطة لهذا البحث. لم أكن قادراً على القيام به لأنهم سيفسدون التجربة». ولكن كيلينغ حاز على دعم قائد شرطة المدينة. أمضى قائد الشرطة معظم مسيرته المهنية في مكتب التحقيقات الفيدرالي، وصُدم عندما عَلِم بقلّة ما كانت تعرفه أقسام الشرطة عن طبيعة عملها الخاص، لاحقاً اعترف قائد الشرطة: «كان للعديد منا في القسم الانطباع نفسه أننا نُدرّب الرجال ونجهزهم وننشرهم ليقوموا بعمل لم نعرف نحن أو أي أحد آخر الكثير عنه». أبلغ كيلينغ أن يمضي قُدماً في عمله.

استمرت تجربة كيلينغ عاماً، وجمع بدقة كل البيانات الإحصائية التي تمكن من الوصول إليها عن كل جريمة وقعت في المناطق الثلاث قيد الدراسة. كانت النتيجة أن شيئاً لم يتغير، بقيت أعمال السطو على حالها في المناطق الثلاث، كذلك الأمر بالنسبة إلى سرقة السيارات وأعمال التخريب وغيرها من السرقات. لم يشعر المواطنون في المناطق ذات الدوريات المُعزّزة بأنهم أكثر أماناً من الأشخاص في المناطق التي لم تكن فيها أية دوريات. بدا أنهم لم يلحظوا ما حدث. علّق كيلينغ: «لقد صبّت كل النتائج في اتجاه واحد، وهو أنه لم يحدث أي اختلاف، لم تؤثر التجربة على رضى المواطنين أو إحصائيات الجريمة، لم يحدث أي تغيير على الإطلاق».

قـرأ كل شـرطي فـي البـلاد نتائـج التجربة، في البداية سيطـ... حالة من الذهول. تابعت بعض أقسام الشرطة في المدن تطبيق أفـ... ويلسـون. يتذكـر كيلينـغ عندما وقف قائد شـرطة لـوس أنجلوس ... أحـد مؤتمـرات تطبيـق القانون الوطنية وقـال: «إذا كانت هذه النتا... صحيحة، فلا بُدّ أن كل شرطي في مدينة كنساس كان يغطّ في الـ... فـي نوبتـه، لأنني أؤكـد لكم أن الأمر ليس على هـذا النحو في لو... أنجلوس».

لكـن وبشـكل تدريجـي سـلمت المعارضة بالأمـر الواقع. لقـ... ظهـرت الدراسـة بالتزامـن مع بداية موجـة جرائم عنف في الولايا... المتحدة استمرت لعقدين كاملين، مما غذّى الشـعور المتنامي لد... الأشخاص العاملين في تطبيق القانون أن المهمة التي أمامهم هائلة. لقـد ظنـوا أنهـم يسـتطيعون التصـدي للجريمـة مـن خـلال دوريات الشرطة، ولكن شرطة مدينة كنساس، اختبرت الفرضية عملياً، وتبيّن أن الدوريـات مـا هـي إلا تمثيليـة، وإذا لم تُفلِح الدوريات، فما الذي سيفلح؟ هناك مقابلة شـهيرة أُجريت مع قائد شـرطة مدينة نيويورك لي براون في خضمّ تفشـي المخدرات فلم يكن منه إلا أن رفع يدَيه وقال: «إن المشاكل الاجتماعية لهذه البلاد تتجاوز كثيراً قدرة الشرطة بمفردها على التعامل معها».

لقـد قـرأ تقريـر جـورج كيلينـغ عـن مدينة كنسـاس، كان الأمر ميؤوساً منه. تابع براون «لا يهم عدد عناصر الشرطة في المدينة، فلن يكون لدينا يوم ما العدد الكافي من الرجال لكي نسـتعين بتكتيكات حفـظ الأمـن التقليديـة لـردع الجرائم. ما لم يكن لدينا عنصر شـرطة

لكل مكان في المدينة، فإن احتمال مرور عنصر شرطة في دورية في أثناء وقوع جريمة قليل للغاية».

في عام 1990 زار الرئيس جورج إتش. دبليو. بوش مدينة كنساس. أمضى الرئيس فترة الصباح في أحد أفقر أحياء المدينة وأكثرها عنفاً، ثم ألقى خطاباً أمام مجموعة من رجال الشرطة المحليين، لقد حاول أن يكون متفائلاً، ولكنه فشل. كان معدل جرائم القتل في كنساس يفوق بثلاث مرات المعدل العام على مستوى الولايات المتحدة، وقد استمر هذا المعدل بالازدياد في سنوات 1991 و1992 و1993. لم يكن لديه الكثير ليقوله ببساطة، لقد أوجز بوش كلمته ليعدد الأشياء المريعة التي تحدث في شوارع المدينة:

قُتِل صبي في الرابعة من عمره رمياً بالرصاص فيما يشتبه أنه وكر للمخدرات، وقُتل طفل في الحادية عشرة من عمره بالرصاص خارج وكر مخدرات آخر، ويزعم أن القاتل صبي في الرابعة عشرة من عمره. في حانة وسط المدينة، باعت أم طفلة لتحصل على المخدرات، وخلّف هجوم بالمولوتوف قتلى من ثلاثة أجيال، بمن فيهم جدّة وثلاثة أطفال صغار، كانت العناوين الرئيسة مروعة ومثيرة للاشمئزاز ومُخزية.

ولكن في مطلع التسعينيات، بعد عشرين عاماً على تجربة كنساس الأولى، قرّر القائمون على المدينة إجراء تجربة ثانية. عيّنوا باحثاً آخر في علم الجريمة، وهو شاب لامع يُدعى لورانس شيرمان. وعلى غرار ما فعلوا مع جورج كيلينغ، منحوه حرية التصرف، لقد آن الأوان للتجربة الثانية لمدينة كنساس، ولِمَ لا؟ لم يفلح أي شيء آخر.

2.

اعتقد لورانس شيرمان أن التركيز يجب أن يكون على الأسلـ، كان مقتنعاً بأن العدد الكبير للأسـلحة في المدينة هو ما غذى مو العنف فيها. كانت خطّته أن يُجرّب عدداً من الأفكار بالتسلسل، و ا يقيّم فاعليتها بصرامة - على غرار ما فعل كيلينغ - وأن يختار الطر الناجحة.

دعا شيرمان إلى اجتماع للتخطيط مع مجموعة من كبار ضبا الشـرطة فـي المدينـة. اختاروا حقل تجارب فـي منطقة الدورية 144 وهو حي صغير مساحته 0.64 ميلاً مربعاً فيه مساكن متواضعة من نمط منزل العائلة الواحدة، ويحدّه من الجنوب الشـارع التاسـع والثلاثو ن ومن الغرب الطريق السريع 71. كان الوضع في المنطقة 144 سيئاً على نحوٍ مماثل لمدينة كنساس في بدايات التسعينيات. فاق مُعدّل جرائم القتـل هنـاك عشـرين مـرة المعدل العـام في الولايـات المتحدة، كان متوسط الجرائم في المنطقة جريمة واحدة في اليوم وأربعاً وعشرين حالة إطلاق نار من سيارة عابرة في العام الواحد.

منـذ بضعـة أشـهر وفـي أثنـاء قيام شـرطي بدورية فـي المنطقة 144 رأى بعض الفتيان يلعبون كرة السـلة في الشـارع، أوقف سـيارته، وترجـل منهـا، طالبـاً إليهـم أن يفسـحوا له الطريق، فمـا كان من أحد اللاعبين إلا أن رمى الكرة على رأس الشرطي ثم هاجمه اثنان آخران، هذا نموذج عما كانت عليه الحال في المنطقة 144.

تمحورت فكرة شـيرمان الأولى حول نشـر مجموعة فرقٍ كل منهـا مكـوّن مـن رجلين، تزور هذه الفرق جميـع المنازل في الحي

في غضون ثلاثة أشهر. سيقدّم عناصر الشرطة أنفسهم، ويتحدثون عن العنف المُسلّح، ويزوّدون السكان بنشرة فيها رقم اتصال 800، في حال علموا أي شيء عن الأسلحة النارية في الحي، وطمأنوا السكان أن مصدر المعلومات سيبقى مجهولاً. سارت الخطة من دون عوائق. في العديد من الزيارات رافق جيمس شو- وهو طالب دراسات عليا في علم الجرائم- عناصر الشرطة، الذي كانت مهمته تقييم فاعلية البرنامج. في بعض الأحيان، كان عناصر الشرطة يبقون لمدة تزيد على عشرين دقيقة وهم يتحدثون إلى الناس الذين لم يأتِ أي شرطي إلى منزلهم إلا للقيام باعتقال. أسرف شو في التعبير عما حدث:

ذهب عناصر الشرطة إلى كل مسكنٍ في الحي، وفي بعض الأحيان أكثر من مرة، وتحدثوا إلى السكان بطريقة ودودة وغير مُهدّدة. وردُّ الفعل على ذلك كان انفتاح السكان وسعادتهم لرؤية عناصر الشرطة وهم يطرقون جميع أبواب المنازل في الحي. أجاب الناس بعبارات من قبيل «باركك الله جميعاً، كان يجب أن يكون لنا برنامج كهذا منذ زمن»، أو «حمداً لله! لم أعتقد أنكم ستأتون أبداً».

في نهاية الأمر، قال 88 بالمئة من السكان الذين تمت زيارتهم إنهم سيستخدمون الخط الساخن إذا ما رأوا أية أسلحة. إذن ما هو عدد الاتصالات التي وردت بعد ذلك، بعد 858 زيارة إلى منازل السكان على مدار ثلاثة أشهر؟ اتصل شخصان، وكلاهما بشأن أسلحةٍ في حيٍ آخر.

سرعان ما أدرك الجميع أن المشكلة ليست في عدم رغبة سكان

المنطقة 144 في المساعدة، إنهم يريدون ذلك، إلا أنهم لم يكو ا
يغادرون منازلهم. قال أحد مالكي المنازل لشو: «بدا وكأننا في بير و
هنا»، إذا كنت خائفاً جداً من مغادرة منزلك، فكيف لك أن تعلم م
يحوز سلاحاً ومن لا يحوزه؟

يتابع شو:

على نحوٍ مُغاير للعديد من الأحياء الأخرى داخل المد
أصبح هؤلاء الناس مثل الحيوانات المحبوسة في منازلهم، أصبح
القضبان على النوافذ بمثابة عُرفٍ سائد، ولن يُفاجأ أحد برؤية قضبا
على نوافذ الطابق الثاني. أياً يكن الأمر كانت الحقيقة المُحزنة أكث
هي أنه في منزلٍ تلو آخر تم إسدال الستائر وإغلاقها بإحكام، مما
يحجب أي أثر للعالم الخارجي. أغلق كبار السن أبوابهم، وحبسوا
أنفسهم في الداخل، وكانوا يسمعون ما يجري في الخارج، الذي بدا
أحياناً مثل ساحة معركة، لكنهم لم يتمكنوا من رؤية أي شيء.

كانت الفكرة التالية للمجموعة هي أن يتم تدريب عناصر الشرطة على الفن الدقيق لرصد الأسلحة المُخبَّأة. لقد دفع في هذا الاتجاه ضابط شرطة من مدينة نيويورك يُدعى روبيرت تي. جالار الذي أمضى ثمانية عشر عاماً في السلك، ونجح على نحوٍ مُدهش في تجريد 1200 شخص من أسلحتهم. كانت لجالار نظريات مُفصّلة، وعمل لسنوات عديدة في الميدان: يضع مجرمو الشوارع بشكلٍ كبير أسلحتهم في أحزمة الخصر جهة اليسار في حال كان المجرم يستخدم اليد اليمنى، مما يسبب إعاقة دقيقة في مشيتهم، لكن يمكن تمييزها. عادة ما تخطو الرجل من جهة السلاح خطوة أقصر من الرجِل في

الجانب غير المُسلّح، وتتبع الذراع المُقابلة مساراً مُقيّداً مُشابهاً. اعتقد جالار أنه عند النزول من الأرصفة أو الخروج من السيارة فإن الأشخاص الذين يحملون أسلحة سيلقون نظرة خاطفة باتجاه سلاحهم أو يُعدّلون موضعه لا شعورياً.

في الشهر الذي تلا فشل تجربة الخط الساخن، طار جالار إلى كنساس ورافق ذلك جلبة عظيمة. لقد ألقى جالار محاضرات، وعرض مقاطع فيديو، ودوّن عناصر الشرطة الملاحظات. أرسل البرنامج التلفزيوني 20/ 20 طاقم تصوير لتسجيل تطبيق التقنية عملياً في شوارع كنساس. لم يرصد أحد أي شيء. عاد فريق 20/ 20 مرة أخرى وحدث الشيء نفسه، لم يُرصد شيء. مهما تكن المهارات السحرية التي امتلكها روبيرت جالار فإنها لا تبدو قابلة للنقل إلى أفراد الدوريات في كنساس. لقد فشلت أفضل فكرتين للفريق للتضييق على العنف المُسلّح وتبقت لهم فكرة واحدة.

3

لقد كان قصب السباق في تجربة الأسلحة النارية في كنساس من نصيب عمل بسيط. لقد استند على خاصيّة في النظام القانوني الأميركي.

يحمي التعديل الرابع لدستور الولايات المتحدة المواطنين من «حالات التفتيش وعمليات الاعتقال غير المنطقية». لهذا لا تستطيع الشرطة أن تُفتّش منزلك من دون مُذكرة. كذلك الأمر في الشارع، يجب أن يكون لدى الشرطي سبب وجيه- ارتياب منطقي – لكي

يفتّشـك بحثاً عن السـلاح.[1] ولكن إذا كنت في سيارتك فليس مـ الصعـب على الإطلاق بالنسـبة إلى الشـرطي أن يحقـق هذا المعيار في الحقيقة، يعطي قانون المرور في الولايات المتحدة -وفي معظم البلدان- مئات الأسباب عملياً لعناصر الشرطة ليوقفوا سائق سيارة.

يشـرح الباحـث القانونـي ديفيـد هاريـس «هنـاك المخالفـات المروريـة: مثـل تجـاوز السـرعة، وتجاوز الإشـارة الحمـراء، وهناك مخالفـات بشـأن المركبـة: مثـل وجـود ضـوء لا يعمـل، أو عجلة لا تستوفي شروط السلامة».

وهناك الأحكام الشاملة: القوانين التي تسمح للشرطة أن توقف السـائقين بسـبب سـلوك يتوافق مع جميع القواعد في الكتب، ولكن يعتبرها عناصر الشرطة «طائشة» أو «غير منطقية» بحسب الظروف، أو التي تصف المخالفة بشكل عمومي للغاية على نحو تجعل المخالفة عملياً متطابقة مع القرار الشخصي للشرطي الذي لا يمكن إعادة النظر فيه.

---

(1) لتجاوز تلك العقبة على سبيل المثال، فقد طوّر جالار كافّة أنواع الحيل. كان يقترب هو وزميله من شخص يعتقدان أنه يحمل سلاحاً نارياً، يُضيّقان عليه على نحو يصبح موقفه دفاعياً، ثمّ يُعرّف جالار عن نفسه: أنا شرطي.

أخبر جالار أحد المراسلين الصحفيين منذ سنوات «عندما أوقف رجلاً يحمل سلاحاً نارياً، في 99 بالمئة من الحالات يقوم بالأمر نفسه، سيدير الجانب الذي فيه السلاح بعيداً عنك، إمّا بضعة إنشات وإما دورة سريعة للورك وإما أنه سيقف بشكلٍ موارب، وسيضع يده وذراعه بشكلٍ طبيعي في اتجاه السلاح بحركة غريزية وقائية، في تلك اللحظة لا يجب عليك أن تنتظر كي ترى إن كان سيخرج مسدسا من تحت قميصه أو أنه سيبقيه مكانه، في تلك اللحظة لديك كلّ الحق بتفتيشه بحثا عن سلاح».

هناك قضية في المحكمة العليا أوقفَ فيها شرطي في نورث كارولينا ما اعتقد أنه سائق مشبوه بذريعة أن أحد أضواء فرامل السيارة كان مُعطلاً. ومِمّا تبيّن لاحقاً فإنه من المسموح في نورث كارولينا أن تقود سيارتك في حال كان أحد مصابيح الفرامل مُعطلاً، طالما أن المصباح الآخر يعمل. حسناً، ما الذي حدث بعد أن رفع سائق السيارة دعوى قضائية مُدّعياً أنه أُوقف بشكل غير قانوني؟ لقد حكمت المحكمة العليا لصالح رجل الشرطة. فقد رأت أنه يكفي أن يعتقد الشرطي أن قيادة السيارة بمصباح فرامل واحد هو مخالفة. بكلمات أخرى؛ فإن عناصر الشرطة في الولايات المتحدة لم يكن تحت تصرفهم فقط قائمة غير محدودة عملياً من الأسباب القانونية لكي يوقفوا سائق سيارة، بل كانت لديهم حريّة التصرف ليضيفوا أية أسباب أُخرى يمكنهم أن يفكروا فيها. وحالما يوقفون السائق، فمن المسموح لعناصر الشرطة بحكم القانون أن يفتّشوا السيارة، طالما أن لديهم سبباً ليعتقدوا أن سائق السيارة قد يكون مُسلّحاً أو يُشكّل خطِراً.

قرّرت كنساس أن تستفيد من حرية العمل هذه. اقترح شيرمان أن تنتدب الشرطة أربعة عناصر مع سيارتَي دورية، ستكون دوريتهم في المنطقة 144. طُلِب إليهم ألا يتجولوا خارج المنطقة التي تبلغ مساحتها 0.64 ميلاً مربعاً، وتم إعفاؤهم من كل الالتزامات الأخرى المتعلقة بتطبيق القانون، ليس عليهم أن يستجيبوا للنداءات التي تأتيهم على جهاز الراديو أو أن يذهبوا إلى مواقع الحوادث. كانت تعليماتهم واضحة: أن يراقبوا ما يعتقدون أنهم سائقون موضع

اشتباه، وأن يستعينوا بأي عذر يمكن أن يجدوه في قانون المرور يجبروهم على التوقف. إذا بقي الشرطي مُتشكّكاً عندها يُفتّش السيا ويصادر أي سلاح يعثر عليه. عَمِل أفراد الشرطة يومياً من الساب مساءً حتى الواحدة بعد منتصف الليل، سبعة أيام في الأسبوع لـ مئتي يوم من دون انقطاع. إذن ما الذي حدث؟ خارج المنطقة 144 سار عمل الشرطة كما هو وبقيت الجريمة بالسوء نفسه الذي كان عليه سابقاً، ولكن داخل المنطقة 144 أسهم عمل الشرطة المُركّز على خفض جرائم العنف المُسلّح، وحوادث إطلاق النار، وجرائم القتل والإصابات بفعل الأعمال الإجرامية بمقدار النصف.

في الماضي، لم يكن أمام الشرطة سوى الاستسلام في تلك المرحلة. لم يفلح أي شيء. لم يتصل أي شخص بالخط الساخن. أما بشأن كشف الأسلحة المُخبأة، فقد ذهب طاقم تصوير من برنامج 20/ 20 مرتين وعاد خالي الوفاض. في نيويورك كان لي براون يرثي عجز الشرطة عن القيام بأي شيء بشأن الجرائم العنيفة. تذكر الجميع التجربة السابقة لكنساس التي زجّت بمجتمع تطبيق القانون في يأس استمر عشرين عاماً. ولكن الآن عادت المدينة نفسها لتعلن النصر هذه المرة.

قال قائد شرطة كنساس بعد ظهور النتائج: «لا أعرف لماذا لم نركز حقيقةً على الأسلحة النارية». كان مذهولاً مثل أي شخص آخر بما أنجزته سيارتا دورية إضافيتان فحسب. يتابع قائد الشرطة «عادة، ما نركز على القبض على الأشرار بعد وقوع الجريمة، ربّما كانت ملاحقة الأسلحة أمراً أبسط من أن نأخذه في الاعتبار».

أفضت التجربة الأولى لكنساس إلى نتيجة مفادها أن الدوريات الوقائية لا جدوى منها، إذ لم يشكّل تجوّل السيارات في الشوارع أي فارق. عدّلت التجربة الثانية ذلك الموقف.

في الواقع، لقد شكلت سيارات الدورية الإضافية فارقاً طالما أن رجال الشرطة يبادرون ويوقفون أي شخص يبدو مُريباً، ويُخرجون السائقين من سياراتهم ويفتشونها بحثاً عن الأسلحة. تم تطبيق فكرة الدورية عندما يكون عناصر الشرطة مشغولين. غيّرت إحصائيات التقرير الأخير للتجربة من المنظور. على مدى سبعة أشهر، أصدرت كل سيارة دورية ما معدله 5.45 مخالفة مرورية في كل نوبة عمل. ونفّذت ما معدله 2.23 عملية اعتقال كل ليلة، في غضون مئتي يوم فقط، نفذ عناصر الشرطة في المنطقة 144 أعمالاً تتعلق بحفظ الأمن أكثر مما فعله أغلب عناصر الشرطة في حياتهم المهنية كُلّها: 1090 مخالفة مرورية، 948 حالة إيقاف للمركبات، 616 عملية اعتقال، 532 تفتيشاً للمارة و29 حالة مصادرة للسلاح. عنى ذلك تدخّلاً واحداً للشرطة كل أربعين دقيقة، في ليلة واحدة في المنطقة 144 الصغيرة ذات 0.64 ميلاً مربعاً، سارت كل سيارة مسافة 27 ميلاً. لم يكن عناصر الشرطة يركنون سياراتهم في زاوية الشارع ويتناولون الكعك، إنما كانوا في حركة مُستمرة.

لا يختلف عناصر الشرطة عنا، إنهم يريدون أن يشعروا بأن جهودهم مُهمّة، ذلك ما كان يهم، يريدون أن يروا أن عملهم الشاق سيؤتي ثماره. ما حدث في المنطقة 144 قدّم بدقة ما كان يسعى إليه سلك تطبيق القانون: التحقق من السلامة.

كتب شو في تقريره عن البرنامج: «أصبحت لدى عناصر الشر
الذين صادروا أسلحة سُمعة حسنة بين زملائهم، إلى درجة أ
أصبحت مصادرة الأسلحة هي مقياس النجاح، يُمكن سماع عنا
الشرطة وهم يُردّدون مراراً عبارات من قبيل عليّ أن أصادر سلا
الليلة' أو «لم أصادر سلاحاً بعد، الليلة هي الليلة الموعودة!'».

في عام 1991، نشرت النيويورك تايمز مقالاً في صفحتها الأو
عن المعجزة التي حدثت في كنساس. يروي لاري شيرمان كيف أ
هاتفه لم يتوقف عن الرنين في الأيام التي تلت ذلك: لقد أمطره 00
مركز شرطة من جميع أرجاء البلاد بطلبات حول كيفية قيام شر
كنساس بذلك. لقد حذَت بقية مراكز الشرطة حذوهم واحداً إثر آخر
لإعطاء مثالٍ عن ذلك، فإن دورية الطريق السريع في ولاية نورث
كارولينا سجلّت 800 ألف حالة توقيف مروري عوضاً عن 400 ألف
في العام الواحد في فترة سبع سنوات.

استخدم جهاز مكافحة المخدرات «عملية خطوط الإمداد»
ليدرّس عشرات آلاف عناصر الشرطة المحلّيين في أرجاء الولايات
المتحدة كيفية استخدام طريقة كنساس للإيقاف المروري للقبض
على مُهرّبي المخدرات، وشرع المسؤولون في هيئة الهجرة باستخدام
الإيقاف المروري للقبض على المهاجرين غير المُسجّلين.

في الوقت الحاضر، يقوم عناصر الشرطة في الولايات المتحدة
بنحو عشرين مليون عملية توقيف مروري في العام، أي ما يعادل 55
ألف توقيف في اليوم. لقد حاول القائمون على تطبيق القانون في
جميع أرجاء الولايات المتحدة أن يستنسخوا المعجزة التي حصلت

في المنطقة 144. الكلمة المفتاحية في الجملة السابقة هي حاول، لأنه عند نقلِ التجربة من كنساس إلى بقية أرجاء البلاد، تم إغفال شيء جوهري في تجربة لورانس شيرمان.

4

لورانس شيرمان الذي ذهب إلى كنساس هو نفسه لاري شيرمان الذي عمل مع ديفيد ويسبارد في مينابوليس قبل بضع سنوات، حين أسّسا معاً قانون تمركز الجرائم، كانا صديقين، لقد درّس كل واحد منهما لمدة من الزمن في جامعة روتجرز، حيث كان رئيس القسم آنذاك رونالد كلارك، الذي أدى عملاً رائداً في دراسة الانتحار. تابع كلٌّ من كلارك وويسبارد وشيرمان -مع اهتماماتهم المتباينة بشأن غاز الفحم الإنكليزي، وخريطة الجرائم في مينابوليس، والأسلحة النارية في مدينة كنساس- الفكرة الثورية نفسها المتعلّقة بالاقتران.

ماذا كان الأثر الرئيسي للاقتران؟ لا يحتاج تطبيق القانون إلى أن يكون أكبر، إنما يحتاج إلى أن يكون أكثر تحديداً وتركيزاً. إذا نَشِط المجرمون بشكلٍ كبير في بضع نقاط ساخنة مُتمركزة، فإن هذه المناطق من المدينة تحتاج إلى تكثيف عمل الشرطة فيها أكثر من أي مكان آخر، حيث يجب أن تكون جميع استراتيجيات مكافحة الجريمة المستخدمة من قبل الشرطة في هذه المناطق مختلفة تماماً عن الاستراتيجيات المستخدمة في المناطق الشاسعة الأخرى من المدينة التي لا تجد فيها فعلياً أية جريمة.

تساءل ويسبارد: «إذا كانت الجريمة مُتمركزة في مناطق قليلة

ضمـن المدينـة، فلمـاذا تُبدد المـوارد في كل مكان؟ فهي مُقترنة به...
الأماكـن ولـن تنتقـل بسـهولة». يعتقـد واضعـو نظرية الاقتـران أنهم
أوجدوا الحل للمشكلة التي تسببت بإرباك في مُستهل تطبيق فكرة
الدوريـات الوقائيـة. كيـف يمكـن القيـام بدوريـات بشـكلٍ فعّال في
المناطق الحضرية المترامية الأطراف من خلال بضع مئات من عناصر
الشرطة؟ ليس من خلال تعيين المزيد من عناصر الشرطة أو بتحويل
المدينـة إلـى دولـة مراقبة، بـل يتم ذلك من خلال التركيز على مناطق
قليلة مُحدّدة حيث توجد الجريمة.

لكـن بالعـودة إلـى تلـك الإحصائيات مـن نـورث كارولينا، إذا زيـد عـدد حـالات الإيقـاف المـروري مـن 400 ألف حالـة في أحد الأعوام إلى 800 ألف حالة خلال السنوات السبع التالية، هل يبدو هذا على أنه عمل شـرطة مُركز ومُحدّد؟ أم أنه عُيّن مزيد من عناصر الشـرطة فـي دوريـة الطريـق السـريع، وأُخبِروا أن يوقفـوا المزيد من سائقي المركبات؟ إن الدرس الذي تعلمه مجتمع تطبيق القانون من كنسـاس هـو أن فكـرة الدوريـة الوقائية سـتنجح في حـال كانت أكثر عدوانيـة. ولكـن الشـيء الـذي غفلـوا عنه هـو أنه يُفتـرض أن تكون الدوريـة العدوانيـة محـدودة بالأماكـن التـي تتركز فيهـا الجريمة، إن تجربة كنساس هي تجربة اقتران.

يُصرّح ويسبارد وشيرمان أنهما سـارعا إلى الخرائط والأقلام، وحـاولا أن يُقنعـا الزمـلاء بقانـون تمركز الجريمـة، وأن يؤثرا عليهم بعض الشيء. بالعودة إلى الضاحية الثانية والسبعين في بروكلين حيث بدأ عمله، بعد يومٍ طويل من التجول في الحي، يلتفت ويسـبارد إلى

رجال الشرطة الذين كانوا معه ويقول: «أليس غريباً أننا نعود مراراً وتكراراً إلى المجمع السكني نفسه؟». فما كان منهم إلا أن نظروا إليه بدهشة.

يستحضر ويسبارد ذكرياته ويقول: «كنت في اجتماع مع الوكيل المفوّض للشرطة في إسرائيل» وفي الاجتماع قال أحدهم: «حسناً، يبدو أن ديفيد يرى أن الجريمة لا تنتقل من مكانٍ إلى آخر، وأن هذا يقتضي أن نولي التركيز لمناطق محدّدة» ثم يلتفت هذا الرجل ويتابع: «بحسب خبرتي فإن هذا ليس صحيحاً، لا يمكنني تصديق ذلك». كان هذا نهاية ما جرى.

هل هناك خطب ما بشأن وكيل الشرطة الإسرائيلي أو الشرطة؟ على الإطلاق، لأن ردّ فعله لا يختلف عن سلوك دورية الطريق السريع في نورث كارولينا، أو هيئة جسر البوابة الذهبية، أو الباحثين في الأدب الذين يتحدّثون بثقة عن العبقرية المحكوم عليها بالفشل لسيلفيا بلاث. هناك شيء ما بخصوص فكرة الاقتران يستعصي علينا -تصوّر أن سلوك الغريب مرتبط على نحوٍ وثيق بمكان أو سياق-. سيفضي بنا هذا إلى سوء فهم بعض أعظم الشعراء إذ إننا لن نُفرّقهم عن الأشخاص الآخرين ذوي الميول الانتحارية، وإلى إرسال عناصر الشرطة في مهمات لا معنى لها. حسناً، ماذا سيحدث عندما يكون للشرطي تصوّر خاطئ بشكل جوهري، ثم تضيف إلى ذلك مشاكل إهمال الحقيقة والشفافية؟ ستصبح لديك حالة شبيهة بحالة ساندرا بلاند.

ذهب أحد تلامذة ويسبارد السابقين، ويدعى باراك آرييل، إلى

حدٌّ بعيد في اختبار مقاومة فكرة الاقتران في منطقة ديري من شما
آيرلندا. لقد طلب إلى المسؤولين عن تطبيق القانون في ديري أ
يحددوا أماكن بعينها، حيث تكثر الجرائم في مناطق دورياتهم ال
يظنون أنهم بحاجة إلى وجود إضافي للشرطة فيها. كان توقعهم
«الشوارع التي فيها علامات طرقية». تساءل آرييل، ما مدى تطا
التخمين لدى عناصر الشرطة بشأن العلامات الطرقية مع الوج
الفعلي للمناطق الساخنة في ديري؟ بإمكانك أن تُخمِّن، استنت
آرييل: «إن غالبية الشوارع التي فيها علامات طرقية لم تكن شوار
'ساخنة' أو 'خطرة' الأمر الذي تسبّب في تقييم خاطئ بنسبة 97 بالمئ
هذا يعني أن 97 بالمئة من التجمعات السكنية التي تم تعيينها من قبل
عناصر الشرطة على أنها خطرة وعنيفة لم تكن كذلك على الإطلاق.
لم يكن عناصر الشرطة الذين أعطوا هذا التخمين من النوع الذي
يجلس وراء المكاتب بعيداً عن الخبرة المباشرة في التعامل مع ما
يحدث في الشارع، بل على العكس كان هذا ميدانهم. لقد حقّقوا في
جرائم واعتقلوا مجرمين، ومع ذلك فإنهم بطريقة ما لم يتمكنوا من
إدراك النمط الأساسي للموقع الجغرافي للغرباء الذين ألقوا القبض
عليهم.

الفصل الثاني عشر

ساندرا بلاند

1

في الساعة 4:27 من عصر يوم العاشر من تموز 2015، أوقف أحد عناصر شرطة تكساس سيارة ساندرا بلاند على الطريق السريع أف أم 1098 في مقاطعة والار، تكساس. كانت تقود سيارة هيونداي فضية اللون ذات لوحات ترخيص تعود لولاية إيلينوي، وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها، وقد أتت لتوّها من بلدتها في شيكاغو لتباشر عملها الجديد في جامعة براري فيو. أمّا الشرطي فكان يُدعى بريان إينسينيا. لقد جعلها تتوقف، ثم اقترب من سيارة بلاند ببطء بمحاذاة الرصيف، ثم أمال نفسه وتحدّث إليها من خلال النافذة المفتوحة.

بريان إينسينيا: مرحباً سيدتي، نحن دورية الطريق السريع في تكساس، وسبب إيقافي لك هو أنك أخفقتِ في الإشارة إلى تغيير مسارك المروري، هل رخصة القيادة والتسجيل بحوزتك؟ ما الخطب؟ كم مضى على وجودك في تكساس؟

ساندرا بلاند: وصلت البارحة.

إينسينيا: حسناً، هل لديك رخصة القيادة؟ إلى أين كنتِ تتجهين

الآن؟ امنحيني بضع دقائق.

يأخذ إينسينيا الرخصة معه إلى سيارة الدورية، وتمضي بضع دقائق. ثم يعود، يقترب هذه المرة من سيارة بلاند من جهة السائق.

إينسينيا: هل أنتِ بخير سيدتي؟

بلاند: أنا أنتظرك، هذا عملك، متى ستدعني أمضي في طريقي؟

إينسينيا: لا أدري، تبدين غاضبة بحق.

بلاند: أنا كذلك حقاً، أشعر أنه من الحماقة أن أتلقى مخالفة لهذا السبب. كنت أفسح لك المجال، وأنت تزيد سرعتك وتتعقبني، لذا التفتت ثم أوقفتني. لذا أجل، أنا غاضبة قليلاً، ولكن هذا لا يمنعك من أن تعطيني مخالفة.

في العديد من التحليلات اللاحقة لقضية بلاند، اعتبرت غلطة إينسينيا بمثابة الغلطة الأولى، تراكم غضب بلاند بثبات، كان بإمكانه أن يحاول تبديد غضبها. مما تبيّن لاحقاً خلال التحقيق أن إينسينيا لم يكن ينوي أبداً أن يعطيها مخالفة، فقط إنذاراً، كان بإمكانه أن يخبرها بذلك، لكنه لم يفعل، لو شرح لها بحذر لماذا كان عليها أن تعطي إشارة لتغيير المسار، لو مازحها قليلاً وابتسم وقال «سيدتي، أنتِ لا تعتقدين أني سأوجه لك مخالفة لهذا السبب، أليس كذلك؟» سيكون لديها شيء لتقوله وسيؤكد أنه يستمع إليها، لكن بدلاً من ذلك انتظر لفترة طويلة على نحوٍ غير مريح.

إينسينيا: هل قلتِ ما لديك؟

كانت هذه أول فرصة ضائعة، ثم أتت فرصة أخرى.

بلاند: لقد سألتني ما الخطب، وأخبرتك.

إينسينيا: حسناً.

بلاند: حسناً، لقد قلت ما لديّ.

لقد قالت ما لديها، وعبّرت عن غضبها، ثم أخذت سيجارة وأشعلتها. إنها تحاول أن تضبط أعصابها. لا يمكننا أن نرى في الفيديو أيّاً من هذا، لأن الكاميرا مُثبّتة على لوحة التابلو في سيارة إينسينيا، يمكننا فقط أن نرى الجهة الخلفية من سيارتها وإينسينيا وهو يقف بجوار باب سيارتها، لو رأى مئة شخص التسجيل لخمّن 99 منهم أن ذلك هو نهاية ما سيحدث، ولكنه لم ينتهِ هنا.

إينسينيا: هل تمانعين أن تُطفئي سيجارتك رجاء؟

إنه جامد، وحازم، لقد قال عبارته بحدّة. هذا هو الخطأ الثاني، كان عليه أن يتوقف، ويدع بلاند تتمالك نفسها.

بلاند: أنا في سيارتي، لماذا عليّ أن أطفئ سيجارتي؟

إنها على حق بالطبع، ليس لرجل الشرطة أية صلاحية في أن ينهي أحدهم عن التدخين. كان بإمكانه أن يقول: «نعم أنتِ على حق، لكن أتمانعين أن تنتظري حتى ننتهي من هذا؟ لستُ من الأشخاص الذين يحبون تدخين السجائر». حتى إنه كان يستطيع التغاضي عن الأمر برمته، إنها مجرّد سيجارة. ولكنه لم يفعل ذلك، هناك شيء ما في نبرتها أغاظه. لقد تمّ تحدي سلطته فقام بشيء مفاجئ. هذا هو الخطأ الثالث.

إينسينيا: حسناً، اخرجي من سيارتك الآن.

بلاند: ليس عليّ أن أخرج من سيارتي.

إينسينيا: اخرجي من السيارة.

بلاند: لماذا عليّ...

إينسينيا: اخرجي من السيارة.

بلاند: لا، ليس لديك الحق في أن تفعل ذلك.

إينسينيا: بلى لديّ الحق في ذلك، والآن اخرجي من السيارة أ.ا سأخرجك بالقوة.

بلاند: أنا أرفض الحديث إليك باستثناء أن أعرف عن نفسي (كلام جانبي) سيتم إخراجي بالقوة لعدم قيامي بإعطاء إشارة إلى تغيير المسار؟

إينسينيا: اخرجي وإلا أخرجتك بالقوة، أنا الآن أُعطيكِ أمرا قانونياً.

في نشرات الإنترنت التي تردّد عليها عناصر الشرطة بعد انتشار القضية، تم دعم سلوك إينسينيا من قبل بعضهم، ولكن صُعِق كثيرون بالتطور الأخير الذي حدث:

يا رجل! حرر المخالفة اللعينة، ودعها تمضي في طريقها. إن الأمر لا يستحق، هل نقوم بإخراج النساء من السيارات بالقوّة لأن كبرياءنا قد جُرِح ولأنها لم ترتجف ولم تُطفئ السيجارة الغبية؟ فلنضع هذا التساؤل، على فرض أنها خرجت من السيارة عندما طلب إليها ذلك، ثمّ ماذا؟ هل سيوبخها بشأن السيجارة؟ ما الذي كنت تخطط له؟ ما الغاية من إخراجها من السيارة؟

لكن إينسينيا أعطاها أمراً قانونياً وتحدته.

إينسينيا: اخرجي من السيارة أو سأخرجك بالقوّة.

بلاند: سأطلب المحامي.

إينسينيا: سأسحبك إلى خارج السيارة. (ويقحم نفسه داخل السيارة.)

بلاند: هل ستقوم بسحبي إلى خارج سيارتي؟ حسناً إذن

ينحني إينسينيا وذراعاه داخل سيارة بلاند وهو يشدّها.

بلاند: حسناً فلنقم بهذا.

إينسينيا: أجل، سنقوم بهذا. (يمسك ببلاند)

في فيديو التسجيل هناك صوت صفعة ثمّ بكاء بلاند، كما لو أنها ضُربت.

بلاند: لا تلمسني!

إينسينيا: اخرجي من السيارة!

بلاند: لا تلمسني، أنا لست رهن الاعتقال، ليس لديك الحق في إخراجي من السيارة

إينسينيا: أنتِ رهن الاعتقال!

بلاند: أنا رهن الاعتقال؟ لأجل ماذا؟

إينسينيا: [يطلب الإرسال] 2547 كاونتري أف أم 1098. [غير مسموع] أرسلوا إليّ وحدة أخرى. [مخاطباً بلاند] ترجّلي من السيارة! ترجّلي من السيارة الآن.

بلاند: لماذا تقبض عليّ؟ أنت تحاول أنت تعطيني مخالفة لعدم....

إينسينيا: قلت اخرجي من السيارة الآن!

بلاند: لماذا تقبض عليّ؟ أنت لتوك فتحت باب سيارتي...

إينسينيا: أنا أعطيك أمراً قانونياً. سأجرّك خارج السيارة.

بلاند: حسناً أنت تهدد بجرّي إلى خارج سيارتي؟

إينسينيا: اخرجي من السيارة!

بلاند: ثمّ ستقوم (كلام جانبي) باعتقالي؟

إينسينيا: سأصعقك بالمسدس! اخرجي الآن!(يُشهر المسدس الصاعق ويصوّبه نحو بلاند.)

بلاند: يا إلهي(تخرج بلاند من السيارة)

إينسينيا: اخرجي من السيارة!

بلاند: ما سبب كل هذا؟ أنت تقوم بكل هذا فقط لأنني لم أعط إشارة؟

إينسينيا: تعالي إلى هنا.

بلاند: حسناً، فلننقل الأمر إلى المحكمة، لنقم بهذا.

إينسينيا: تقدّمي إلى الأمام.

تستمر المواجهة لبضع دقائق إضافية، وتصبح بلاند مُضطربة أكثر، يكبّلها إينسينيا بالأصفاد.

تصل الوحدة الثانية إلى المكان، ويستمر النزاع والصراخ.

إينسينيا: توقفي الآن! توقفي عن المقاومة.

الشرطية الثانية: توقفي عن المقاومة سيدتي.

بلاند: (وهي تبكي) كل هذا من أجل مخالفة مرور لعينة، يا لك من جبان.

الشرطية: لا، أنتِ الجبانة، كان عليك ألّا تقاومي الشرطة.

إينسينيا: انبطحي أرضاً.

بلاند: من أجل مخالفة مرورية!

إينسينيا: أنتِ تجعلين الأمور صعبة، عندما تبتعدين عني وتسحبين نفسك بعيداً فأنتِ تقاومين الاعتقال.

بلاند: هل يجعلك هذا مسروراً؟ اعتقال أنثى من أجل مخالفة مرورية، حضرة الشرطي إينسينيا؟ أنت رجل حقيقي الآن، لقد صفعتني للتو، وضربت رأسي بالأرض، أنا مُصابة بالصرع أيّها الوغد.

إينسينيا: جيّد، هذا جيد.

بلاند: هذا جيد؟

أُودعت بلاند السجن بسبب اتهامات بالاعتداء الجنائي. بعد ثلاثة أيام عُثِر عليها ميتة في زنزانتها، شنقت نفسها بعقدةٍ مصنوعة من كيس من النايلون. طُرِد إينسينيا من العمل بعد تحقيقٍ قصير بناء على انتهاكه للفصل الخامس من الباب 05.17.00 من الدليل العام لشرطة ولاية تكساس:

على الموظف في قسم السلامة العامة أن يكون مُهذّباً مع الناس ومع الموظفين الآخرين، ويجب أن يكون لبقاً في أثناء تأديته لمهامه، وعليه أن يضبط سلوكه ويتحلّى بالصبر والتعقّل إلى أقصى حد ممكن. على الموظف ألّا ينخرط في نقاشات جدلية حتّى لو واجه استفزازاً كبيراً.

كان بريان إينسينيا مُتنمّراً أصم. إن الدرس مما حدث عصر العاشر من تموز 2015، هو أنه عندما يتحدّث عناصر الشرطة إلى الغرباء، فعليهم أن يكونوا مُحترمين ومُهذبين، انتهت القضية، أليس كذلك؟

لا لم تنتهِ. أظن أنه عند هذه النقطة، يُمكننا أن نبلي بشكلٍ أفضل من ذلك.

2

إن الإيقاف المروري الذي تتّبعه شرطة كنساس بمثابة بحثٍ عن إبرة في كومة قش. يستعين الشرطي بمخالفة عادية ليبحث عن شيء نادر، الأسلحة والمخدرات. منذ البداية، وعندما بدأت الأفكار التي تم العمل عليها في كنساس بالانتشار حول العالم، كان واضحاً أن هذا النوع من عمل الشرطة يتطلّب عقلية جديدة.

إن الشخص الذي يفتش حقيبة يدك في المطار على سبيل المثال، هو أيضاً يبحث في كومة قش. ومن حين إلى آخر، تنفذ إدارة أمن النقل عمليات تدقيق في مطاراتٍ مُختلفة. إنهم يدسّون مُسدّساً أو قنبلة مزيفة في إحدى الحقائب. ثم ماذا يحدث؟ في 95 بالمئة من الحالات، لا يتم اكتشاف المسدسات أو القنابل؛ ليس لأن القائمين على فحص الحقائب كُسالى وغير أكفياء، ولكن لأن البحث في كومة قش يمثّل تحدياً مُباشراً للميل البشري نحو إهمال الحقيقة. ترى مفتشة الحقائب في المطار شيئاً، وربّما يبدو مُريباً قليلاً. ولكنها تنظر إلى طابور المسافرين ذوي الوجوه العادية وهم ينتظرون بفارغ الصبر، ثمّ تتذكر أنه مرّ عليها في هذه الوظيفة عامان ولم تعثر على مسدس حقيقي. إنها تعلم في الواقع أن إدارة أمن النقل تفتّش 1.7 مليار حقيبة ذات عجلات سنوياً، ومن أصل هذا العدد تعثر فقط على بضعة آلاف من الأسلحة النارية، وهذا يعادل ما نسبته 0.0001

بالمئة، وهذا يعني أنها لو بقيت في عملها لخمسين سنة أُخرى فلن تجد مُسدساً أبداً، لذا فإنها ترى شيئاً مُريباً مدسوساً من قبل مُدقّقي إدارة الأمن، ولكنها تهمله.

بالنسبة إلى حالات الإيقاف المروري لدى شرطة تكساس، لا يستطيع عنصر الشرطة أن يفكّر بتلك الطريقة. عليه أن يتوقع أسوأ الاحتمالات من كل سيارة يوقفها، وأن يتوقّف عن إهمال الحقيقة. عليه أن يفكر مثل هاري ماركوبولوس.

من أهم الكتب في مهنة حفظ الأمن في مدينة كنساس هو(تكتيكات الدورية الجنائية)، تأليف تشارلز ريمسبيرغ. لقد صدر في عام 1995، وهو يعرض بالتفصيل الدقيق ما المطلوب من شرطي الدورية الجديد واليقظ. بحسب ريمسبيرغ، على الشرطي أن يأخذ زمام المبادرة ويذهب إلى ما هو أبعد من مجرد المخالفة المرورية. هذا يعني أنه في البداية يجب الانتباه إلى جميع الأمور المثيرة للفضول، إن الأشياء الخارجة عن المألوف تثير احتمال وجود عملية إجرامية مُحتملة. سائق المركبة في حيٍ سيئ، والذي يقف عند الإشارة الحمراء وينظر بانتباه إلى شيءٍ ما على المقعد بجواره. ماذا بشأن ذلك؟ الشرطي الذي ينتبه إلى قطعة صغيرة من ورق التغليف وهي بارزة بين لوحين في سيارة نظيفة للغاية، قد يكون ذلك الطرف الرخو لطردٍ مُخبّأ؟ في القضية السيئة الصيت في نورث كارولينا، عندما أوقف شرطيّ سائقاً بسبب ضوء فرامل مُعطّل، ظناً منه أن ذلك يخالف القانون في نورث كارولينا، إن الشيء الذي أثار ارتيابه هو أن السائق كان «صارماً ومتوتراً».

يحرص أذكى المجرمين على ألّا يرتكبوا أية مخالفة وا...
لذا يكون لزاماً على شرطي المرور أن يكون خلّاقاً بشأن ما ...
عنه. زجاج أمامي مُتشقّق، تغيير مسارات السير من دون إعطاء إشا...
السير بشكل قريب جداً من السيارات الأخرى.

يصف ريمسبيرغ: «أحد عناصر الشرطة الذين كانوا على ... بأن أشهر أسواق المُخدرات في مدينته هي في الممرات والشوا... ذات النهايات المسدودة، يركن الشرطي سيارته هناك وينتظر، وغا... ما يقترب السائقون قبل أن يروا سيارة الدورية، ثمّ يتوقفون ف... توقفاً مخالفاً في الطريق أو يعودون أدراجهم بتعجلّ رجوع مُخال... في الطريق. يقول الشرطي 'هناك مخالفتان حتى قبل أن أسعى خل... السيارة'».

عندما يقترب من السيارة التي تم إيقافها، على الشرطي الجدي... أن يكون مُتيقظاً لأصغر الدلائل. يستخدم مُهرّبو المخدرات عاد... معطر جو – بالأخص النوع ذا شكل شجرة التنوب الصغيرة – وذلك لتغطية رائحة المخدرات. يُعرف معطر الجو الذي على شكل شجرة باسم «غابة الجريمة». إذا كانت هناك بقايا وجبة طعام سريع في السيارة، فقد يشير هذا إلى أن السائق في عجلة من أمره ومتردد في أن يترك مركبته وبضاعته الثمينة من دون مراقبة. إذا كانت المخدرات أو الأسلحة مُخبّأة في مقصورات سريّة، فستكون هناك معدات في المقعد الخلفي. إلى ماذا يشير عدّاد الأميال في السيارة؟ هل ركبت إطارات جديدة لسيارة قديمة؟ هناك مجموعة من المفاتيح في مُشغّل السيارة؟ مما قد يكون أمراً عادياً، أم فقط مفتاح واحد كما لو أن

السيارة مُعدّة للسائق فحسب؟ هل هناك كثير من الأمتعة فيما يبدو أنها رحلة قصيرة؟ أم أمتعة قليلة للغاية بالنسبة إلى رحلة طويلة للسائق؟ يتم إعطاء تعليمات للشرطي أنه في الإيقاف المروري بغرض التحقيق عليه أن يسترسل في الكلام لأطول وقت ممكن. من أين أنت؟ إلى أين تتجه؟ شيكاغو؟ هل عائلتك هناك؟ أين تقطن؟ إنه يبحث عن زّلات لسان، توتّر، إجابات غير مُقنعة، إذا كانت إجابات السائق تتطابق مع ما يراه الشرطي. يُفكّر الشرطي ملياً قبل أن يقرر اتّخاذ الخطوة التالية وتفتيش السيارة.

يجب أن نضع في الاعتبار أن الأغلبية الساحقة من الناس الذين يضعون طعاماً في سيّاراتهم ومعطّر جو، ويشير عداد الأميال إلى أنهم قطعوا مسافة طويلة، ويضعون إطارات جديدة لسيارة قديمة، والذين يحملون كثيراً أو قليلاً من الأمتعة لا يهرّبون المخدرات والأسلحة، ولكن إذا كان الشرطي بصدد إيجاد الإبرة المجرمة في كومة القش، فعليه أن يُنحي الاعتبارات العقلانية جانباً التي تجعل الكثيرين منا يرون العالم على أنه مكان نزيه للغاية.

حسناً، من هو بريان إينسينيا؟ إنه عنصر شرطة لا يهمل الحقيقة. وإليكم هنا يوم من مهنة بريان إينسينيا، تم اختياره عشوائياً: الحادي عشر من شهر سبتمبر، 2014.

3:52 بعد الظهر، في بداية نوبته. أوقف سائق شاحنة، وأعطاه مخالفة لعدم وجود الشريط العاكس المطابق للمواصفات على العربة المقطورة.

4:20 بعد الظهر، أوقف امرأة لأن اللوحات المعدنية مُثبّتة على نحو

غير ملائم.

4:39 بعد الظهر، يلاحظ سائقاً وقد انتهت صلاحية رخصته، يوقف
ثم يحوّله إلى المحكمة بسبب رخصة منتهية الصلاحية أيضا

5:12 بعد الظهر، يوقف امرأة بسبب مخالفة تجاوز ثانوي للسر
وهي أقل من 10 بالمئة من السرعة المسموح بها.

5:58 بعد الظهر، يوقف أحدهم بسبب مخالفة تجاوز رئيسي للسرعة

6:14 بعد الظهر، يوقف رجلاً بسبب تسجيل منتهي الصلاحية، ثم
يعطيه ثلاث مخالفات أخرى
بسبب مخالفة الرخصة ولوجود عبوة كحول مفتوحة في مركبته.

8:29 مساءً، يوقف رجلاً «لعدم وجود/ غير مطابق مصباح تحديد الجوانب» و«عدم وجود/ غير مطابق مصباح تحديد حيّز التحميل».

وتستمر القائمة، بعد عشر دقائق، يوقف امرأة لأنها لا تشغل المصباح الأمامي، ثمّ يحرر مخالفتَي تجاوز ثانوي للسرعة خلال ثلاثين دقيقة. في العاشرة مساءً، يوقف أحدهم بسبب «سلاسل السلامة»، ثم في نهاية نوبته يوقف آخر بسبب عدم تشغيل المصابيح الأمامية.

في هذه القائمة هناك مخالفة واضحة فقط وهي الإيقاف بسبب تجاوز السرعة لأكثر من 10 بالمئة فوق الحد المسموح به. إن أي شرطي سيستجيب لذلك. ولكن تندرج العديد من الأشياء التي قام بها إينسينيا في فئة الدورية الوقائية الحديثة. عندما توقِف سائقَ شاحنة بسبب شريط عاكس غير مطابق للمواصفات، وتوقف سائقاً آخر بسبب «عدم وجود/ غير مطابق مصباح تحديد حيّز التحميل» فأنت

تسعى خلف شيءٍ آخر. وفقاً لريمسبيرغ: «عندما تبحث شعورياً، تذهب إلى ما هو أبعد من المخالفة».

إن إحدى النصائح الرئيسة المُعطاة لعناصر الدورية الوقائية لكي يحموا أنفسهم من الاتهامات بالتصنيف المتحيّز أو العنصري هي أن يكونوا حريصين عند إيقافهم أي شخص. إذا كنت ستستخدم أسباباً تافهة ومُختلقة لإيقاف أحدهم، فعليك أن تتصرف وفقاً لهذه الطريقة طوال الوقت. يتابع ريمسبيرغ: «إذا كنت مُتهماً بالتوقيف التنميطي أو الذرائعي، بإمكانك أن تجلب سجلك اليومي إلى المحكمة، وتوثق أن إيقاف السائقين لأسباب «مُتشدّدة» هو جزء من نمطك الاعتيادي، وليس استثناء واضحاً مما يثير الشبهة بسهولة في قضية المُدّعى عليه».

هذا بالضبط ما كان يفعله إينسينيا؟ يقوم بذلك يوماً إثر آخر مثل الحادي عشر من سبتمبر 2014. كان يتعقّب الناس لأجل رفراف غير مطابق للمواصفات أو لعدم وضع حزام الأمان أو لتخطيّ مسارات السير أو لمخالفات لقوانين بشأن مصابيح المركبات. إنه يظهر هنا وهناك بسيارته مثل لعبة اضرب الخلد. في غضون أقل من عام حرّر ما يزيد على 1557 مخالفة. قبل ست وعشرين دقيقة من إيقافه ساندرا بلاند، كان قد أوقف ثلاثة أشخاص آخرين.

حسناً: لمح إينسينيا ساندرا بلاند عصر يوم العاشر من يوليو، بحسب الإفادة التي قدّمها في أثناء التحقيق اللاحق الذي أجراه مكتب المفتش العام في قسم السلامة العامة في تكساس، قال إينسينيا إنه رأى بلاند تتجاوز إشارة وقوف وهي تخرج من جامعة برايري فيو. كان ذاك أول شيء أثار فضوله. لم يتمكن من إيقافها في تلك المرحلة

لأن إشارة الوقوف ضمن ملكية الجامعة. ولكنها عندما انعطفت إلى مستديرة طريق الولاية 1098 لحق بها. لقد انتبه إلى لوحات تسجيل إلينوي، وهذا هو الشيء الثاني الذي أثار فضوله، ماذا يفعل أحدٌ قادم من الطرف الآخر للبلاد في شرق تكساس؟

أدلى إينسينيا بشهادته: «كنت أتفقد حالة المركبة، مثل الطراز والموديل، وإذا ما كانت فيها لوحات تسجيل وأية أمور أخرى». لقد كان يبحث عن عذرٍ ليوقفها. سأله المُحقّق كليف رينفو: «هل تلاحق المركبات بتلك السرعة دائماً لتتحقّق من حالتها؟». أجابه إينسينيا: «أجل سيدي»، بالنسبة إلى إينسينيا فإنه إجراء اعتيادي.

عندما رأت بلاند إينسينيا في مرآة الرؤية الخلفية وهو قادم بسرعة خلفها، ابتعدت عن طريقه لتدعه يمر، لكنها لم تستعمل إشارة تغيير المسار. والآن أصبحت لإينسينيا الذريعة اللازمة: الباب 7، الباب الفرعي ت، القسم 545.104، البند أ من قانون المرور في ولاية تكساس، الذي ينص على «يجب على مُشغّل المركبة أن يستعمل الإشارة المنصوص عليها في القسم 545.106 ليوضح نيّته الالتفاف أو تغيير المسار، أو الانطلاق من مكان الوقوف». في تلك الحالة فقد استعملت بلاند إشارة تغيير المسار في اللحظة الأخيرة، قبل أن تُغيّر مسارها بالضبط، كانت لدى إينسينيا خطّة بديلة حتّى: البند ب من القسم 545.104 الذي ينص على ما يلي: «على سائق المركبة الذي ينوي الالتفاف بمركبته يميناً أو يساراً أن يُشغل ضوء الإشارة باستمرار لمسافة مئة قدم على الأقل من حركة المركبة قبل الالتفاف».

كان بإمكانه أن يوقفها لعدم استخدام ضوء الإشارة أو لعدم الإضاءة

لمسافة كافية.[1]

خرج إينسينيا من سيارة الدورية، وسار ببطءٍ نحو سيارة بلاند من جهة مقعد الراكب، وانحنى إلى الداخل قليلاً ليرى إذا ما كان هناك أي شيء مثير للاهتمام في السيارة. إنه يقوم بتحقق مرئي: هل هناك فوضى في السيارة؟ ورق تغليف لطعام سريع على الأرضية؟ أدوات في المقعد الخلفي؟ مفتاح وحيد في مأخذ التشغيل؟ لقد قادت بلاند سيارتها من شيكاغو إلى تكساس، بالطبع ستكون هناك بقايا ورق تغليف لطعام سريع على الأرضية، في المسار الطبيعي للأمور إذا نظر أكثرنا من تلك النافذة فسنضع شكوكنا جانباً. ولكن بريان إينسينيا عنصر شرطة من الجيل الجديد. وقد قرّرنا أننا في الواقع نريد من قادتنا والأشخاص القائمين على حمايتنا أن يتقصّوا شكوكهم لا أن ينحوها جانباً. انحنى إينسينيا إلى النافذة، وأخبرها عن سبب جعلِها تتوقف، وعلى الفور ازداد ارتيابه.

3

رينفرو: حسناً، بعد أن سأل•ت بلاند عن رخصة القيادة، ثم سألتها إلى أين كانت مُتجهة وأجابتك، «ذلك لا يهم»، كتبت في

(1) لذلك كانت بلاند غاضبة جداً. عندما قالت: «أشعر أنه من الحماقة أن أتلقى مخالفة لهذا السبب. كنت أفسح لك المجال وأنت تزيد سرعتك وتتعقبني، لذا التففت ثم أوقفتني». بما معناه: إن سيارة الشرطة أتت مسرعة خلفها، لقد أفسحت له الطريق كما هو مُفترض من السائق أن يفعل، والآن الشرطي نفسه الذي أجبرها على تغيير مسارها يعطيها مخالفة لعدم الالتزام بالقوانين في أثناء تغيير المسار. لقد تسبب إينسينيا بهذه المخالفة.

تقريرك، «عَلِمت في هذه المرحلة بناء على سلوكها أن هناك خطبا ما».

يتم استجواب إينسينيا الآن من قبل مُحقق الولاية كليف رينفرو.

رينفرو: أوضح لأجل التسجيل ما الذي جعلك تعتقد أن هناك خطباً ما.

إينسينيا: لغة الجسد العدائية والسلوك. بدت وكأنها ليست على ما يرام.

اعتقد بريان إينسينيا بـ «الوضوح»؛ أي إن سلوك الناس هو دليل موثوق على مشاعرهم وشخصياتهم. إن هذا شيء نعلمه لبعضنا بعضاً، وبدقّة أكبر، هذا شيء نعلمه لعناصر الشرطة. على سبيل المثال، يُدعى أكثر برنامج تدريب مؤثر على مستوى العالم لتطبيق القانون بتقنية ريد. إنه يُستخدم في ثلثي مراكز الشرطة تقريباً في الولايات المتحدة، من دون أن نذكر مكتب التحقيقات الفيدرالي والعديد من وكالات تطبيق القانون حول العالم. يرتكز برنامج ريد بشكلٍ مباشر على فكرة الوضوح: يقوم بتدريب عناصر الشرطة عند التعامل مع أشخاص لا يعرفونهم على استخدام السلوك دليلاً للحكم على البراءة أو الذنب.

على سبيل المثال، إليكم ما يقوله دليل تدريب بشأن التواصل البصري:

في الثقافة الغربية، تُمثل النظرات المتبادلة المحافِظة على اتصال بصري الانفتاح والصراحة والثقة. عادةً ما يتجنب المشتبه بهم المخادعون النظر مباشرة إلى المُحقق، إنهم ينظرون إلى الأرض أو

إلى الجانب أو إلى السقف كما لو أنهم يتضرّعون لبعض التوجيه الإلهي عند الإجابة عن الأسئلة.

في حين أن المشتبه بهم الصادقون ليسوا دفاعيين في نظراتهم أو أفعالهم ويمكنهم أن يحافظوا على تواصل بصري بسهولة مع المُحقق.

يوجّه الدليل المهني لشرطة كنساس (تكتيكات الدورية الجنائية) عناصر الشرطة عند الشروع بتوقيف مروري إلى إجراء «استجواب خفي» بناء على ما يستطيعون ملاحظته من معاينتهم الأولية للمشتبه به.

في الوقت الذي تحلّل فيه بصمت ما يقولونه، وسلوكياتهم، ولغتهم الجسدية بحثاً عن أية إشارات تضليل، أنت تحاول أن تقنعهم أن الارتياب بعيد تماماً عن ذهنك، وكلّما استطعتَ تأخير توصّلِهم إلى حقيقة أنك في الواقع تقيّم شخصياتِهم وسيّارتهم وسبب تنقّلهم، ازداد احتمال أن يقدّموا لك من دون قصد دليل الإدانة.

حسناً، هذا ما فعله إينسينيا بالضبط. لقد لاحظ أنها تدوس بقدميها، وتحرّكهما جيئةً وذهاباً، لذا شرع في إطالة فترة تواصلهما. سألها منذ متى كانت في تكساس، وأجابت: «وصلت البارحة». ظهر إحساس عدم الارتياح لديه، لديها لوحات تسجيل تعود إلى إيلينوي، إذن ما الذي تفعله هنا في تكساس؟

رينفرو: هل كانت لديك مخاوف بشأن السلامة في تلك الأثناء؟

إينسينيا: عَلِمتُ أن هناك خطباً ما، ولكن لم أعلم ما هو. لم أعرف إن كان سيتم ارتكاب جريمة، أو تم ارتكاب جريمة، أو ما

شابه ذلك.

عاد إلى سيارة الدورية ليتحقّق من رخصتها والتسجيل، وعندما نظـر إلـى بلانـد وراقبها من خلال النافذة الخلفية لسـيارتها، يقول إنه رآهـا «تقـوم بالعديد من الحركات المخفية والمريبة فقد كانت تتعمد أن تكـون بعيـدة عـن نظره لبعـض الوقت». كانت هذه مرحلة حرجة، وهي تُفسّـر ماهية الحقائق المُحيّرة في الفيديو. لماذا اقترب إينسـينيا من سيارة بلاند من جهة مقعد الراكب في المرة الأولى، ثمّ من جهة السائق في المرة الثانية؟ لأنه أصبح قلقاً، بحسب ما كتب في تقريره «لقـد علّمنـي تدريـب سـلامة عنصر الشـرطة أنه من السـهولة بمكان للمعتدي أن يطلق النار عليّ من جهة الراكب في المركبة».

رينفرو: حسناً، أوضح لأجل التسجيل لماذا انتقلت من «توقيف روتينـي مـروري مـع شـخص متوتّـر لم يكـن برأيك متعاونـاً أو كان مرتبكاً»، إلى التفكير في أن هناك احتمال الحاجة إلى القيام باقتراب مـن جهـة السـائق الـذي يعود إلى تدريب تقليـل خطر تعرّض عناصر الشرطة لإطلاق النار.

إينسينيا: حسناً، لأنني عندما كنت في سيارة الدورية، رأيت كثيراً من الحركات جهة اليمين من لوحة التابلو، الجهة اليمنى من جسدها، كانت تلك الجهة أيضاً مخفية عن النظر. كانت أول فكرة خطرت لي هل تبحث عن سلاح؟ لذا اقترب الآن بحذر.

إينسينيا: لم يكن زجاج سيارتها مظللاً، لذا كنت قادراً على رؤية إن كانت تحمل شيئاً، إذا تحتّم عليها أن تلفّ كتفها أم لا. لذا اخترت ذاك المسار.

بالنسبة إلى تفكير إينسينيا، فإن سلوك بلاند يتطابق مع تصنيف ما يُحتمل أنه مجرم خطر. إنها مرتبكة وعصبية ومستاءة، وتنحو نحو المجابهة وهي أيضاً غير مستقرة. لقد اعتقد أنها تُخفي شيئاً ما.

في أفضل الأحوال فإن هذا تفكير خاطئ على نحوٍ خطير. ليست الكائنات البشرية واضحة، ولكن متى يكون هذا النمط من التفكير أكثر خطورة؟ عندما يكون الناس الذين نعاينهم غير مُطابقين: عندما لا يتصرفون على النحو الذين نتوقعه منهم. كانت أماندا نوكس غير مُطابقة، عندما كانت ترتدي جواربها الواقية في مسرح الجريمة أدارت وركيها وقالت: «ها أنذا هنا». كذلك الأمر بالنسبة إلى بيرني مادوف، كان مُختلاً اجتماعياً في زي رجل من كهنة المينش.

ولكن كيف بدت ساندرا بلاند؟ هي الأخرى لم تبدُ مُطابقة، لقد بدت من وجهة نظر إينسينيا مُجرمة، ولكنها لم تكن كذلك، إنها مُستاءة فحسب. بعد موتها، تبين أن لديها عشر مناوشات سابقة مع الشرطة في مسار حياتها الراشدة، بما فيها خمسة إيقافات مرورية، وقد دفعت غرامات بقيمة ثمانية آلاف دولار تقريباً. لقد حاولت الانتحار في السنة التي سبقت ذلك بعد أن خسرت طفلها، وكان لديها كثير من علامات القطع على ذراعيها. في أحد تسجيلات الفيديو الأسبوعية لها في قناة «سادني تتكلم» على موقع يوتيوب، قبل بضعة أشهر فحسب من ذهابها إلى تكساس، ألمحت بلاند إلى مشاكلها:

أقدم لكم اعتذاري، أنا آسفة يا حضرة الملوك والملكات. لقد مرّ أسبوعان وكنت غائبة، ولكن عليّ أن أكون صادقة معكم، أنا أعاني من أمرٍ ربما يعاني منه بعضكم، إنه القليل من الاكتئاب واضطراب

ما بعد الصدمة. كُنت منهكة للغاية في الأسابيع الأخيرة المنصرمة.

حسناً، هنا لدينا امرأة ذات وضعٍ مُتأزم مع سوابق في المشاكل الصحية والنفسية، وهي تحاول أن تلملم حياتها، لقد انتقلت إلى مدينة جديدة، وشرعت في عملٍ جديد، وصلت لتوها لتبدأ فصلا جديداً في حياتها، إلا أن شرطي المرور أوقفها ليتكرّر السيناريو نفسه الذي تسبّب بإثقالها بالديون، ولأجل ماذا؟ لأنها لم تعطِ إشارة تغيير المسار عندما سارت سيارة شرطة بسرعة خلفها، وبصورة مفاجئة، أصبحت بدايتها الجديدة الهشّة محل شك. في الأيام الثلاثة التي أمضتها في السجن قبل أن تُقدِم على الانتحار، كانت ساندرا بلاند مُضطربة للغاية، ولم تتوقف عن البكاء، وأجرت اتصالات الواحد تلو الآخر، لقد مرّت بوقتٍ عسير للغاية.

لكن مع كل الثقة الزائفة التي يمنحنا إياها التسليم بمبدأ الوضوح، فقد فسّر إينسينيا انفعالها وغضبها على أنه شيءٌ شرير.

يتساءل رينفرو بشأن تلك اللحظة الحرجة، عندما طلب إينسينيا إلى بلاند أن تُطفئ سيجارتها. لماذا لم يقل: «عذراً إن رماد سيجارتك يلطخ ثيابي»؟.

إينسينيا: كنت أريد التأكد من أنها سترميها من دون أن تستقصدني بها أو أنها ستضعها من يدها فحسب.

بعد ذلك سأل رينفرو إذا كان الأمر كذلك، لماذا لم يخبرها في الحال عن سبب اعتقالها.

إينسينيا: لأنني أردت أن أحمي نفسي وأخضعها للمراقبة.

إنه خائف منها، وأن تكون خائفاً من غريب بريء يمسك سيجارة

بيده هو الثمن الذي تدفعه لعدم إهمالك الحقيقة. إنه السبّب الذي جعل هاري ماركوبولوس يختبئ في منزله وهو مُسلّح، مُنتظراً أن تأتي هيئة الأوراق المالية وعمليات البورصة لتقتحم المكان.

رينفرو: لم يسبق لي أن طرحت عليك هذا السؤال ولكنني سأسألك الآن، عندما قالت لك: «حسناً فلنقم بهذا»، وأجبتها «أجل سنقوم بهذا»، ماذا كنت تقصد؟

إينسينيا: يمكنني القول من انحنائها ووضع يديها باتجاهي، حتى لو لم أكن عنصر شرطة فعندما أرى أحداً ما يكوّر قبضتيه، فذلك يعني أن الأمر سيقود إلى صدام أو سيسبب الأذى لي أو للطرف الآخر.

رينفرو: هل هناك سبب منعك من الإيقاع بها فحسب؟

إينسينيا: أجل سيدي.

رينفرو: ما هو؟

إينسينيا: لقد هجمت عليّ مرة، لم يكن هناك أي سبب يمنعها من الهجوم مرّة أخرى، مِمّا قد يتسبّب بالأذى لي.

ينضم مُحقّق آخر.

لويس سانشيز: هل كنت خائفاً؟

إينسينيا: لقد تعرّضت سلامتي للخطر أكثر من مرّة.

سانشيز: لا أريد أن ألقّنك الكلام، ولكن بعد أن حدث هذا، كم مضى عليك من الوقت وقلبك يتسارع والأدرينالين يسري في عروقك؟ متى استعدت هدوءك بعد هذا؟

إينسينيا: ربّما عندما كنت في طريقي إلى المنزل، وكان ذلك بعد عدة ساعات.

كان من السهل في تحليل حادثة بلاند أن يوصف إينسينيا بأنه شرطي من دون أدنى تعاطف. ولكن هذا الوصف يجافي الحقيقة. فالشخص الذي لا يتعاطف لن يكون مبالياً بمشاعر الآخرين. لم يكن إينسينيا غير مكترث بمشاعر بلاند، فعندما اقترب من سيارتها كان أول ما سألها إياه «ما الخطب؟». عندما عاد إلى سيارته ليتحقّق من رخصتها سألها مرةً أُخرى: «هل أنتِ بخير؟». لقد أحسّ بانزعاجها على الفور، إلّا أنه أساء تأويل مدلول مشاعرها تماماً. فأصبح مُقتنعاً بأنه ينزلق إلى مواجهة مروّعة مع امرأة خطرة.

حسناً، كيف يوجّه كتاب (تكتيكات الدورية الجنائية) تصرّفَ عنصر الشرطة في ظل هذه الظروف؟ «يبدو أن كثيراً من عناصر الشرطة خائفون من تأكيد سيطرتهم، ومتردّدون بشأن إخبار أي شخص بما يجب عليه أن يفعل، من المسموح للناس أن يتحركوا ويقفوا أينما أرادوا، ثُمّ يحاول عناصر الشرطة أن يتكيّفوا مع ما يفعله المشتبه به». لن يسمح إينسينيا بحدوث ذلك.

إينسينيا: حسناً، يمكنك أن تخرجي الآن... اخرجي وإلا سأخرجك بالقوة. لقد أعطيتك أمراً قانونياً.

لقد هدفَ إينسينيا الذهاب إلى ما هو أبعد من المخالفة، فقد كان لديه كثير من الأمور التي أثارت فضوله، كان مُدركاً بكل نواحي التحقّق البصري والاستجواب المخفي، وعندما بدا الموقف كما لو أنه يخرج عن سيطرته تدخّل بحزم. إذا كان هناك شيء ما لم يسر كما يجب في ذاك اليوم في الشارع مع ساندرا بلاند، فهو ليس بسبب أنه لم يتصرّف كما تم تدريبه، بل على العكس تماماً، كل ما حدث كان

بسبب أن إينسينيا تصرّف تماماً وفقاً لتدريبه.

4

في التاسع من شهر أغسطس عام 2014، قبل عام واحد من انتحار بلاند في زنزانتها في برايري فيو، تكساس، قُتِل فتىً أميركي من أصلٍ إفريقي يُدعى مايكل براون في الثامنة عشرة من عمره رمياً بالرصاص على يد شرطيٍ أبيض في فريغسون، ميسوري. كان براون مُشتبهاً به في سرقة متجر بقالة قريب. عندما واجهه دارين ويلسون - عنصر الشرطة - بذلك تعاركا، أقحم براون نفسه داخل نافذة مقعد السائق في سيارة الدورية العائدة لويلسون ولكمَه. انتهى الأمر بأن أطلق ويلسون ست رصاصات عليه. أعقب تلك الحادثة سبعة عشر يوماً من الاحتجاجات. امتنع وكلاء النيابة عن توجيه أية اتهامات للشرطي ويلسون.

كانت فريغسون هي القضية التي تسببت بفترة فاصلة غريبة في الحياة الأميركية عندما أصبح سلوك عناصر الشرطة فجأة محط الانتباه والاهتمام، ويجب أن يكون ذلك بمثابة تحذير. أرسلت وزارة العدل الأميركية على الفور فريقاً من المُحقّقين إلى فريغسون، وتم نشر تقرير فريق التحقيق بعد ستة أشهر، إن هذا التقرير وثيقة استثنائية للغاية. كان أحد قادة فريق وزارة العدل مُحامياً يُدعى تشيراج بينز، ويقول بينز إن أكثر ما أدهشه على الفور أن الغضب في فريغسون لم يكن فقط بشأن موت براون، أو لم يتمحور بشكلٍ كبير حوله، إنما بشأن نمط مُحدّد من عمل الشرطة الذي تمّت ممارسته في المدينة

لسنوات. كانت شرطة فريغسون بمثابة المعيار الذهبي لعمل شرطة مدينة كنساس، لقد كان المكان الذي بُنيت فيه فلسفة تطبيق القانون بأكملها على إيقاف أكبر عدد من الأشخاص بالاستعانة بأكبر عدد من الأسباب.

يتذكر بينز: «كان الأمر مُقلقاً للغاية».

أخبره أحد عناصر الشرطة: «إن الأمر برمته بشأن المحاكم».
وقال آخر: «أجل، إنهم يُجرون تقييماً شهرياً، ويضع رؤسائنا في العمل على الحائط قوائم بأسماء العناصر وعدد المخالفات التي حرروها في ذلك الشهر». لقد فهمنا أن الإنتاجية هي الهدف.

حسناً، كان في فريغسون قسم شرطة، وكان كل عناصره على شاكلة بريان إينسينيا. يتابع بينز:

لقد عَلِموا أن عملهم هو تحرير المخالفات، واعتقال الناس الذين لا يدفعون المخالفات والغرامات وعلى هذا الأساس يتم تقييمهم.

يوثّق بينز إحدى أكثر الحوادث التي صدمته وقد ورّطت شاباً أسود كان يلعب كرة السلة في ملعب قريب. بعد أن انتهى من اللعب، وجلس في سيارته لكي يستريح، ظهرت سيارة شرطة خلفه. اقترب الشرطي من نافذة السائق، وطلب إليه أن يريه ما يثبت هويته، مُتّهماً السائق بأنه مُتحرّش بالأطفال.

أظن أن الشرطي قال شيئاً للتأثير من قبيل: «هناك أطفالٌ هنا وأنت في الحديقة، ماذا تكون؟ مُغتصب أطفال؟». ثم أمره الشرطي أن يخرج من السيارة فما كان من الشاب إلّا أن قال: «حسناً، لن

أفعل أي شيء؛ أقصد أنه لديّ حقوق بحسب الدستور، أنا أجلس هنا فحسب بعد أن لعبت الكرة».

عندها شهر الشرطي مُسدّسه بوجه الشاب، وهدّده، وأصر على أن يخرج من السيارة. إن الطريقة التي انتهت بها الحادثة هي أن الشرطي حرر ثماني مخالفات مُختلفة بما فيها عدم وضع حزام الأمان عندما كان جالساً في سيارته في الحديقة، وعدم حيازته رخصة قيادة، إضافة إلى وجود رخصة مُعلّقة، لقد تدبّر الأمر على نحو يستصدر فيه كلتا المخالفتين.

حتى إن الرجل تلقى مخالفة «لتقديمه إفادة كاذبة» لأنه عرّف عن نفسه على أنه «مايك» في حين أن اسمه كان مايكل في الحقيقة.

لقد انتهى به المطاف بتحمّل كثير من التهم لفترة طويلة من الزمن. ما حدث له بعد ذلك هو أنه أُتِهم بثماني جرائم وفقاً للقانون المحلي لفيرغسون، وسعى وراء العدل. إلّا أن الحصيلة هي أنه أصبح رهن الاعتقال بفعل تلك الحادثة، لقد خسر عمله إذ كان مقاولاً يعمل لصالح الحكومة الفيدرالية. إن ذلك الاعتقال كان كارثياً بالنسبة إليه.

إن اعتقال مايك بمثابة نسخة طبق الأصل من اعتقال ساندرا بلاند، أليس كذلك؟ يدنو عنصر شرطة من مدني بناء على ذرائع واهية، يبحث عن إبرة في كومة قش، إذ إن النتيجة هي القبض على العديد من الأشخاص الأبرياء في موجة جنون الارتياب التي تؤدي إلى زوال الثقة بين الشرطة والمجتمع.

ذلك ما تم الاحتجاج عليه في شوارع فيرغسون: سنوات وسنوات فشل خلالها رجال الشرطة في التمييز بين لاعب كرة سلّة

ومُغتصِب أطفال.[1]

هل هذا بشأن فيرغسون أم ميسوري أم براري فيو في تكساس؟ بالطبع لا. فلنعد إلى الوراء قليلاً إلى الفترة التي أدت إلى زيادة مفاجئة في حالات التوقيف المروري من قبل دورية الطريق السريع في نورث كارولينا. لقد ازدادت في غضون سبع سنوات من 400 ألف إلى 800 ألف. هل كان ذلك بسبب أن سائقي المركبات في تلك الفترة شرعوا فجأة في تجاوز الإشارات الحمراء وشرب الكحول بشكلٍ أكبر أو تجاوز حدود السرعة أكثر من المعتاد؟ بالطبع لا. بل كان لأنَ الشرطة غيّرت من تكتيكها. لقد أصبح رجال الشرطة يبحثون أكثر في كومات القش. تم توجيه عناصر الشرطة لكي يتجاهلوا نزوعهم الطبيعي نحو تجاهل الحقيقة ويبدؤوا بتصوّر الأسوأ: قد تكون امرأة شابة قادمة من مقابلة عمل مُسلّحة وخطرة، أو قد يكون شاب يستريح من مباراة صغيرة مُغتصب أطفال.

ما عدد الأسلحة والمخدرات الإضافية التي عثرت عليها دورية الطريق السريع في نورث كارولينا من هذه التوقيفات الإضافية التي ناهزت 400 ألف؟ سبعة عشر بالضبط. هل يستحق الأمر حقّاً أن يتم تنفير ووصم 399983 شخصاً على غرار مايك وساندرا فقط للعثور على 17 تفاحة فاسدة؟

عندما صمّم لاري شيرمان تجربة الأسلحة في كنساس كان

(1) هناك دليل مهم على أن الأميركيين من أصول أفريقية أكثر عرضة بدرجة كبيرة للتوقيفات المرورية من الأميركيين ذوي البشرة البيضاء، مِمّا يعني أن هذه المعاملة المهينة على وجه التحديد للإيجابية الكاذبة ليست موزّعة بالتساوي على جميع المواطنين. إنها متمركزة على أولئك المواطنين الذين يعانون أساساً من معاملات مهينة أخرى.

مدركاً تماماً لهذه المشكلة. يشرح شيرمان: «لن تطلب إلى الأطباء الخروج إلى الشارع والشروع في فتح بطون الناس ليروا إن كانوا يعانون من مرض في المرارة، عليك أن تقوم أولاً بالكثير من التشخيص قبل أن تتخذ أي إجراء خطير، إن طريقة التوقيف المروري والتفتيش هي إجراء خطير. بإمكانها أن تولّد العدائية ضد الشرطة». بالنسبة إلى شيرمان فإن قسَم أبقراط في الطب يسري أيضاً على تطبيق القانون «أولاً، لا تؤذِ أحداً». يتابع شيرمان «لقد جلبت تمثالاً من الرخام لأبقراط لأحاول أن أشدّد في كل يوم عندما أنظر إليه أنه علينا أن نُقلّل من ضرر عمل الشرطة إلى أدنى حدّ ممكن، علينا أن نأخذ في الاعتبار أن كلّ شيء تقوم به الشرطة يتعدّى ببعض الطرق على حرّية أحدهم. الأمر ليس فقط بشأن أن نضع الشرطة في المناطق ذات النشاط الإجرامي الكثيف، إنما بوجود المكان المناسب بحيث يكون فيه القدر الكافي فحسب من التعدي على الحرية، وألا يتم تجاوز ذاك المكان قيد أنملة».

لهذا، خضع عناصر الشرطة المنخرطون في تجربة شيرمان في كنساس لتدريب خاص. يشرح شيرمان[1] «كُنا نعلم أن عمل الشرطة

(1) في مشاريع لاحقة مع اسكوتلند يارد في لندن، عندما كانت الشرطة تحاول الحد من موجة جرائم القتل بالسكاكين بين المراهقين، أصرّ شيرمان على أن يُظهر عناصر الدورية بطاقاتهم الشخصية إلى كل شخص يتحدثون إليه. يقول شيرمان: «في بعض الأحيان كانوا يقومون بما يقارب الخمسمئة توقيف في الليلة الواحدة، وكانوا يسلّمون قسيمة لأي أحد يقومون بإيقافه يكون فحواها، 'هذا اسمي، وهذا رقم شارتي. إذا كانت لديك شكاوى أو استفسارات بشأن ما فعلته، بإمكانك المتابعة بالاستعانة بهذه القسيمة'».

الوقائي ينطوي على مخاطرة مشروعة للشرطة، لقد شدّدت على ذلك مراراً». وبدرجة أكثر أهمية، هذا هو السبب في تقييد مكان التجربة في المنطقة 144، كان مكان الجريمة هناك. يتابع شيرمان: «لقد بذلنا جهدا في محاولة إعادة تأهيل المناطق ذات النشاط الإجرامي الكثيف». في أحد أسوأ أحياء المدينة، في ذاك الحين اتّخذ شيرمان خطوة إضافية من خلال تطبيق التحليل البالغ الدقة نفسه الذي كان قد استعان به سابقاً هو وويسبارد في مينابوليس لحصر مكان تمركز الجريمة في مناطق بعينها من الشوارع. بعد ذلك أبلغ عناصر شرطة الدوريات أن يركّزوا جهودهم في تلك المناطق. لن يبحث شيرمان أبداً عن الأسلحة بطريقة عدوانية في حيٍ ينعم بالأمان.

لم تختفِ مشكلة «مايك وساندرا» في المنطقة 144، ولكن الغاية من اقتصار تجربة الأسلحة في كنساس على أسوأ المناطق في أسوأ الأحياء هي أن تصبح كومة القش أصغر، إضافة إلى تسهيل المقايضة المحتومة ما بين مكافحة الجريمة ومضايقة الأشخاص الأبرياء. إذا تصرّف عناصر الشرطة على نحوٍ عدواني كما أرادهم شيرمان في أي تجمّع سكاني طبيعي فسيكون ذلك بمثابة البحث عن مشاكل. من ناحية أُخرى، بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعانون في المناطق التي تشكل 3–4 بالمئة من الشوارع حيث تتفشى الجرائم، حيث يتم استدعاء الشرطة إليها بما يقارب مئة أو حتى مئتي مرة في العام، تفترض نظرية الاقتران أن الحسابات ستكون مختلفة.

يشرح ويسبارد: «ماذا يحدث في المناطق التي تشهد كثافة في عمل الشرطة؟ بإمكانك أن تخبر عناصر الشرطة 'اذهبوا إلى عشرة

شوارع من أصل مئة شارع، أو حتى ألف شارع في ذاك الحي، وامضوا وقتكم هناك'، حيث إن الجرائم تحدث هناك، وإذا قمت بذلك، فهناك احتمال كبير لأن يقول سُكان الحي، 'أجل إن ذاك التعدي على الحرية يستحق العناء، لأنني لا أريد أن أصاب بالرصاص غداً'».

إن أول سؤال فيما يتعلق بريان إينسينيا هو: هل قام بالشيء الصحيح؟ ولكن السؤال الثاني الذي لا يقل أهمية عنه: هل كان في المكان الصحيح؟

5

تُوصف منطقة براري فيو، تكساس حيث أُوقفت ساندرا بلاند على أنها «خارج» هيوستن، كما لو أنها ضاحية، إلا أنها ليست كذلك، تبعد هيوستن خمسين ميلاً، إن براري فيو منطقة ريفية.

إن البلدة صغيرة: لا يتجاوز عدد سكانها عدة آلاف، ذات شوارع قصيرة تتجاور فيها المنازل الريفية المتواضعة. تتموضع الجامعة في إحدى نهايتي الشارع الرئيسي أف أم 1098، الذي يحدّ الجانب الغربي من حرم الجامعة. إذا قُدت سيارتك حول الجامعة في الطريق الدائري فستجد الكنيسة الأسقفية جهة اليسار، وملعب كرة القدم التابع للجامعة جهة اليمين، وبعد ذلك هناك الكثير من أراضي الرعي التي توجد فيها غالباً الأبقار أو الخيول. إن السمة الرئيسية للسكان في مقاطعة والار – حيث تتوضع براري فيو – هي أنهم من الطبقة العاملة البيضاء المتوسطة المؤيدة للجمهوريين.

رينفرو: حسناً، حدثني عن تلك المنطقة، هل هي منطقة ذات

نشاط إجرامي كبير؟

إينسينيا: إن ذاك الجزء من أف أم 1098 ذو نشاط إجرامي كبير، حتى بالنسبة إلى المخدرات. بحسب خبرتي في تلك المنطقة، والمواقف المشابهة التي مررت بها، فقد سبق لي أن اعترضت مخدرات وأسلحة وأفراداً مخالفين.

يتابع إينسينيا بعد ذلك ليخبر رينفرو أنه قام بالعديد من الاعتقالات بسبب «مُذكَّرات توقيف والمخدرات والعديد من الأسلحة، أغلبها إن لم يكن كلّها في ذاك الجوار».

أياً يكن الأمر، لا يشير سجل إينسينيا إلى أي من ذلك. ما بين أكتوبر 2014 وحادثة ساندرا بلاند في العاشر من يوليو في السنة التالية، أوقف إينسينيا سبعة وعشرين سائقاً في ذاك النطاق الذي يبلغ ميلاً واحداً من الطريق السريع. وكانت حصيلة تلك التوقيفات ست مخالفات سرعة، وهي إيقاعات إلزامية، يمكننا أن نفترض أن أي عنصر شرطة متيقظ بشكلٍ معقول سيفعل الشيء نفسه، حتى قبل حقبة كنساس. إلا أن معظم ما تبقى يندرج على ما يمكن اعتباره رحلات إينسينيا لصيد السمك. في مالاس عام 2015 أحال إينسينيا رجلاً أسود إلى المحكمة بسبب «الفشل في قيادة المركبة في مسار مروري واحد»، لقد أوقف سائقين خمس مرات بسبب انتهاك «المعايير الفيدرالية لسلامة المركبات 571.108» وهو قسم من الأنظمة الفيدرالية لسلامة المركبات الناظمة لإشارات الالتفاف وإضاءة لوحات التسجيل ومصابيح الفرامل، أما أسوأ ما في اللائحة فحالتان من القيادة في حالة سُكر، ولكن لنضع في اعتبارنا أن هذا

الطريق يمر بجوار حرم جامعي.

هذا كلُّ شيء. إن الطريق السريع أف أم 1098 ليس «منطقة نشاط إجرامي كبير، حتى بالنسبة إلى المخدرات»، عليك أن تذهب مسافة ثلاثة أميال إلى طريق لاوري، وهو نطاق يمتد لنصف ميل من المنازل المقطورة، كي تجد أي شيء في الجوار الذي لا يمكن اعتباره حتى منطقة ذات نشاط إجرامي.

يتساءل ويسبارد: «لماذا يُوقف الناس في أماكن حيث لا توجد جرائم؟ ذلك لا يبدو لي منطقياً».

شيرمان بدوره مرتاع بالقدر نفسه، يصف هذا بقوله: «في تلك الساعة من النهار في ذاك الموقع، لا يمكن تبرير إيقاف ساندرا بلاند لتغيير المسار المروري». حتّى خلال تجربة الأسلحة الأولية لكنساس، في حي أسوأ بمئة مرة من براري فيو، يضيف شيرمان إن عناصر الشرطة المُعَينين هناك نفّذوا التوقيفات في الليل فقط، ذاك هو الوقت الوحيد في اليوم حين كان معدّل الجريمة مرتفع بما فيه الكفاية لتبرير عمل الشرطة العدائي. تم إيقاف ساندرا بلاند عند الظهيرة.

من المحتمل أن بريان إينسينيا بالغ عمداً في وصف خطورة ذاك النطاق من الطريق لتبرير معاملته لساندرا بلاند. يبدو من المحتمل أنه ببساطة لم يحدث له أن فكّر في الجريمة على أنها شيء مرتبط على نحو وثيق بمكان. يقاوم المنظّرون الأدبيون ومهندسو الجسور ورؤساء الشرطة فكرة الاقتران، لماذا سيختلف عنهم عناصر شرطة الدوريات؟

حسناً، انتهى المطاف ببريان إينسينيا في مكان حيث لا يجب أن

يكون أبداً، ليوقف شخصاً لم يكن يجدر به أن يوقفه أبداً، وتوصل إلى استنتاجات ما كان يجدر به أن يتوصل إليها. إن الموت يكون من نصيب ساندرا بلاند عندما لا يعرف المجتمع كيفية التحدث إلى الغرباء.

6

إن هذا الكتاب يقول إنه ليس لدينا خيار سوى التحدث إلى الغرباء، خاصة في عالمنا المتحضر حيث لا توجد حدود. لم نعد نعيش في قرى معزولة، يجب على عناصر الشرطة أن يوقفوا أُناساً لا يعرفونهم، ويتعامل ضبّاط الاستخبارات مع مواقف تتّسم بالتضليل والغموض. يريد الأشخاص اليافعون أن يذهبوا إلى الحفلات لسببٍ واضح وهو مقابلة الغرباء: إن هذا جزء من تشويق الاكتشاف الرومانسي. ومع ذلك فنحن غير بارعين في هذه المهام ذات الضرورة القصوى على الإطلاق. نحن نظن أنه بإمكاننا تحويل الغريب إلى شخصٍ حميم ومألوف من دون ثمن أو تضحية، ولكن الحقيقة ليست كذلك، إذن ماذا علينا أن نفعل؟

يمكننا البدء بالتوقف عن معاقبة بعضنا بسبب إهمال الحقيقة. إذا كنت أباً وتعرّض طفلك لسوء المعاملة من قبل غريب – حتى لو كنت في الغرفة نفسها – فإن ذلك لا يجعلك أباً سيئاً. إذا كنت رئيس جامعة ولم تسارع إلى أسوأ احتمال ممكن عندما يتم تسليمك تقريراً خطيراً بشأن أحد موظفيك، فإن هذا لا يجعل منك مجرماً. إن افتراض أفضل ما يمكن بشأن بعضنا هو السمة التي شكّلت المجتمع

الحديث. إن تلك الظروف التي تُنتهك فيها فطرة الثقة بالآخرين لدينا هي مأساوية بحق. ولكن البديل عن ذلك – التخلي عن الثقة بوصفها دفاعاً ضد الضراوة والتضليل – أسوأ.

علينا أن نتقبّل حدود قدراتنا على حل شيفرة غموض الغرباء. في خِضمّ استجواب خ ش م، كان هناك جانبان، جيمس ميتشيل وزميله بروس جيسين المدفوعان برغبة إجبار خ ش م على الكلام، ومن ناحية أخرى تشارلز مورغان الذي كان قلقاً بشأن ثمن إجبار الناس على الكلام: ماذا لو كان فعل إجبار السجين على الكلام سيتسبّب بالضرر لذكرياته ويجعل ما قاله أقل موثوقية؟ إن توقعات مورغان الأكثر اعتدالاً هي نموذج جيد لنا جميعاً. ليست هناك آلية مثالية للاستخبارات المركزية لكي تكشف الجواسيس بين ظهرانيها، أو للمستثمرين ليكشفوا المحتالين وعمليات الاحتيال، أو لأيّ أحدٍ منا ليدقّق بتبصّر داخل عقول أولئك الذين لا نعرفهم. إن كل ما هو مطلوب إلينا هو ضبط النفس والتواضع. بإمكاننا أن نوجّه الأشخاص اليافعين بشأن الشرب باستهتار في حفلات الأخوية الذي يجعل من قراءة تصرفات الآخرين أمراً مستحيلاً. هناك أفكار لفهم الغريب، ولكن يتطلّب تنفيذها الاهتمام والانتباه.

لقد قلت في بداية هذا الكتاب إنني لا أنوي أن أضع موت ساندرا بلاند جانباً. لقد شاهدت تسجيل مواجهتها مع بريان إينسينيا أكثر مما أستطيع أن أحصي، وفي كل مرة أزداد غضباً أكثر فأكثر بشأن الطريقة التي تم بها «حل» القضية. لقد حُولت إلى شيء أقل بكثير مما هو في الواقع: عنصر شرطة سيئ وامرأة شابة زنجية مظلومة.

لم يكن الأمر كذلك. ما حدث بشكلٍ خاطئ على الطريق السريع أف أم 1098 في براري فيو تكساس كان فشلاً جماعياً. كتب أحدهم دليل تدريب شجّع بحماقة بريان إينسينيا على الاشتباه بأي أحد، وقد أخذه على محمل الجد. هناك أحد ما في رتبة أعلى في سلسلة القيادة في دورية الطريق السريع في تكساس أخطأ تقدير الموقف وظن هو وزملاؤه أنه من الملائم بمكان إجراء تجربة كنساس في الإيقافات المرورية في حيٍ ذي نسبة جريمة متدنية. لقد تصرّف كلّ من كان حوله على أساس افتراض أن سائقي المركبات الذين يقودون سيّاراتهم جيئةً وذهاباً في شوارع تكساس يمكن تمييزهم وتصنيفهم بناء على نبرة الصوت، وحركات التململ، وأوراق تغليف الطعام السريع، ووراء كل واحدة من هذه الأفكار افتراضات يتشاركها العديد مِنا، وهناك قِلّة مِمّن تجشّموا عناء إعادة النظر فيها.

رينفرو: حسناً، لو كانت بلاند أنثى بيضاء، هل كان سيحدث الشيء نفسه؟

إنها نهاية الإفادة، لا يزال إينسينيا ومُحقّقه يحاولان استنتاج ما حدث ذاك اليوم.

إينسينيا: لا أكترث للون البشرة، نحن نوقف المركبات والأشخاص لمخالفات قانونية، وليس بناءً على العرق أو الجنس على الإطلاق، نقوم بالتوقيفات لأجل المخالفات.

«نقوم بالتوقيفات لأجل المخالفات»، رُبّما هذا أصدق ما قيل في هذه الواقعة. ولكن بدلاً من المتابعة بالسؤال البديهي – لماذا نقوم بالتوقيفات لأجل جميع المخالفات؟ عثر رينفرو على شيء مصادفة.

رينفرو: برأيك كيف سيرد شخص متوتر عندما تسأله: «هل أنت على ما يرام؟». ثُمّ يعطيك ذاك النمط من الاستجابة، ثمّ تعود لتسأله: «هل قلت ما عندك؟». أعني كيف يمكن لذلك أن يكون بناءً على اتفاق؟

رينفرو حازم ولكنه مُتفهّم، على غرار الأب الذي يوبّخ ولداً صغيراً لأنه فظّ مع الضيوف على العشاء. اتفق كلاهما على التعبير عن الموت المأساوي لساندرا بلاند على أنه مجابهة شخصية سارت على نحوٍ سيئ، وهما الآن على المنصة حيث ينتقد رينفرو أسلوب إينسينيا في آداب المائدة.

إينسينيا: لم أحاول أبداً في أية لحظة أن أكون فظاً أو أن أقلّل من قيمة كلامها. كنت أسألها ببساطة إذا ما كانت قد أنهت ما تود قوله، لأتأكد من أنها قالت ما تريد قوله، وبتلك الطريقة أستطيع أن أتابع في إتمام التوقيف المروري و/ أو تحديد ما قد يكون أو لا يكون في المنطقة.

رينفرو: هل من العدل القول إنها قد تكون اعتبرت ذلك على أنه تهكّم؟

إينسينيا: يحتمل ذلك، أجل سيدي، لكن لم تكن لديّ النية بالتهكم عليها.

حسناً، إنه ذنبها، أليس كذلك؟ على ما يبدو أن بلاند أساءت تفسير نبرة صوته. إذا كنت غافلاً عن الأفكار التي تُشكّل الأساس لأخطائنا مع الغرباء، والمؤسسات والممارسات التي نقوم بتأسيسها بناء على تلك الأفكار، عندها كل ما سيبقى لك هو: متسلّق الجبال

الساذج، المهمل غراهام سبينر، الشريرة أماندا نوكس، سيلفيا بلاث المحكوم عليها بالفشل، والآن ساندرا بلاند التي في نهاية التحليل المطوّل لما حدث في ذاك التوقيف المروري المشؤوم على الطريق السريع أف أم 1098، أصبحت بطريقة ما الشخص الشرير في القصة.

رينفرو: هل سبق لك أن فكّرت ملياً في تدريبك في تلك المرحلة، وخطر لك أنك قد توقف شخصاً لا يحبُّ الشرطة؟ هل حدث لك هذا من قبل؟

إينسينيا: أجل سيدي، إنها لم تكن تحب الشرطة.

لأننا لا نعرف كيف نتحدث إلى الغرباء، ماذا نفعل عندما تسير الأمور بشكلٍ سيئ معهم؟ نحن نلقي باللوم عليهم.

التحدث
إلى الغرباء

في تموز عام 2015، أوقف شرطيٌ امرأة شابّة تُدعى ساندرا بلاند بسبب مخالفة مرورية بسيطة في ريف تكساس، بعد دقائق من توقيفها أرسلت إلى السجن، وبعد ثلاثة أيام انتحرت في زنزانتها، ما الخطب في كل هذا؟

يعالج كتاب التحدث إلى الغرباء، موضوع لقائنا بأشخاص غرباء، وكيف نسيء فهمهم؟ وكيف نكون منطقيين في ظروف غير منطقية؟ ولماذا نحن سيئون إلى هذا الحدّ في الحكم على الآخرين، وفي تفسير تعابير وجوههم، أو في كشف أكاذيبهم؟ ولماذا نخفق في فهمهم؟

من خلال سلسلة من الأحاجي والمواجهات وحالات سوء الفهم، ومن خلال قصص قصيرة متداولة إلى قضايا قانونية شائنة، يأخذنا مالكولم غلادويل في رحلة عبر اللامتوقع.

ستقرؤون في هذا الكتاب عن جاسوسة أمضت سنوات من دون أن يُكشَف أمرها في أعلى مستوياتِ البنتاغون، وعن الرجل الذي كشف حقيقة المحتال بيرني مادوف، وعن انتحار الشاعرة سيلفيا بلاث، والإدانة الخاطئة لأماندا نوكس. وفي النهاية ستكتشفون أن الغرباء ليسوا شخصيات بسيطة على الإطلاق.

لن يميط أحد اللثام عن دواخلنا مثل مالكولم غلادويل. فعبر صفحات هذا الكتاب يعرض الدوافع الكامنة وراء تصرفاتنا، وكيف يمكننا التعرف أكثر إلى أولئك الذين لا نعرفهم.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN: 978-614-01-2945-0
9 786140 129450